THE BOOK WAS DRENCHED

رسائل الأحزان

في فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

مطبعة الهلال

بمصر سنة ١٩٢٤

*

تاريخ آداب العرب (الجزء الاول) في اللغة وتاريخ روايتها

» » » (الجزء الثاني) في اعجاز القرآن

» » » (الجزء الثالث) في تاريخ الخطابة والامثال والشعر

(تحت الطبع)

كتاب المساكين

حديث القمر

ديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء)

ديوان النظرات

النشيد المصري الوطني وتاريخه (الطبعة الثانية)

نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه

*

*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كان لي صديقٌ خلطتُهُ بنفسي زمناً طويلاً وكنت أعرفه معرفةَ الرأي كأنه شيء في عقلي ، ومعرفةَ القلب كأنه شيء في دمي . ثم وَقَعَ فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسيني ، وطار على وَجْهه حتى غاب عن بصري ، والتفتْ عليه مذاهبُهُ فما يقع اليَّ من ناحيته خَبَر ؛ وامتدَّ بيني وبينه حَوْلٌ كامل خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه ، كأنه العامُ الأولُ من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التي لا تُنْسَى

وطلعت الشمسُ يوماً في غيم يناير من سنة ١٩٢٤ فأحسستُ قلبي من الذُعْر كالطائر يَنفُضُ ندى جناحيه في

أشعتها ، ولم تكد ترتفع وتتلألأ حتى وافى البريد يحمل
اليَّ خطه واذا فيه :

يا عزيزي الحبيب !

فقدتَني زمناً إن يكن في قلبك منه وخزةٌ ففي قلبي
منه كحزِّ السيف ؛ لم أنسك نسيانَ الجحود وان كنتُ
لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعثَ اليك بخبر يترجم عني ،
إذ كنتُ في سجن وأنا الساعةَ منطلق منه . لا تجزع
ولا تحسبنَّه سجن الحكومة ... إن هو الا سجن عينين
ذابلتين كان قلبي المسكينُ يتمزَّعُ في أشعة ألحاظهما كما
يكون المقضيُّ عليه اذا أحاطت به السيوفُ وجعل بَريقُها
يتخاطف معاني الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه
الروح . بل سجنُ فكري الذي ابتليتُ به وبخياله معاً
فلا يزال واحد منهما يبالغ في ادراك الجمال والآخر يبالغ
في تقديره حتى تكاد تطلَعُ نفسي من نواحيها (١) لكثرة

---

(١) اذا امتلأ الشيء الى آخره قيل كاد يطلع من نواحيه

ما يُسرِفان عليها كما يريد الاطفالُ أن يملأوا القــدح ليستفيضَ لا ليمتلىء ، وليرسلَ الماء لا ليُمسكه ؛ فلو أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافة قدح صغير

ما أحسبني قطُّ رأيتُ امرأة جميلة كما هي في نفسها وتركتها كما هي في نفسها بل هناك نفسي . وآهٍ من نفسي. وما أسرع ما يمتزج في هذه النفس بعضُ الانسانية المحبة ببعض الانسانية المحبوبة فاذا أنا بشيء إلهي قد خرج لي من الانسانيتين . هو هذا الشعر ؛ هو هـذا البلاء ؛ هو هذا الحب

فررت منك ومن سواك يا عزيزي مُصَيِّف[1] الى امرأة كالتي جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة ؛ وقد يكون اتصال رجل واحد بامرأة واحدة كافياً احياناً لتكوين عالَم كامل يسبحُ في فَلَكٍ وحده . عالَمٍ مسحور ،

---

(١) مصيف تصغير « مصطفى » على قاعدة الترخيم وكان الصديق يتحبب اليَّ به

في فلك مسحور ، لا يخضع الا لجاذبية السحر ، ولا يعرف الا تَهاويل السحر

على انك لم تفقد مني في هذه السنة الا بضعة كُتُب وكلاماً كنا نتَرَسَّل به وليس فيه الا الحبر ؛ فسأردُّ عليك من ذلك كُتبَ سنَوات وأعوضك برسائلي كلاماً فيه دمعُ العين ودمُ القلب . فقدتَني صديقاً يهزُّ يديك بتحيته والآن أعود اليك شاعراً يهز قلبك بأنينه . فقدتَني شخصاً وسأرجع اليك كتاباً

أما أنت فاكتب لي رَجْعَ كل رسالة تأتيك من قِبَلي واذكر لي موقعَهَا من نفسك وكيف كان دَبيبُها أو طيرانُها عندك فاني راميك بأسهُم لا قاصراتٍ عن قلبك تنزل دونه ولا زائداتٍ تمر عليه وتتجاوزُهُ بل مُسَدَّدات يقعن فيه

وأرجو عافاك الله ان لا تتَطَلَّعَ في تامي بنقد أو اعتراض او تعقيب بل دعني وما أكتبه كما اكتبه فان لكل شيءٍ طرَفين وان طرفي الجمال هما الحب والبغض ؛

ورسائلي هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه فلقد والله أحببتُ حتى أبغضت ، ولقد والله يُضْجِرِ العمل السامي اذا أصاب غيرَ موضعه كما يُضجر العملُ السافل اذا نزل في موضعه

ومتى انقطع هـذا المَدَدُ المتلاحق من كتبي فاجمع الرسائل وقدم لهـا كلمة بقلمك ثم اطبعها وسمها « **رسائل الاحزان** » ؛ انها كانت عواطفَ ثارت وقتاً ما ليحدُثَ منها تاريخ وسكنت بعد ذلك ليحدثَ منها شعر وكتابة

فان نجتمع بعدُ نظرنا فيها معاً وقرأتْها عيناكَ لقلبي، وان ارتاح الله لي برحمته [1] رفّت عليها روحي فأسمع صوتك في الغيب يرسل الى هذه الروح تحيةً من أنغام قلبها الميت

صديقك

٢١ يناير سنة ١٩٢٤ (. . . .)

« * »

وجعلت رسائل الصديق تترادفُ اليَّ مُسْهَبَةً ضافية تقطر فيها نفسُه كما ترسل السحابة المنتشرة قطرات انعقدت

(١) كناية عن الموت

وانحلت . ثم جعلت نفسه تنطوي على نأي حبيبته واشتد عليـه أمرها ثم أسْهلَ وانقاد ، واعتادها هاجرة فَراثَ قليلا [1] ثم كفَّ ؛ ومرت الظبية تَطْفُو [2] ووهبها للبر الواسع .... وانقلب عنها بعد أن ملأت نفسه كما يقول في بعض رسائله « بمثل البحر مِلْحاً ومرارة » ....

أما هذا الصديق فأعرفه أُسلوباً من الكِبْر ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن في نفسه ، كأنما فُتحت أفواهُ عروقه جنيناً وملأتها الوراثة من دم مَلِك كان في اجداده . مستصعِبٌ شـديدُ المراس فهو أَبداً في حياته كالملِك الذي حالت السيوفُ والأسـنة والقوانينُ بينه وبين تاجه فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما ؛ اجتمع من تاريخه انسان بلغ الزمنُ تحت عينيه نَيِّفاً وأربعين سنة، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب جفَّ القلم منها على نيّف وأربعين جزء! كلماتُها في حوادثها

---

(١) أي ابطأ واسهل عاد سهلا

(٢) تعدو لخفتها عدواً شديداً

وأن السطر منها ليُرْعَدُ في صحيفته من الغيظ وان الكلمة لتبكي بكاءً يُرى وان الحرف ليئن أنيناً يُسمع وان تاريخه كله لينتفض لانه مصيبة مَلَكية مصورة في ملِك

« * »

لقد سبَق الكتابُ وجفَّ القلم الأزلي على علم الله فما أَتينا الى هذه الدنيا الا ليمثل كلٌّ واحد منا فصلا من معاني الشقاء الانساني في تلك الثياب التي هي مِلْك لصاحب المسرح ، لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر. فلسنا نبتدع ولكن يُلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذي ، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها . وضعها ذلك القلم الأعلى الذي كتب مقاديرَ كل شيء كان او يكون حتى تُمحَى من صفحة الارض هذه الأحرفُ السوداء المتحركة والساكنة . . . . (١)

والمشكلة الانسانية الكبرى ان كل انسان يريد أن يكون بطلَ الرواية ومَثَلَها البِكْر حتى ذلك الشخص

(١) كناية عند الناس

الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في سِياَقها . غير ان الرواية مفصَّلة من قبل، ويأتي فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه فينصبُّ على ممثله جملة واحدة على وجه لا يُحَس ولا يُرى ولا يُدفع كما يلبسه النوم فاذا هو يَفتِل فيه فتلاً واذا رجلٌ على أعين الناس باللعنة حالٌ وباللعنة مرتحل

النوم والقَدَر والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتُها أجزاء لشيء واحد ؛ فالنوم غفلة تُخرِج الحي هُنَيْهةً من الحياة وهو فيها على حالة اخرى ، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها الى حالة أخرى، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هَيِّناً على اهل السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفاً في أسلوب الموت ، ولن يجلبَ شيئاً او يدفعَ عن نفسه شيئاً من هذه الثلاثة الا الذي لم يُخلق على الارض . ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام ، او يحفظ نفسه على الصغر والكِبَر فلا يموت ، أو يضرب بيديه على مَدَار الفلَك فيُمسكه ما شاء او يُرسله

« * »

جئنا الى هذه الحياة غيرَ مخيَّرين ونذهب غير مخيرين إن طوعاً وان كرهاً ؛ فمدَّ يدكَ بالرضا والمتابعة للاقدار او انزعها ان شئتَ فانك على الطاعة ما أنت على الكره وعلى الرضا ما أنت على الغضب ؛ وان تعرف في مذاهب القدر اذا أنت أقبلتَ أو أدبرتَ أيّ وجهيك هو الوجه ، فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك او مدبراً والمنفعة أمامك والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيّهما شاء

وحريٌّ بمن يوقن انه لم يولد بذاته ان لا يشك في انه لم يولد لذاته ؛ وانما هي الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تاركٌ نفسك لك

« * »

كذلك كان صديقي وما هو الا انسان من الناس ، وقد بلغ من العمر أربعة عقود ولكنه يحس منذ الصغر أنه رجل هرم او كما يقول بعض الفلاسفة [1] في تعليل ذكاء الاذكياء انهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه لان فيهم

---

(١) ينسب هذا الرأي لافلاطون

نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالا
وتلك خرافة ؛ ولكن من نقص هذا الانسان انه لا يستطيع
التعبير عن اكبر الحقائق وأدقها الا بأسلوب خرافي ...

قال لي هـذا الصديق يوماً : اني بلغت اربعة عقود
ولكنها فيما عانيتُ كأنما تضاعفت الى اربعين عقداً ؛ وقد
انتهيتُ من دهري الى السنّ التي ينقلب فيها الآدميُّ من
وَفرة القوة ليثاً ويرجع من قوة الحكمة نبيًّا ويعود من
تمام العقل انساناً . غير ان هذه الاربعين مما تعاوَرَتْ عليّ
قد هـدم فيَّ بعضُها بعضاً ؛ فان اكن بناءً فذلك صَرْحٌ
مُمَرَّد عمل فيه اربعون مِعْولا فما أبقت حجراً على حجر ؛
وان اكن حَوْمَةً فقد اعترك فيها للأقدار اربعون جيشاً
فما تُؤَرَّخ بنصر ولا هزيمة . يا وَيْلَتَا من هـذه الدنيا . ان
مصيبة كل رجل فيها حين يصير رجلاً أنه كان فيها طفلاً
وما علم أنه كان طفلاً

تلك حياة الصديق وكانت ليلا طويلا انبسط عليه
فَنَنٌ من الظلام كانه مُورقٌ بالسحُب والغمائم السوداء

لا ينقشع بعضها عن بعض حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء عليه في وجهها وطلعت شمس حبه من خديها حمراء في لون الورد اذ امتزجت أشعتها بظلماته

ويؤخذ من رسائله ان صاحبته كانت من قوة الجاذبية كأنها كوكب جذب منه كوكباً آخر ، ومن فتنة الحسن كأنها رسالة الهية الى هذه الارض بل اليه وحده في هذه الارض . أدارته هذه الحياة طويلاً وأدارتها ليجيء ووضعه الى جانبها فكأنما ادارت منه فلكاً عاتياً لا يتزحزح الا بعد دفعه اربعين سنة كاملة ....

رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين في طينة الخلق الازلية وخرجتا من يد الله معاً . هي بروعتها ودلالها وسحرها وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، فكان منهما شيء الى شيء كما توضع زجاجة الحبر الاسود الى جانب يتيمة من الألماس أُجيد نحتُها وصقلُها وتكسر على جوانبها شعاعُ الشمس فاذا هي من كل جهة تغرّ يتلألأ

واذا بالزجاجة ولو على المجاز « ألماس اسود »

كانا في الحب جزءين من تاريخ واحد نَشر منه ما نَشر وطوى ما طواه ، على انها كانت له فيما أرى كملَك الوحي للانبياء ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي ؛ فكل ما في رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه

« * »

هدمت الاقدار هذا الصديق حتى انحط كل ما فيه من العزم والقوة فجاءت « هي » تبنيه وتشدُّ منه وتُرمِّم بعض نواحيه المتداعية وتقيمه بسحرها بناءً جديداً وتحفت به عنايتُها زمناً حتى صَلُحَ على ذلك شيئاً فأيسرت روحه من فقرها الى الجمال والحب . ويقول صديقي « انه ليس على الارض من يشعر كيف ولدته أمه ولكني رأيت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبة نفسي ؛ مرتْ بيديها على أركاني المتهدمة واعانتها الاقدار على اقامتي وبنائي وغير أن هذه

الاقدار لم تدعها تبنيني الا لتعود هي نفسُها بعد ذلك فتهدمني مرة أخرى »

يصف حبيبته في هذه الرسائل كأنه مسحور بها فيجيء بكلام علْوي مشرق كتسبيح الملائكة يمازجه أحياناً شيء يحار فيه الفهم لان أحدنا انما يرسل فكره وراء قلمه ، أما هو فيرسل نفسه وراء فكره ويستمد قلمه منهما . فمنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ومنزلتنا أن نفهم كلمتين ، والانسان منا كاتب مفكر ؛ أما هو فقد زاد بصاحبته فكان كاتباً مفكراً وملهَماً

ومما لا اكاد افهمه انه يكتب كتابة محب أحياه الحب ومبغض قتله البغض ؛ فاني لأعلم ان كل شيء حبيبٌ ممن نحبه حتى البغض اذا كان يدل على حبه ولو دلالة خفية . بيْدَ ان صاحبي يجفو جفاء شديداً فلعلها انفَة غلبت بها النفس على القلب فحولت الحب الى جفاء والجفاء الى غيظ والغيظ الى مقْت وانما المقتُ اول البغض وآخره

« * »

يا صديقي المسكين لا يَحْزُنْكَ فان آخر الحب آخرٌ لأشياء كثيرة ... وان من بين النساء نساءً أولهُن كالشباب وآخرهن من أشيـاء كالهرم والضجر والضعف والموت

ويا جمالَ النساء ان كان في الاشياء ما هو أحسن وأجمل فان في الاشياء ما هو أنفع وأجدى ، وقد تكون الجدوى والمنفعةُ من الجمال في بغضه أحياناً اكثر مما تكون في حبه

ويا رحمةَ الله من فوق سبع سماواته لقـد علّمتِنا بما نجده فيسرُّنا ، وما ننساه فلا يضرنا ، أن لا نيأس منكِ أبداً ولو كنا من الهمّ تحت سبْع أراضيه

مصطفى صادق الرافعي

*

الذكرى

ما أشَدَّ على قلبي المتألم أن لا يأخذَ بصري من الناس إلا من يتَدَحْرَجُ في نفسي إهويَ منها أو يَتَقَلَّبُ في أجفاني(١) لِيثْقُلَ على عينيَّ ؛ وأحاول أن أرى تلك الطلعة الفاتنة التي انطوى عليها القلب فانبَثَّ نورها في حواشيه المظلمة ، وأن أملأ عيني من قمر هـذا الشعاع الذي جعل السماء في جانب من صدري ؛ فإذا ما شئتُ من الوجوه الا وجهَ الحُبِّ ، واذا في مطلع البدر من رُقْعَةٍ سوداءَ لا تبلغ مدَّ ذراع وغشى الكون كلّه منها ما يغشى . فاللهمَّ أوْسِعْ لقلبي سَعَةً(٢) يلوذُ بها

العالم لكل الناس . غير أن لكل انسان عالماً هو خالصةُ نفسه(٣) : وعلى أن هذه الدنيا مترامية الى كل جهة

(١) كناية عن الثقل وفلان يتقلب في اجفان عيني اي ثقيل

(٢) اي اجعل له سعة لا تضيق به السلوة

(٣) ما استخلصه لنفسه ممن يحبهم كأنهم من نفسه

تَتَدَلَّى عليها السماء ، فان أراضِيَها الخمس بما رَحُبَتْ لا تَقُومُ عندي بتلك الجدران الاربعة التي رأيت فيها من أحبَبتُها ؛ رأيت من هـذه صورة قلبي فلا عَجَبَ أن تكون تلك الجدران صورة ضلوعي . وما أدري أذلك سِحْرٌ أم تَلْبِيسٌ أم تخييلٌ ؛(١) أم هو الحب ؟

اذا كنتَ شاعراً فأضْلَلْتَ نفسك فَنَشَدتَها طويلا وقلَّبتَ عليها آفاقَ النفوس وأفلاكَ القلوب فانك لن تصيبها الا في نفس امرأة جميلة يجعلها مهندس الكون مركزاً للدائرة التي تَنْفَسِحُ بأقطار نفسك ذاهبةً بكل قُطر الى جهة من أمانيّ الحياة

واذا كنتَ حكيماً فسألتَ نفسك سؤال الفلاسفة : من أنا ؟ ووجدتَ في نفسك ذلك السرَّ الخفيَّ يقول عنك : من هو ؟ فانه لن يظهر لك معنى « أنا وهو » الا اذا وضع الحب بينهما « هي » . . .

واذا كنت رجلاً من عامَّة الأرض انْدَمَجَ في

(١) ما يخيل للعقل ويجعل الامور ملتبسة

جِلْدة من الثَّرى (١) فان نفسك لن تُحِسَّ جوهرَها الالٰهي الا في نفس حبيبةٍ وان كانت من عامَّة السماء . . . . فالحب يجعل الناس أعلاهم وأسفلَهم صاعدين أبداً من أسفلَ الى أعلى

« * »

إني أخطُّ في هذه الصفحات صورة من الزمن الفاني تُصَوِّر خَطْفَةَ البرق التي خطرتْ في سماء العمر من ابتسامة ملتهبة كانت سيَّالةً بكهربائها ؛ وان في القلم لشيئاً إلٰهياً يدفع الموتَ والنسيان عن المعاني التي تُكتب الى أَجَل طويل ، كأنَّ القلم ينتزعها من الانسان الذي هو قطعةٌ من الفَناء ليُبعد الفناء عنها . هي « رسائل الاحزان » لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لانها الى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسان كان سِلْماً يُتَرْجِمُ عن قلب كان حرْباً ، ثم لان هذا التاريخ الغَزَلي كان ينبُع كالحياة وكان كالحياة ماضياً الى قبر

---

(١) كناية عن الرجل من العامة لا هم له الا هم العيش فلا يعلو عن الارض

ليس بيني و بين الهوى شأنٌ ولا عداوة ولكنها تركت فيَّ ثلاثاً : قلبٌ أخلص لها وأوغَرَتهُ[١] عليها، و بقايا آلام كأنها أشلاءٌ[٢] من فريسة تُشير الى تاريخ من الموت والألم والتمزيق ، وتركت مع هذين اسمَها الذي أحفظها فيه بجملتها ، وقد يُحْسَمُ الداءُ[٣] ولكن اسمه يبقى داءً ما بقي . فهذه الاسماء اكثرَ ما انتَ واجدُها إما زيادة على أصحابها في الحب او زيادة في البغض او زيادة في الألم ، إذ هي عند أشخاصها تُطلق على أشخاصها ، ولكنها في الناس تنبه الى المعاني والحوادث والصفات المجسَّمة التي تنتشر عليها النفس او تنقبض ويتحرك لها الدم حباً او بغضاً ورغبةً او رهبة وعطفاً او غِلظةً وأحياناً . . . إهمالاً او ازدراء

والحبيب قد يتحول الى كلمة او قُبلة او معنى من المعاني اذا اراد محبه ان ينقله معه الى أي مكان وهو باقٍ في مكانه ؛ الكلمة والقُبلة والمعنى . هذه هي الجهات الثلاث التي تنفذُ منها النفس الى أحبابها حين يُخفيهم الغَمام الفاصل

(١) أحفظته وملأته حقداً (٢) اجزاء (٣) تنقطع مادته ويبرأ

بين الحياة والحياة اذا ابتعدوا او هجروا أو الغمام الضارب بين الحياة والموت اذا لحقوا بالأبد . أما الجهة الرابعة فهي تفتح للمحب يأتي جسمه ويصعد بروحه ويختفي هو فيها . ولعَمْري اني لأريد ان أنساها ثلاث مرات لا مرة واحدة ولكنها في ذكراي كأنها ثلاث نساء واحدة في الرضا وثانية في الغضب وثالثة بين ذلك ؛ واحدة في كلمة وأخرى في قبلة وثالثة في معنى من المعاني . . . .

« * »

السعادة تنصرف عنا في اكثر الاحيان ليكون تلهفنا عليها واهتياجنا لها سعادةً على وجه آخر وكأنما أوشكتْ [1] لنا من هذه الجهة وهي ذاهبة ؛ واذا لم يكن الانسان بأشدّ حاجة الى الطعام في وقت منه الى الجوع في وقت غيره فكذلك هو في غذاء روحه وعواطفه، يفقد السعادة وقتاً كالجوع ووقتاً كالصوم . وان هذا لهو بعضُ أسرار الحكمة الالهية في الشقاء الانساني ولكنه كذلك

(١) أي قربت وعرضت

من أسباب سوء الفهم في الانسان . ولقد ذهبت هي كالسعادة فلا أطمع ان يتنفَّس قلبها على قلبي او يتنهد صدرها لصدري ، غير ان الشاعر الروحاني الذي يَسعد بالحب اذا أرضى الحبُّ نفسه يكون اسعد بالهجر اذا أرضى نفسه كذلك ، ومع الحب عالَم كثيف يُنشِيء في كل يوم ألماً ، ومع الهجر عالَم مجرد يُحدث في كل يوم سلوة

فلنترك المادة للمادة يتحطَّم البغض والغيظ فيهما وتخلص الروح الى الروح كنور في المشرق ينبعثُ الى نور في المغرب : واذا ابتعد نجم عن نجم استطاع كلاهما أن يَلْمَحَ للآخر لمحةً متبسمة من بعيد ، يجعلها البعد شعاعاً صافياً وان كانت في ذات نفسها شعلة من جحيم يَتَضَرَّم

ان هذه الذكرى حياة أَبثُّها مني في نسيانها فما أهنأني ان يجيئني من نسيانها شيء تبثه هي في حياتي

(....)

*

بعد ما كنتَ وكنا[1] ؟

يا رياضَ الغزالِ في سرحِكِ الفي
ـنانِ يهفو بنا النحولُ غصونا[2]
ما الذي يجعل المحبَّ سعيداً
غيرُ من غادرَ المحبَّ حزينا
ليتني في ثراكِ نبعٌ ويأتي
يتراءى الغزالُ في النبع حينا
ليتني في رباكِ ظلٌّ ظليلٌ
ليلوذَ الغزالُ بي ويلينا

« * »

بعد ما كنتَ يا غزالُ وكنا
ما الذي تحسبُ الهوى أن يكونا ؟

---

(١) كل ما يأتي في هذه الرسائل من الشعر فهو منها
(٢) اصل الفينان الحسن الشعر الطويله واستعيرت هنا للشجر

الرسالة الاولى

سأكتب هـذه الكلمات المرتعشة ، وسأبسُطُ رِعْدَةَ قلبي في ألفاظها ومعانيها ؛ أكتبُ عن (...) ذلك الاسم الذي كان سنةً كاملةً من عُمْرِ هذا القلب ، على حينِ أن السعادة قد تكون لَحَظاتٍ من هـذا العمر الذي لا يعدُّ بالسنين ولكن بالعواطف ؛ فلا يسعُني الا أن أردَّ خواطري الى القلب لتَنْصَبِغَ في الدم قبل ان تنصبغ في الحبر ثم تخرج الى الدنيا من هناك بين ما يَخْفُقُ وما يزْفِر وما يئنّ . « من هناك » ! آه . من تُرى في الناس يعرف معنى هـذه الكلمة ويتّسِعُ فكره لهذا الظّرف المكاني[1] الذي أُشير اليه ؟ إن العقل ليمُدُّ أكنافَه[2] على السموات فيسعها خيالاً كما ترى بعينيك في ماء الغَدير شبكَةَ السماء كلّها محبوكةً من خيوط الضوء ، مفصَّلةً بعقد النجوم . ولكن هناك ؛ في القلب ؛ عند مُلْتَقَى سر الحياة

(١) هناك من ظروف المكان (٢) جوانبه

بسر مُحبيها ؛ وهناك ؛ في القلب ؛ عند النقطة التي يَتَقَطّعُ فيها الطَّرف[١] بينك وبين من تحب ، حين تريد الجميلة ان تقول لك اولَ مرة أحبك ؛ ولا تقولها . هناك ؛ في القلب ؛ وعند موضع الهوى الذي يَنْشَعِبُ فيه خيطٌ من نظرك وخيط من نظرها فَيَلْتَبِسان[٢] فتكون منهما عُقدة من أصعب وأشد عُقَد الحياة . هناك ؟ هذا معنى «هناك»

((*))

سأكتب اشياء وأضمرُ على أخرى لا أبوح بها ، وما دام لكل امرئ باطن لا يُشْرِكُهُ فيه الا الغيبُ وحده ففي كل إنسان تعرفه إنسانٌ لا تعرفه . ولبست على المعاني والخواطر سِماتٍ[٣] تميز بعضها من بعض كبياض الابيض وسواد الأسود ؛ فأنا وحدي أعرف سبب الزلزلة التي أصفُها ، والناس بعدُ كأولئك الخياليين القدماء الذين كانوا

(١) تقطع النظر أن ينظر في اغضاء وفتور كنظر المستحي
(٢) يختلطان وينعقد احدهما بالآخر
(٣) أي علامات جمع سمة

يقولون متى اهتزّت أثقالُ الارض[١] : إن إله المصارعة يَنبِض قلبهُ الآن .... وأعرف سبب البركان المنفجر وكانت خُرافة الاقدمين عندما تتمزّع الارض من الغيظ وتلعنهم بألفاظ من النار : أن الله الحِدَادة ينفخ في الكِير .... أنا وحدي أعرف ما أندَمِجُ عليه[٢] وما يُكِنُّهُ قلبي المتألم الذي أصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة في شجرتها نافرةً تتَمَلْمَلُ إن عَفَتْ عنها نَسمة لا تعفو النسَمات كلها . فسآتيك في رسائلي بالكلام الصحيح والكلام المريض ويتشعّب عليك من خبري أمور وأمور فلا تحاول أن تَهتِكَ سر هذا القلب . واذا صح ان الانسان انطوى فيه العالَم الا كبر فقد صح أن السماءَ انطوت في قلب الانسان . ما أَبْعَدَكَ عن السماء ! انظر انظر فان السماء تقول لك ايضاً انها معنى « هناك »

« * »

لم تُحيِّرني المتناقضاتُ ولا المتشابهات ولا صِفْتُ

(١) كناية عن الزلزلة (٢) أنطوي عليه

بأسباب الفكر فيها فان ذلك الحب جعل فيَّ عقلين لا عقلا واحدا ؛ احدهما يُقِرُّني في هذه الدنيا والآخر ينقلني الى ثانية ؛ دنيا الناس جميعاً ودنيا امرأة واحدة ؛ دنيا السموات والارض ودنيا قلبي

في العقل الأول تنحلُّ كل المُشْكِلات ، وفي الثاني تتعقّد كل « البسائط » . . . . أحدهما قوي فلو اجتمعت عقول اعدائه في عاصفة واحدة لكان وحدَه عاصفةً تَلِفُ بها لفّاً . والآخر ضعيف ضعيف تُمرضه الا بتسامة الواحدة مرضاً طويلا . ذلك يَكْسِر النفس كسرا ويَرُضُّها رَضَّ الهَشيم[1] ويَزَعُها من جَمَحاتِها ؛ وهذا ؟ كان الله له لا يُشبِه الا الفصاء ما نُسِب الى شيء ولا حُسِب في شيء . . . .
الأول جبّار يلد المِحْنَة ويُميتها ، فهو عقل ما ينقطع له من الحيلة مَدَد ؛ والثاني خَوّار[2] يُمْتَحَن بالنظرة الفاترة المتهالكة دلالاً فتَحْمِل هذه المحنة وتلد في طريقها اليه فلا

---

(١) الهشيم ما يبس من دقيق النبات فكسره اهون الاشياء
(٢) ضعيف لا جلد فيه

تصل حتى تكون محنتين . . . . وأنا بين هذين العقلين كأني عالمَ عجيب حقائقه هي خرافاته ، وما مَثَلي الا مَثَل النهر الطامي يتدفّق الى البحر وقد فار فائِرُهُ ؛ فلو سألتَ أحفَى مسألة [1] واستعنتَ بالفنون والأدوات جميعاً لتعرف ما هو ذلك الموضع المعيَّن الذي يصل بين منبعه ومَصَبّه لكان الجهل والعلم في ذلك سواءً ؛ إذ الموضع في النهر هو كل موضع فيه على طول ما يجرى ويمتد

كذلك حَيْرةُ الحياة والحب يُجاب عنهما بجواب واحد هو نفسه حَيْرة اخرى ؛ ولكني اكتب الآن وقد تركتُ الحب وتركني . خرجت من المعركة فَنَشِبَتْ نفسي في معركة اخرى لا أدرى أهي قائمة بين الحب والبُغض أم بين الحب والحب ؟

أرأيتَ قَطُّ ذئباً قد افترس شاةً وجعل يُفَرْفِرُها [2] بأظافره وأنيابه وهي تنتفض يائسةً هالكة ؟ إن تكن رأيته فذلك ذئب رحيم لو أنت كنتَ عاشقاً فرجعت لك من

---

(١) بغاية التدقيق (٢) يمزقها وينفضها

تهواها مما تحب الى ما تكره فرأيتَ البغض وما يصنع بقلبك . انما الذئب ُناب ٌوظفر ٌوسَورَة ُوَحْش[1] يَعْتَرِى أكيلتَه فيسطو بها فيُذهلها عن نفسها ثم لا يزيد بعد ذلك على طبيب جاهل في « عملية جراحية » . . . . أما البغض فذئب ُالدم ؛ يُساوِرُكَ سَورَةَ الحُمَّى فاذا هو شُعْلة ٌطائرة في عروقك لا تدع منك موضعاً الا مسَّته ولا تمس منك موضعاً الا نَقَعَتْ فيه[2] مثلَ ناب الأفعى من وَهَج الحب وسم ٍّوغيظه وألمه فما تدري في أي ناحية عذابك من هذا البغض ولا من أيّ الآلام هو ؟

ولن تظهر قدرة الجمال وما فيه من القوة الأزلية الا اذا حملك على بغضه بعد ان حملك على حبه فيقتلك مرتين كلَّ مرة بسلاحٍ وكل مرة على أسلوب وكل مرة بنوع من الالم . وذلك ضَرْب ٌمن العذاب لا تملكه قوة في الارض لا في الملوك ولا في الجبابرة ولكن تملكه بعض النساء الضعيفات ويُعذِّبْنَ به حتى الملوك والجبابرة

(١) السورة الحدة والبطش (٢) غرزت

مهما يبلغ الالم في عذاب انسان فلن يُجاوز حالة معيَّنة ثم يُغْمَى على المتألم ويستريح ولو دُقَّت في عظامه المسامير ؛ كالماء مهما تُوقدْ عليه فلن يَعْدُوَ درجة معروفة في غليانه ثم يثبت عندها ولو أضرمتَ عليه من النار التي وَقُودُها الناس والحجارة . غير أن ألم الحب الشديد حين يُكرهك على بغضه نوع منفرد في كل آلام بني آدم كانفراد « ذئب الدم » في جميع ما خلق الله من المعاني الوحشية

« * »

لم أر وصفاً كهذا أفظعَ ولا أبعثَ على الرُّعب لانه إنما هوموصوفُه .... فسأخفف عليك فيما يلي هذه الرسالة ولا اذكر لك ثَمَّتَ الا ما يكون كوصف الجنة تَزَخْرَفَت له ما بين خَوَافِقِ السموات والارض[١] ، ولكن دعني اقل لك اني ابغض من أحبها ، على أنك لو رآيتها لرأيت نفسها تَلُوحُ في وجهها ، جميلةً كجماله رقيقة كرقته محبوبةً كحبه ،

---

(١) هـذه الكلمة من حديث في صفة الجنة والمراد ملء السموات والارض

ولكني مع ذلك أبغضها والله بغض المَحْرور لما يَتَلَذَّع[1] من أشعة الشمس ، وبغض العين الرَّمداء لما يتلألأ من إشراق الضُّحَى ؛ فلا يُدَاخِلْكَ في ذلك ريب ولا شك. وسيبقى سبب هذا البغض من سر الحب الذي لا يُعرف. ان بعض الاسرار فيه ضَربةُ العُنُق[2] فلا يباح به وبعضها يكون فيه ألم النفس الكبيرة فلا يباح به كذلك : ولكن اعلم انها هي هي وأنه انا هو. هي الكبرياء كلها لا تَسْتَعْذِرُها من شيء فَتَعْذِر ولا تسمح بشيء الا التَوَتْ به[3] وأنا كبرياء الكبرياء ما خلقتُ الا مُحْكَمَ المَعَاقِد لا أتثلَّم ولا أتحطم، وتقلِّبني في يدك ما تقلِّب عَضَلَةَ الحديد فلا تراها من كل جهة الا حديداً . هي يَمِينٌ حلف الدهر بها لَيكذبَنَّ كذبة بيضاء مُغَشَّاةً يغُرُّ بريقُها ويلتمع ماؤها لمَع السَّراب فتُبصر فيها الروح معنى الرِّي لتاتهب منها بالظمأ القاتل

---

(١) المحرور الحران ويتلذع يتضرم (٢) كالاسرار السياسية مثلا (٣) التوت غدرت ومنعت وأعذرت جعلتني تعذرها

يُفيضها على رمل ذهبي صبغته الشمس . . . وأنا ؟ أنا كلمة قد استوى ظاهرها وباطنها فاما أن تَصدق كلُّها واما أن تكذب كلها . كلمةٌ ليس فيها جزء محبوب وجزء مكروه فلا تحتمل ابداً معنيين . هي كالسيل تنحلُّ به السحُب ؛ وانا قِمَّة من الصخر الصّلد تغسلها السيول ولا تُشَقِّقها

ثم هي من وراء ذلك كله فيها روح بلبل يفرُّ بأغانيه من ظل الى ظل في رياض الجمال ؛ واما انا ففيَّ روحُ نسر يترامى بصفيره من جبل الى جبل في قِفَار الحب . حاول العصفور الصغير الظريف أن يطوي النسر في جناحيه وهو لا يبلغ قصبةً في ريشة في جناح هذا النسر ، ولكنه . . آه ولكنه طواه في غير جناحيه

« * »

أين العقل في الحب والبغض وبخاصَّةٍ اذا أفرطت عليك اسبابهما ؟ أَمَا إن كل طريق يَنْفُذُ فيه الانسان على بصيرة الا هذين فان احدهما اذا احتواك لم يُفْلِتْكَ وأصبحت فيه كالذي يُطاف به الدنيا ويداه في قيد ، فهما

سوغ [١] من الحركة والاضطراب وهما انفسحت له الآفاق فان قدر ذراع من وثاق حريته الذي يشدّ يديه هو قياسُ دنياه في طولها وعرضها ما بلغتْ . فأنا على ما كنت أشعر من أن لي عقلين كنت أراني في ذلك الحب كأني بلا عقل ، بل كأني مجنون من ناحيتين .... ويُشرِف عليَّ بغضها أحياناً فأتلهّبُ عليها في زفرات كمعمعة الحريق [٢] حين ينطبق مثلُ الفكّ من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغَ الخبز اليابس . ثم يشرف عليَّ حبها أحياناً فينحطُّ قلبي في مثل غمَرات الموت وسكَراته يتطوّحُ من غَمرة الى غمرة . فأنا بين نقيضين تفجأ وبين عافية تتحول وكأنه لا عمل لي الا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... أما ماذا يردّ عليَّ الصعودُ والنزول فسل تصَبّة الزّئبق [٣] ولا تسالني . انه سيّال يترجرج في القلب بين شيء مني وشيء منها ؛ وكانت عروقي كأنما ينصبُّ فيها أحياناً دمُ قتيل فيهجم بالموت (الاحمر) على حياتي يريد أن يغْوُلَها

---

(١) سوغ أبيح له (٢) صوت الحريق (٣) الترمومتر

ان تلك الفتاة لتُغضب الملائكة الذين لا يغضبون ؛ وقد خُلق النساء لامتحان جنون الرجال وخلق الرجال لامتحان عقول النساء ؛ وخلقت هي وحدها لجلب الجنون لا لامتحانه ....

« * »

أراني سأبتدئ أيامي من آخرها فاني لا أقصها عليك وهي تولد بل وهي تموت بعد أن تركتني كالقنبلة فرغ الحب من حشوها وتريد أن تنفجر . لم أكتب لك اذ كان هواها ناشئاً يَرْتَعُ ويلعب ، واذ كان ينكسر انكسار فرخ الطائر حين يَهْدِلُ جناحيه (١) لتمسحه أمه بجناحيها ولا كتبتُ اذ كان هواها الجِدَّ أشدَّ الجِد واذ كان كالريح المُرْسَلة لا تقف ولا تنكسر الا اذا تدلّى من السماء جدار يبلغ الارض أو رُفع من الارض حائط يبلغ السماء . ولا حين كان الهوى يركض بي ركض المجنون الذي يجري وكأنه يجري وراء عقله الذاهب على غير طريق ولا جادّة ولا

(١) يرخي جناحيه عند لقاء أمه

لم[1] فلا عقلهُ يقف له ولا هو يدرك عقله . ولكني
أكتب وقد ركد الهوى ؛ وقد ماسَحْتُ قلبي حتى
ن من غضبه ؛ وقد اجتمع اليَّ رأيي الذاهب . ولا تحسبن
ني سأخطُّ لك قصة فيها اليوم والشهر والسنة وفيها
لزمان والمكان وذلك السُّخف الذي يطوِّلون ويعرِّضون به
ذ يستنهجون سبيلَ الحادثة من حيث تبتدئ الى حيث
نحدر ، فان هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج أما
نا فسأقدم اليك تاريخ لؤلؤة فريدة . هم يعطُّونك بقُبة الليل
لمع في بعض جوانبها نور كوكب يظهر ويغيب . أما أنا
أضعك في ساعة من السَّحَر بين نسيمها وجمالها ورقتها
ذبول الليل فيها ثم ينشقُّ لك الابيضُ ذو الحواشي[2]

« ＊ »

ودعني أذكر البغض مرة أخرى قبل أن أنساه

(١) الجادة الطريق المستوية والمراد الجري اعتسافاً
(٢) الصبح من قول القائل
فلما شق ابيض ذو حواش   له حال وللظلماء حال

إن اللين في القوة الرائعة أقوى من القوة نفسها لانه يُظهِر لك موضع الرحمة فيها ، والتواضع في الجمال أحسن من الجمال لانه ينفي الغرور عنه ؛ وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك

اجمع يا عزيزي إن استطعتَ سِرْباً من الوحوش الضارية وَصَفِّفْها لوناً الى لون وصَنِّفْها شيئاً الى شيء فانك سترى في « جلودها » مكتبةً ضخمة من هذه القوانين ....
والوباء الذي يحلق الناس حَلْقَ الشعر فيتساقطون أُلوفاً ألوفاً بِجَرَّة من يد الموت . والزلزال الذي يرجهم في غربال الارض رجَّ الحصى يَنْفيه من هُنا وهنا . والمصائب التي تبسط العُقوبةَ على النعم في سطوة كتهدير الموجة العاتية حين تصارع العاصفة . والجبلة المغرورة التي تراها في أخلاقها من طراز كدماغ السكِّير الفارغ مزيناً بخيالات الخمر وسَوْرتها . كل تلك من « قوانين العقوبات » في العالم الذي خلق مُتَّهمين وقُضاةً ولا من يُحامي ...

وهذه التي سأقص عليك منها فلسفة الجمال والحب ، قوة من القوى لم يجمل الله القسوة فيها الا لعلمه بها ؛ وما ابتساماتها الفاتنة الا كسجن من البلور الصافي يختنق من يُحبس فيه وهو يتلألأ .... وكنت أراها أحياناً في جمالها وتأثير جمالها كأنها طاووس من طواويس الجنة على كل ريشة فيه لون من ألوان النار

نصيحتي لكل من أبغض مِن حُب أن لا يحتفل بأن صاحبته غاظته وأن يُكبِر نفسه عن أن يغيظ امرأة ؛ انه متى أرخى هذين الطَّرَفين سقطت هي بعيداً عن قلبه فانها معلّقة الى قلبه في هذين الخيطين من نفسه

ما من قَفل بلا مِفْتاح والا فما هو بقفل ؛ والاِهمالُ والازدراء وسموّ النفس ثلاثة مفاتيح لقفل واحد هو قفل الغيظ

*

الرسالة الثانية

لقد هوَّلْتَ عليَّ في كتابك حتى أخرجتني عن غيظي الى غيظ آخر . تقول : « وَيحَكَ أراك أخرجتَ القمر من دارَته وجئتَ به على أعين الناس ؛ والا فمن تلك التي لمستَ الفلكَ الأعلى حين لمست قلبها فكأنما اجترأتَ على القَدَر فيها حلَفَ ليُتيحنَّكَ فِتْنةً [١] تدعك وما يَلوي منك شيء على شيء . ومن عساها تكون هذه التي لبس فيها الا ما في الطاووس الميت من ريشه الجميل وهي مع ذلك رضاك [٢] في الحب وفي البغض سواء » . ثم تقول : « ولعلها رفعتك الى الشمس والقمر والنجوم لأنهم عشيرتها وأهلُها . . . . فانت تخاطبني في رسالتك الاولى وكأنك مُرْتَفِقٌ [٣] تحت جَناح جبريل او متكئ على بساط الريح فتصف ما لا عهد لنا به من كلام مُفَوَّف كأنه غُرَف الجنة تفويفُها لَبِنَةٌ من ذهب وأخرى من فضة وتفويف كلامك

(١) ليقدرن لك فتنة (٢) اي كافيتك (٣) مستند الى مرفقة

جملةٌ من الحب وجملةٌ من البغض . وتنعَتُ غراماً كأنما فُصِّل لك ثوبه من سحابة يمرُّ فيها مِقراض البرق ففي كل ناحية منه فتقٌ من النار » . وتسألني : كيف أجعل نفسي كالميت فلا اكتب اليك الا يوم تحينُ الوصية . . . . ولا أخبرك الا وقد حُلَّت عقدة القلبين وانفسخت أُلفةُ ما بينهما ؟

« * »

فيا ويحك ألا تعلم أن مِرْجَل الباخرة حين ينقلب ماؤه لهباً أبيض فوق اللهب الأحمر ؛ ينفِثُ نَفثَةَ المارد الممدود بسلاسله في قاع الجحيم ، فيرمي بسهام من الذَّرِّ المحرِق لو كان في جهنم رَهَجٌ يثور لما كان الا دُقاقَ ترابها (١) . أم تُراك لم تدرك من رسالتي أني أسع من بغض من أحببت فوق ما يملأني وان هذا البغض وجه آخر من الحب كالجرح ظاهره له ألم وباطنه له ألم ، وما يمسه من ظاهره غير ما ينكُتُ فيه من باطنه . ام حسبت

(١) الغبار الدقيق والرهج والغبار واحد

أني أزيّن لك صور الكلام وأزخرفها بألوان لا تُلْتَمَسُ الا لرونقها وانسجامها وحسن تآلُفِها فمنها الأسود لانه اسود ومنها الاحمر لانه أحمر ومنها لون قلبها لانه لون قلبها . . . . ؟ كلاّ ثم كلا فلا تَتَهَدَّمْ عليَّ [١] بمثل ما كتبت واعلم انه هو ما وصفتُ لك وان السحابة التي تراها تدمع حيناً لا يبعد أن تراها قد تَلَفَّتَتْ على صاعقتها ثم اجتمعت أرجاؤها وبَوَاسِقُها [٢] ثم ارتجّتْ ثم . . تنفجر

ولم اكتب اليك من قبل لأني أحب بلا غاية أباهيك بها ولا غرض أستعينك عليه ولا سر أستودعك اياه وهل رأيت الحب ينكشف الا في واحدة من هذه الثلاث ، وهل انكشف قط الا تتابعت عليه أمور وأمور وامتلأت منه الأنفس بالظنون والغَفَلات ؟

لقد أحببت فتاة كأنها قصيدة غزلية في ديوان شعر لا خطبة سياسية في حفلة . . . . فما ثَمّ الا معنى دقيق

---

(١) تهجم (٢) أعاليها وأسافلها

لطيف خَلاّب ساحر ؛ كل قولي له : أريد ان افهمك وكل قوله لي تأمَّلْ تفهم

إن ألذّ المعاني في هـذا الجمال ما جعل يَنْبُو في يديك كلما أَلقيتَهما عليه كيلا تستمكن منه ؛ ففي كل نَبْوَة يظهر لك منه جانب وأنت معه في ارتفاع وانخفاض أبداً ولا تزال تجري ويجري ، أما أنت فتشتدُّ جهداً في سبيله ، واما هو ففي سبيل منْبَعِهِ من الجمال الأعلى الذي أفاضه موجةً منه فكأنك ذاهب الى الجنة حياً ، لا يمرُّ بك الا في رَوْح وريحان على طريق من لذة النفس لا تنتهي اذ هي من حيث لا نعرف الى حيث لا نعرف ، وتغدو كأنك في تلك اللذات الروحية طفل لا يَكْبَرُ ما دام في عمر الحب.
والحب الروحيّ الصحيح انما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى الا شبيهاً بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وتأنيث بل حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء الحسُّ فيها الا من جهـة القلب . وما أرى الشجرة حين تخضرُّ الا قد نبتت فيها كلمة من قدرة الله ذاتُ حروف

كثيرة ؛ ولا الزهرةَ حين تتعطَّر الا قد لاح في جمالها معنى بديع من حكمة الكلمة الالهية ، ولا الانسان حين يعشق عشقاً صحيحاً كما تُرَوِّحُ الشجرة وتنفطر[1] الا قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النقية الجميلة المعطرة

كذلك يكون هذا الحب عند الذين خُلقوا للشعر والحكمة اذا هم اتصلوا به فانه لا يهبط اليهم من السماء الا ليملأَ أوعيتَهم ؛ وفي هؤلاء خاصة يكون الحب الانساني هو السَّرَب[2] الذي يتخذونه سبيلَهم الى غَوْرٍ ما[3] في الأمواج الالهية العظمى التي لا تنتهي أعماقها فيغوصون ويخرجون وفي أيديهم أفلاذُ الحكمة ولآلئها ؛ ومن شفتَيِ المرأة الجميلتين يخرجون للناس كلامَ السموات

أما الآخرون .... فتلك عقول كَدَّها بارئُها[4]

(١) أي على هذا الاسلوب الطبيعي الذي لا صنعة فيه حين ينفطر الشجر ويخرج اوراقه (٢) الطريق تحت الماء
(٣) الغور العمق (٤) ارادها بسوء

عقولُ الناموس الاصغر العامل في حَرْث الارض . . . .[1]
يضم احدهم يديه على الجمال فيتَلقفهُ فيجعل أصابعه أعواد
القفَص لهــذا الطائر ويقول له لَطالَما التمستُك في جو
السموات وطالما كنتَ وكنتَ فههنا فاستَقِرّ . ولا يراه
بعد قليل الا كما اغْتَرَفَ غَرْفَةً من الموجة ؛ كانت حركة
تفُور فأصبحت سكوناً هامداً ، وكانت ملءَ البحر فصارت
ملءَ الكف ، وكانت مَوْجَة فصارت .. آه فصارت
بصْقة . . . .

« * »

أقول لك أحببتُها لا كهذا الحب الذي تراه وتسمع
به في رواية تبتدئ وتنتهي في جزءين من رجل وامرأة ؛
ولا كالحب الذي يؤلفه الكتّابُ والشعراء حين يجمعون
عشرين معنى في كلمة او يُرسلون عشرين كلمة لمعنى . . . .
ولا كالحب الذي يباع ويُشْرى فتأخذ منه بالدينار اكثر

(١) في القرآن الكريم « نساؤكم حرث لكم » وهو مجاز
على التشبيه لا نظير لبلاغته يفهم معاني كثيرة فافهم . . . .

مما تأخذ بالدّرهَم .... ولا كالذي تجيئه وانت من الإشراق والنور بريشة الخمر فيعيدك وانت من الظُّلمة والسواد كزجاجة الحبر .... أحببتها ولا كالحب نفسه منذا الذي قال : « من يُهلِكْ نفسه من أجلي يجدْها » ؟ أظنه المسيح وقد كانت هي تتمثّل بها كثيراً [(١)] ؛ ولكن هذه الكلمة بعدُ كلمةُ الحياة الأزلية التي تقول للناس حين يشكُون فيها : موتوا لتعرفوا . كلمةُ الجمال الاعلى الذي يقول للشمس حين تصفرُّ : أغرُبي لتصبحي بيضاء حيةً في النهار. كلمة الحب الصحيح الذي يقول المبتلى به : تعذبْ لتعرف كيف تتخيلَ السعادة وتتمناها . كذلك تراني لا أحب الا لثلاث : لأعرف وأحس وأتخيل ؛ ولا أهلك بالحب الا لثلاث : لأوجدَ في نفسي وأبقى في نفسي وأضمَّ نفساً الى نفسي

« ✿ »

(١) فتاة هذه الرسائل سورية مسيحية تعرّف اليها الصديق في لبنان ثم قدمت الى مصر اشهراً فاتصل بها ثم ضرب الدهر بينهما وسافرت الى حيث لا يدري بعد ان سافرت من قلبه

أفهمت ايها الصديق أم أزيدك ؟ هأنا أهبط عليك من الفلك الذي تقول اني لمسته حين لمست قلبها . فاعلم أني لا أحب فيها شيئاً معيناً أستطيع أن أشير اليه بهذا او هذه أو ذلك أو تلك ؛ حتى ولا « بهؤلاء » كلها . . . . انما أحبها لانها هي هي كما هي هي ، فان في كل عاشق معنى مجهولاً لا يحده علم ولا تصفه معرفة وهو كالمصباح المنطفئ ينتظر من يضيئه ليضيء فلا ينقصه الا من فيه قدحة النور [1] أو شرارة النار ، وفي كل امرأة جميلة واحدة من هذين ومكان الشأن في تحرك القلب حتى يدني مصباحه لتعلق بالشعلة المقدرة له وما يحركه لذلك الا القدر . وما أحكم الناس الذين يقولون في بعض حوادث الحريق انها « وقعت قضاء وقدراً » ، فكل حريق القلوب لا يقع الا هكذا...

ومتى نزلت المرأة الجميلة على قلب رجل أضاءته فيغشيها نوره بألوان من الحسن لا يراها ولا يدركها ولا يصدق بها الا صاحب هذا القلب . فلو ان الشمس ذاتها تصب

(١) الشعلة من النور

أشعتها على طلعة هذه المرأة ألف سنة تحياها جميلة شابةً لا تضعف ولا ترِقّ سِنُّها [1] لما كشفت لأعين الناس شيئاً من تلك المعاني الـسـرية التي يكشفها ضوء قلب عاشقها لعينيه ؛ وما ضوء قلبه الا منها فلن تكون فيه الا ما أحبت ان تكون فيه

بَيْدَ أن مصائب المحبين انما تأتي من انقلاب المصباح فيستطير حريقاً لا ضوءا وترى النار تعتلج في القلب وذؤابتها تتلوّى في الرأس ويُصْبِح العاشق مُرَنَّحاً [2] بما اعتراه من الوَهَن والضعف كأنه في جملته وفيما لبسه من الهمّ والسواد ما تراه من بقية بيت محروق

« * »

رأيتها مرة في مرآتها وكانت قد وقفت اليها تسوّي خُصلَةً من شعرها الاسود الفاحم المتدلى عناقيدَ عناقيدَ ولم يكن بها ذلك كما علمت بعدُ ؛ وانما ارادت ان تطيل نظرها فيَّ من حيث لا استطيع ان اقول انها هي التي تنظر

---

(١) كناية عن الهرم (٢) متساقطاً من الضعف

فان ذلك الذي ينظر كان خيالها . . . . فلما انتصبت الى المرآة خُيّلَ اليّ أني أرى ملكاً من الملائكة قد تمثَّل في هيئتها وأقبل يمشي في سحابة قائمة من الضوء ؛ أو أن يد الله في لَمْح النظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصحيفة يتموّج في ألوانه الزاهية ؛ او هي قد ارادت ان تبعث اليَّ بكتاب يحتويها كلها ولا يكون في يدي منه شيء فأرتني مرآتها

ألاَ فاعلم أن هذه التي في المرآة وهذه التي امام المرآة وهذه التي هي في قلبي ؛ ثلاثة في واحدة . لو هممتُ ان أضع يدي عليها فرت من يدي لتختبيء في مرآتها وتفرّ من المرآة لتختبيء في قلبي . فكأنما كنت أعشق مخلوقة من مخلوقات الأحلام لا تُدرك بجميع أجزائها واذا أُدركت بقيت وهماً لا تناله يد . وهي كالملائكة قادرة على التّشكّل إلا أنها تتشكل في الذهن فبينا تراها شخصاً جميلا اذا هي فكرة جميلة تتعطف عليها حواشي النفس ، وبذلك تستطيع أن تشعِرني انها فيّ وان كان بيننا من الهجر بُعْدُ

المشرقين ؛ وأن تنزل بالسلام على قلبي وان كانت هي نفسها الحرب؛ وأن تجعلني أحبها وان كان بغضها يأكل من جوانحي

تراها مع أيّ أحوالها كالسعادة تَخَيَّلُها هو هي

ولولا ذلك ما احتملتُ غضبها وإن لها لَغَضَباً تجمحُ فيه فتملأُ جوَّ النفس بمثال الغُبار الذي يُثيرهُ الجَواد الكريم اذا انجَرَدَ للسّبْق وتركَ أعناق الخيل تتقطّع عليه ولا تلحقه فتراه يغضب ويتميَّز ويحاول ان يسبق جلده وأن يخطف أرض الله كلّها في حوافره. تغضب على أسلوب من هذا الطراز او من طراز البحر الزاخر حين يَتَقلّع في أيدي الأعاصير او من طراز الارض حين تَتَخَبّط في أيدي الزلازل. وأحياناً من الطراز الرقيق حين تتجاهل في غضبها حباً في بعض تاريخه فتدعه يشعر أن فيه مكاناً مجهولا وأن من قلبه قطعةً منزوعة. و تارة من الطراز العسير حين تلوي وتتَعَقّد حتى تتركني وأنا ما اجد في الدنيا مكاناً ليست فيه ولا مكاناً هي فيه :

وكل هـذه الاساليب شروحٌ وتفاسير ؛ أما المعنى
الذي تدور عليه فهو هذا : داء الحب نقـداً والدواء عند
الـسين وسوف .... عند هـذه الجميلة التي هي أكذبُ
ما في الصدق عند محبها وأصدقُ ما في الكذِب على محبها

الرسالة الثالثة

« حيلة مرآتها »

حسناء ، خالقُها أتمَّ جمالها

سألتْه معجزةَ الهوى فزانها

لمــا حبَاها اللهُ جلَّ جلالُه

بالحسن منفرداً أجلَّ جلالها

تُضْني المحبَّ كأنما أجفانُها

ألقت عليــه فتورَها وملالَها

هيفاء قد حسب النسيمُ قوامها

غصناً فأن خطر النسيمُ أمالها

ســيَّالةُ الأعطاف أين ترنحتْ

تتألقْ لكهْربة الهوى حيالها

طلبوا لها شبهاً يضيء ضياءها

أيرى النواظر او يدلّ دلالها

أَما السما فَجلَتْ عليهم بدرَها

والأرضُ قد عرضت لذاك غزالَها ...

لكنها نظرت فأَخجلت الظِّبَا

وتلفتتْ البدر فاستَحيى لها

هم يطلبون مثالُها فليرقبُوا

مرآتَها يجدوا هناك مثالَها

« ✡ »

مرآةٌ فاتنة النفوس وصفحةٌ

تتلو بها أرواحنا آمالها

إنا عجزنا أن نفصّلَ وصفَها

جمعتْ لنا مرآتُها إجمالَها

واهاً لمرآة الحسناء [illegible] رثتْ

[illegible] عدتْ في الجفاء خيالَها

تتلألأُ [illegible] في جبهتها

تخذل ضوء الشمس هز صقالَها[1]

(١) صقال المرآة ماؤها ورونقها

من ثغرها؟ من منبع النور الذي
نبعتْ به ضَحِكَاتُها فأسالَها

تتنقَّلُ اللَّحَظَاتُ في أنحائها
قتّالُها مُسْتَتْبِعٌ قتّالَها

جرحتْ بها ونُهْدِبها وكذا الهوى
أَبدًا يعدُّ من السيوف ظِلالَها

حورية شهدت لها جنّتها
وجمالُ عينيها شهادتها لها

وكأنما المرآة من أفق السما
وكأنها ملاك يلوح خلالَها

« ✡ »

وقفت لها يوما فألقت نظرةً
حيرى تُشابه وعدها ومطالها

نظرت بلحظ نافذ لو أنهُ
لقي الارادة نفسَها لاغتالَها

نظَراتِ حواءَ التي أَوهتْ بها
عزَماتِ آدمَ يومَ ضلَّ ضلالها
فرأت عَلى المرآة وجهاً ظنَّهُ
ملَكَ الجمال يحاولُ استقبالَها
راع المليحه منه فرطْ جماله
أم راعها أَن لا يكون جمالها ؟
فرَنت بنظرتها اليه تُطيلها
ورنا بنظرته لها فأَطالها ....
لحظان لو رَجفَا عليك تراجفَتْ
كُرَةُ الفؤاد فزلْزلَتْ زِلزالها

« ✿ »

نظرت لها حسنا اذا ما احتلَّ في
دُول النُّهى سلب النهى استقلالَها
ورأَت لسحر جفونها ما راعها
ورأَت لفتك لحاظها ما هالها

فتذكرت شمسُ الجمال متيماً

تركته من فرط النحول « هلالها »

ما زال يشكو « الصدّ » حتى بغّضت

في نفسه « صاد » الحروف « ودالها »

ورأت صفا المرآة يشبه قلبه

مهما تحمّله يكن حمّالها

فتنهدت أسفاً عليه وأنشأت

عبرات رحمتها تجول مجالها

جزعت له يغني المنية كلَّها

وتريه كلّ ثوابه إهمالها

حالان خيرهما وشرّهما سوى

ومن انتفع ما يجرّ وبالها

جهدُ المقامر أن يحاول حيلةً

ولكم أضرّت حيلةٌ محتالها

والعمر آمالٌ وما جَلَبَ الشقا

الا ابتغاءُ الطامعينَ مُحالَها

ان الذي أعطى النفوسَ عقولَها

جعل القناعةَ للنفوس عِقالَها

« * »

جرت الخواطر بالمليحة لحظةً

شغلت بأحزان المتيَّم بالَها

فبدا عليها بعضُ ما قد ناله

وبدا عَلَى المرآة ما قد نالَها

ورأت لها وجهًا تغشّاه الأسى

والحسنُ قد منع الأسى أمثالَها

كادت تقول « رضيتُ عنه » فأمسكت

ومضت عَلَى عجل لتُخفيَ حالها

أوّاه لو مرآتها نجحت .... ولو

فَمُها تبسّم عنـــد ذاك « وقالَها »

الرسالة الرابعة

ما أحلاه كلاماً وأنداه على كبدي هـذا الذي تقوله في كتابك : « لو كانت تلك الفتاة الساحرة شجرة يابسة قد تحاتّت[1] وكان النساء كلهن شجراً أخضر لأورقت عليك وأثمرت ، فان فيك وفيها القوةَ والسبب ، ومن مثل هذه القوة وهذا السبب تخرج معجزاتُ الحب » . آه لو صح ذلك . ان بعض الرجال يكون في صفاته كذباً على الرجال فهـذه والله كذبٌ على النساء ولو جاز لقلتُ إنها وُلدت خطأ في هذا الجلد ؛ بل ما وضعها الله فيه الا لعلمه بها وليجعل منها علماً لمن شاء أن يَدْرُس بروح الرجل المحب أو المبغض جمالاً شاذًّا في روح امرأة تحتمل الحب والبغض معاً . لم يكن فيَّ وفيها القوةُ والسبب بل القوةُ والقوة ، وما كنا الا كدولتين متحالفتين تمنع قوتهما أن تعتديَ واحدة على واحدة ، ويَشُقُّ ذلك عليهما فتعبّر ان

(١) تساقطت اوراقها من اليبس أو عارض ما

عن لفظ القوة بلفظ أرقّ وأجمل وهو المحالفة ؛ ثم يرقّ هذا اللفظ فتخرج منه الصداقة ، ثم ترقّ هذه فيجيء منها الحب . ولا حبَّ هناك ولا صداقةَ ولا محالفةَ بل هي أساليب سياسية في لغة القوة حين تخشى وحين تطمع

لقد أذكرتني بالشجرة اليابسة يوماً جميلا وكلاماً أجمل منه فانا باعث به اليك وان كان قد بَعُدَ به العهد اذ وقع اول معرفتي بها في قرية . . . بلبنان . هناك زهر أصفر يلوح للعين كوجوه الدنانير يسمونه « الوزّال » وهو طيّب الرائحة ولكنه خبيث النّبْتَةِ لا يكون الا في مثل الرماح من الشوك . وكان لها ولعٌ شديد بهذا الزهر اِطَّبَع من أشواكها واشواكه فقد نلتُ من كليهما .... وسنحَتْ لها على زهرة منه فَرَاشة زاهية مصبوغة فوثبت اليها واشتدت وراءها وكانت الفراشة تفوتها وتَسْتَطْرِدُ لها وتعبث بها عبثًا بين أن تلوح وتختبيء . ثم رجعت « الفراشة الكبيرة » بعد ما انقطعت وقد تزاحمت الأنفاسُ على صدرها وجعل قلبها يغيظني بدقّاته غيظًا شديداً إذ كان يخفُق من البُهر

والاعياء لا من شيء آخر . . . . وتساقطتْ تحت شجرة من التين فلما أَرَاحتْ وثابتْ اليها نفسُها قالت : فراشةٌ لا تبلغ عقدة إصبع من ثوبي وتُعنِّيني هـذا العناء كله ثمَّ أرتدُّ عنها خائبة ؟ قلت بل خائبة خيبةَ المفلس يعدو يومه وراء « الدينار الطائر » فلا يدركه . فاجتذبتها اليَّ كلمـة « الدينار الطائر » ومن خصائصها أنهـا لا تُعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري وسأستوفي لك هذا في رسالة أُخرى . انها تريد أن تجمع الى صفاء وجهها واشراق خدَّيها وخلابتها وسحرها ؛ صفاء اللفظ واشراقَ المعنى وحسنَ المَعرِض ، وجمال العبارة وهذا هو الحب عندها ؛ تحبك كما تحب كلمةً تكتبها او معنى تتخيَّله فاذا سئِمتك لم تكن عندها الا الثانية . . الا صحيفةً تمزّقها . . . .

« * »

ورفعتْ رأسها الى الخيمة الخضراء ثم قالت : هـذه شجرة تين . قلتُ وماذا في أنها شجرة تين ؟ قالت ألا تعرف تينة الانجيل ؟ قلت وان في الانجيل لتينةً ليست

كغيرها ؟ قالت كان من خَبَرِها [١] أن المسيح مرَّ في جماعته وهو جائع فرآها من بعيد فَيْنانةً خضراء تهتزّ كأنها تدعوه ولم يكن إبّانَ هذه الفاكهة ؛ فَعَدَل اليها لعله يجد فيها شيئاً يَطْعَمُهُ فلم يجد غير ورقها الذي لا يُؤكل فقال لها : خَسِئْتِ لا يأكلنَّ منك أحدٌ ثمراً بعد اليوم . وانحدروا الى أورشليم ؛ ولما أصبحوا انقلبوا فمرّوا بشجرة التين فاذا هي خاويةٌ قد نزعت ثوبَ نَضْرتها والتفّتْ في كَفَن من اليُبْس وماتت واقفة . فرماها بطرس بعينيه وقال انظر يا سيد ان هذه التينة التي مَرَدْتَ عليك فلعنتَها قد ماتت وثراها حيٌّ بعدُ

قلت هذه لَعَمْري هي المعجزة ، تموت الشجرة وثراها حيٌّ وتجري اللعنة في أعوادها فتتشرّب ماءها وتتركها يَبَساً لا تصلح الا للحريق ، وتنقلب الشجرة الخضراء في ليلة من خشب الله الى خشب الناس . ولكن ما ذنبُ

(١) هـذه القطعة من انجيل مرقس وقد ترجمناها من عربيتهم . . . . الى عربيتنا

الشجرة المسكينة اذا لم يكن موعدَ فاكهتها ويريدها المسيح على غير طبيعتها ؟ قالت فان الذنب في اخضرارها كأنها ذاتُ ثمر . قلت اوليس للثمر وقتٌ قد مضى وهل الشجرة الا شجرة ؛ أم تحسبينها تُدير الشمس وتقلب الفصول لتعقِدَ الماءَ ثمراً حلواً ؟ ألا إن الشمس تدور ثم يحين الفصل ثم ينعقد الماء ثم يحلو التين فينضج فيؤكل .
قالت إنك لتجيء بالدواهي فماذا تقول انت ؟

أقول اعلمي أن فيلسوفاً يونانياً كان قبل المسيح (١) وكان يرى ان تلك الشجرة ومثلها مما سفَلَ وعلا من قدَم الكون الى ذؤابته انما هي الارادة البشرية بعينها الا أنها لم تكتمل لعلة ما ، فكأن العالم عند هذا الفيلسوف إنسانٌ غيرُ سَويٍّ ذهب طوله في عرضه فلم يُعرف شيءٌ من شيء ، وكأن الانسان هو العالم الذي نما وتم . فالشجرة ان لم تكن من الارادة كما يقول هذا الفيلسوف فهي من الحياة وقد التقى منها ومن المسيح انسانٌ حي وشيء حي ؛

(١) هو سيدوكليس كان قبل المسيح باربعة قرون

والتقيا على خِلاف انقلبت فيه الى حياة ذات إرادة، وارادة ذات كبرياء ، وكبرياء في رُعونة يختال بها جِذْعٌ خشبي غائر في الارض على جذع روحاني باسق في السماء ؛ وتتيه عُشْبَةُ الطين على زهرة الفَلَك الأَعلى. والكبرياء كانت من شرها اولَ ما تمرَّد به الشيطانُ على الله [1] واولَ ما لعن الله به الشيطان وحَسْبُها من الشر أنها ذهبت بجميع حَسَنات شيخ الملائكة (كان [2] . . . .) فهوى بعدها من لعنة الله في اعماق لا تنتهي ولا يزال فيها طائرًا الى أسفل . . . . وما برحت هذه الكبرياء ثقيلةً على الارواح الصافية الكريمة ولو كانت ممن تحق له ، ولو كانت من شجرة تحييها الشمس ويقوم على حفظها ناموس الكون . والمسيحُ لم يفرَّ الى ظلها من حر بل الى ثمرها من جوع ؛ فلما أتاها بجوعه تلقته بزَهْوها. قال لها بلسان قلبه العظيم هأناذا ، فقالت له وهأناذه أخرى غير التي تريد . ظل جائعًا وظلت خضراء تتَمَوَّجُ لعينيه شبعًا وريًا ما تستحي ولا تتواضع بجفاف ورقة منها

(١) حين تكبر فلى السجود لآدم (٢) أي سابقاً

تسقط عُذْراً عند قدميه . كانت في غير حالته القائمة بروحه وكان في غير حالتها القائمة برُوحها ؛ فكل ذنبها في روحه هو وفي حالته هو وفي حسه هو ؛ فاشمأزّ منها فيبست ولعنها فماتت ورآها ظلاماً فأطفأ سُنّتَها الى الأبد . هكذا يفعل الروح الأقوى بالروح الاضعف حين يختلفان والمتكبر دائماً هو الأضعف وان ظهر انه الأقوى ؛ فلو صدمتْه روحٌ عاتية بما فيها من بغضه وازدرائه لوقعت منه موقع أظلافِ الفيل من النملة الضعيفة ؛ فان فوق كبرياء المخلوق ناموساً ثابتاً من كبرياء الخالق ما لجأ اليه مكسورُ القلب بكاسر قلبه الا وضعه والله تحتَ موضعَ حبّة القمح تحت حَجَرِ الطاحون الضخم لا يُبقي ولا يذر

« * »

وكنت اتكلم وكأني مُرْتَفِقٌ تحت جناح جبريل كما قلتَ وان الكلام لينفذُ الى دمها مع أنفاسها فما أتيتُ على آخره حتى رأيتُها قد اصفرّت وارتاعت وقالت ويلي منك فهل أنت مسيحٌ جديد ؟ إني لأسمعُ القاظك هذه وكأني اسمعُها

من يوم بعيد لم يأت بعدُ ولكنه آتٍ لانه يتكلم ويقول بكلامه أنا موجود وان كنت بعيداً عنكِ . فأردت أن أخفِّف عنها فرفعتُ طرفي الى خيمتنا وقلت : اسمعي يا شجرة التين . . . . فانفجرت ضاحكة وقالت كم قلت لي أنتِ دُوَيهيَةٌ وزعمتَ ان هذا يسمونه تصغير التعظيم فأنت دُوَيْهيتان . فضحكتُ وقلتُ أواستِ معي . . . .

لقد حلَّ ذلك اليوم الذي سمعتُه يتكلم في الغيب ، وآه من تلك الدويهية ومن كبريائها وفلسفتها . آه من فتاة تقول لك فيما تقول : ان أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني فلا ترْجُ أن تصيب في طباعَ أنثى والا ضلَّ ضلالك ايها الحبيب . . . قلتُ فماذا بقي من معنى ايها الحبيب إذَن ؟

فضحكت من عبوسها — وهي حين تتفلسف تُظلِّلها سُحُبٌ من الفكر فتراها قد غامت فيها ولا يبقى لك أمل الا في وميض من ابتسامها يلمع أحياناً كما تنظر للشمس من فَتْق في السحاب يتمزَّق ثم يُسرع فيلتئم — أتدري ماذا كان جوابها ؟ قالت خُلِقْنا لهذا الحب من قبل يومنا :

وبعد يومنا اذا جاء كان يومَ بغض منك أو مني . قلت
فمعنى « أَيها الحبيب » في فلسفتكِ أيها البغيض . . . ؟
قالت كلا كلا لا أدري ولكني أتكلم بلغة النطق ؛ وفي
ناموس الفهم الانساني لغةٌ غيرها وفي ناموس الأقدار لغةٌ
غير اللغتين . فانك لتراني ولكني أرى فيَّ أخرى والأُخرى
ترى فيها ثالثة . هذا أشعر به ولا أدري كيف أَصِفُه فان
عبَّرتُ عنه بلغة النطق انقلب كلامي عن جهته فصار من
كلام الموَسوسين والمَزْورين والمجانين. أنا أُحسن الكلامَ
مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء ، فحاجتي اليك هي
أن تتكلم في روحي وحاجتك اليَّ هي أن أتكلم في قلبك

أتستطيع أن تلبسني جلدك وتَخيطَه عليَّ و . . فقلت
مهلا مهلا انك أنتِ الآن لا تتكلمين ولا التي فيك بل
تلك الثالثة . . . واذا كان استهلالُ كلامها سلخَ جلدي . . . .
وهنا وضعت يدها على فمها وجعل ينفثُ ضحكها ويتكسَّر
على صلابة قلبها تكسر قِطَع البلور الثمين في غير نظام
ولا مَهَل

ولما سكنتْ مما غَشِيها قالت أنت برهَمي ؟ قلت وهذه شرٌّ من الأولى فهل خطر لكِ أني أعبد بقرة ؟ قالت وهذه شرٌّ من الاثنتين فقد انتقمتَ مني بلطف . . . . ولكن ألا تعرف ان الحب في رأي اكثر الناس كزواج البراهمة ، اذا اقترن الرجلُ منهم بامرأة فقد أعدَّها للحرق إن بقيت بعده وللموت ان بقي بعدها ؟ قلتُ أعرف هذا في عَقْد البراهمة وحَسْبُ فلا تَنْزُ بك الفلسفةُ نَزْوتَها فلسنا في النار ولا في دخانها . قالت وما تقول في نار تَعْرُفها ؟ ولفظتْ هذه العبارة بصوت خرج يرتجف كأنه جاذَبَ قلبها وفرّ اليَّ فِرارًا ؛ وأنزلتْ في مقطعها نَبْرةَ استفهام حلو رقيق يمازجه شيء من التوبيخ في منتهى الظَّرف

فأطرقتُ شيئاً وقلت اسمعي ؛ ما أنتِ محاطةً بست جهات بل بست علامات استفهام ؛ وان فلسفتك هذه جعلتك ما لا أدري أَلُغْزًا في إنسانة أم إنسانةً في لُغز ؛ وعلى أيِّهما فان العمر يذهب في فهمك وأحتاجُ بعد الى عمر جديد في حبك وان تبعثَني فلسفتك من قبري يوماً اذا

سُوِّيت بجسدي الحفرة . لقد وضعك حسنُك في طريقي موضع البدر يُرى ويحَبُّ ولا تنالهُ يد ولا تَعْلَق بنوره ظلْمةُ نفس ، لكن كبرياءك نصبتك نِصبةَ الجبل الشامخ كأنه ما خُلق ذلك الخَلقَ المنتثر الوَعْر الا لتدقَّ به قلوبُ المُصْعِدين فيه وتهتزَّ أجراسها اهتزازاً عنيفاً متصلاً في حبال الانفاس والزفَرات . كوني من شئتِ أو ما شئتِ خَلْقاً مما يَكْبُرُ في صدرك او مما يكبُرُ في صدري . كوني ثلاثاً من النساء كما قلتِ او ثلاثةً من الملائكة ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفحي نَفحَ العِطر الذي يُلمَسْ بالروح واظهري مظهر الضوء الذي يُلمس بالعين ولكن دعيني في جوِّك وفي نورك . إصعدي الى سمائك العالية ولكن ألبسيني قبل ذلك جناحين . كوني ما أرادت نفسُكِ ولكن أشعِري نفسكَ هذه اني إنسان

« * »

أيُّ حبٍّ هذا ؟ لقد امتُحِنْتُ منها بفتاة أبحثُ عنها في النساء فلا أجدها وأبحث عنها في نفسها فلا أجدها ؛

وكل تاريخ هواها كالرِّحلَة في أَغفَال الأرض ومَجاهِلها[١] :
يأخذُ الرحالةُ رجليه بالمشي على قبر في عَرْض الصحراء
ويكونُ له من الحذَر في كل بَادرَةِ عقل ؛ ولا يزال
يَلفِظُهُ مَجْهَلٌ الى مجهل ، ولا يزال يَتَتَابَعُ في تلك الارض
التي تَغُولُ سالكيها[٢] حتى يقطعَ الى معروفها منكراتِها
جميعاً . . . .



(١) الاماكن المجهولة والمغفلة (٢) تهلكهم ببعدها ومصاعبها

الرسالة الخامسة

« أيام لبنان »

فجرُ الهوى من ثغرها البسَّامِ
متطايرُ اللَّمَحَات فوق ظلامي

رفَّتْ عليَّ ظِلالُه وتنفَّست
بندَى الشباب على فؤادي الظامي

ذهبت همومٌ حرْتُ في اسمائها
واتت همومٌ ما لهن أسامي

في حبها والحبُّ في بأسائه
أهنا لأهليه من الإنعام

حسناء صوَّرها الهوى في صورة
كادت تُعيد عبادة الأصنامِ

في منظر الأقمار ألمحُ وجهها
وتُحِسُّ في لمس النسيم غرامي

ولكهرباء الحب من لَحظاتها
سيَّالُها المتدافعُ المترامي
يَنْسَابُ في مجرى دمي متلهّبًا
فكأنه تيارُ بحرٍ ضِرامِ
يا كهرباءَ الحب رفقًا انما
هذي «الأَنابيبُ» الضّعافُ عظامي

« * »

ذهب المنامُ ومن يُذَكّرهُ الهوى
قمرًا فلا يلقى الدُّجى بمنامِ
يا ليلُ أنتَ صحيفةٌ ملء الفضا
ء وما بها سطرٌ من الأحلامِ
في كل نجم من نجومكَ بَسْمَةٌ
وقفت تُشير الى الهوى بسلامِ
وكأن أفقكَ والنجومُ سطورُهُ
تاريخُ ما أسلفتُ من أيامي

مُتألّقُ الجنَبَات مَشْبوبُ الضيا
خَضِلُ الندى صافي الشمائلِ سامي

يا ليلُ أين الفجرُ أين زمامُهُ
ايامَ يُمسكه الهوى بزمام

أيام «لُبْنَان» وكانت ساعةً
غفرت ذنوبَ الدهر في أعوامِ

غفَل الزمانُ هناك من غَفَلاتهِ
ففررتُ للّذات من آلامي

وقطعتُ من ثوب الشباب عِصَابةً
وربطتُ من جُرْح الحياةِ الدامي

ومضيتُ أصعدُ ذِرْوَةً في ذِرْوَةٍ
كالنجم مشتملاً عليَّ غمامي

في كل مَنْزِلةٍ وكل ثَنِيّةٍ
يضعُ الهوى قمراً يضيء أمامي

وعلوتُ حتى عن أمانيِّ الحيا
ةِ وغِبْتُ حتى غبتُ عن أوهامي

وسموتُ في أُفقٍ يذوب نسيمهُ
شغَفاً اذا ما اهتزَّ غصنُ قَوام

أُفُقٌ يُطِلُّ على الحياةِ وهمّها
إطلالَ مغْفِرةٍ على الآثام

لُبْنَانُ فنٌّ في الطبيعة قائمٌ
دقَّتْ محاسنُه على الافهامِ

متكبرٌ حتى على إكبارها
متعظمٌ حتى على الإعظام

قِمَمٌ تَغَطَّى بالسماء كأنها
في الكون أمثلةٌ على الإبهامِ

ثُمَّ فَوارِغُ علَّمتْ أبناءها
عند الحوادث كيف رَفْعُ الهامِ

ومَدارجٌ تُنبيكَ مُنْحَدَراتُها
أنّ الحياةَ مَذاهبٌ ومرامي

تركَتْ بنيها أينما حكمتْ بهم
نَفَذُوا على الأسباب كالاحكام

وترى هنالك كلَّ شيء ناطقاً
أن لا يعيش هنا سوى المِقدامِ
جَبَلٌ تمنَّع في الطبيعة عِزَّةً
ومهابةً كالناب في الضرغام
يتقلَّب التاريخُ من أبنائِهِ
في الغُرِّ بين فوارسٍ وكِرام
فالنورُ لم يَبْرَحْ على أرجائه
من مَبْسَمٍ أو من فِرِنْدِ حُسامِ
جَبَلٌ اذا وصفوا الرواسيَ لم يكن
أبداً لصدر الارض غيرَ وِسامِ

« * »

يا نَفْحَةَ الجنَّات من تلك الرُّبَى
كم ذا يطولُ تلهُّفي وهُيامي
بيني وبينكِ بحرُ دمعٍ يَرْتمي
من عين مهجورٍ وبرُّ خِصام

لهفي على ريح الشآمِ ونظرةٍ
من أرضها لهوًى هنالك نامي

أرضٌ بنوها الصِّيدُ كيف تَواثَبُوا
عَنَتِ الحياةُ لهم بكل مَرام

حملوا النبوَّة وهي روحُ بلادهم
ومضَوا بوحي العزم والإقدامِ

فهُمُ بأيِّ الارض حلَّ نزيلهُم
قومٌ قضت لهمُ السما بمقام

أرضٌ كساها الوحيُ جوًّا عاطراً
وبنى لها أُفقاً من الأنغامِ

اللهُ زيَّنها بكل بديعةٍ
باحتْ بأسرار من الإلهام

فهُنا يُريك الحسنُ صفحةَ شاعرٍ
وهنا يُريك صحيفةَ الرسّامِ

والحسنُ مختلفُ المواطنِ في الورى
لكنما حسنُ الطبيعة « شامي »

الرسالة السادسة

تقول أيها العزيز : « فصِفْها لي على حَقِّها [١] وصفها على هواك بما يُزَخْرِف الهوى من كَذِبه وانقلها اليّ من مرآتها نقلاً ووافني عنها برسالة كليلة من ليالي القمر في الصيف تتنفَّس كلُّ ساعة منها برائحة الفجر » . آه ما كان لي ولهذا البلاء الجميل ... فان عهدي بهذه النفس أنها مُصَمِّمةٌ حكيمةٌ اذا فزعت تفزع الى ضِرْس حديد واذا همَّت أمضت عزيمتها فما يَنِدُّ منها شيء الا ضَبَطَتْه [٢] وأحكمَتْه ؛ وان عهدي بهذا العقل أنه نافذ دَهِيٌّ ذو حرب وسِلْم في أساليب الحكمة والسياسة . ولكن الانسان يُبْتَلَى ثم يُبتلى ليعرف ان كل ما فيه إنْ هو الا وديعةُ الغيب فيه ؛ فما شاء الله نفع وان كان سبباً من الضُّر ، وما شاء الله ضرَّ وان لم يكن الا نفعاً ؛ والاسباب كالعمر لا يملك الانسانُ

(١) على حقيقتها (٢) لا يفلت منها الا أمسكته والضرس الحديد كناية عن العقل والرأي القوي

استمراره لحظةً واحدة وقد يستمر على ذلك ما يستمر

ان وصفها لهمّ جديد وانها الآن في نفسي غير من كانت فالكتابة عنها ضَرْبٌ من العَنَت كالترجمة من لغة الى لغة فلولا كان ذلك والهوى متَّفِق ؟ ولكن يا شمس السماء مُجِّي من ريقك على هذا القلم حتى ينسج وشْيَه وزُخْرفه واجمعي في هذه الصحيفة نورَ الابتسام وماء الدمع وأخرجي منهما ما يخرج النباتُ من الضوء والماء زهراً وثمراً وورقاً أخضر . . وحطباً يابساً بَعْدُ . . . .

« * »

أَمَا إنها فِتنةٌ خُلقت امرأة فاذا نظرتْ اليك نظرتها الفاترة فانما تقول لقلبك اذا لم تأت اليَّ فانا آتية اليك ؛ خُلقت مقدَّرةً تقديراً كأن كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووُزن هناك بأهواء القلوب ومَحَابِّها . وكأنها بعد أن تم تكوينُها أرسلت الملائكةُ في دمها نقطة عطر فهي تَنْفَحُ على القلوب برائحة الجنة . وهي ابداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يُوصَفُ ولا يُسمَّى ولكنه يجذب ويفتن فلا

تراها الا على حالة من هذين حتى ليظنها كلٌ من حادثها أنها تحبه وما بها الا أنها تفتنه

رشيقةٌ جذّابة تأخذك أخْذ السحر لان عطر قلبها ينفُذُ الى قلبك من الهواء ؛ فاذا تنفّستَ أمامها فقد عشقتَها

وتراها ساكنةً وادعةً أمام عينيك ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قَلِقاً نافراً يَتَمَلْمَل

أما أُنوثتُها فاسلوبٌ في الجمال على حِدَة ؛ فاذا لقيتَها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الاسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب . واذا كنت ذكياً فأضافت الى ما فيها من بواعث الهوى إعجابها بك فقد أحكمتْ لك العقدةَ التي لا حلَّ لها

ومهما تكن من رجلٍ باذخٍ فانك بإزائها ترى كيف ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا براءةَ لك ولا مَخْرج من حبها ؛ ومهما تكن من جبل شامخ فانك تتهافتُ تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبالُ الثلج في القُطْب اذا

زاحهَا عما حولها شعاع رقيق من اشعة الشمس تتنهّدُ فيه نسمة ضعيفة

وهي في لونها ذاتُ بياض أسمرَ مُحْمرٍّ وَضيءٍ يَغتَرِقُ العينَ حُسناً وكأن ائتلاف الالوان الثلاثة فيها جملةٌ مركَّبة من لغة النور والهواء والحرارة ، معناها الجمال القوي الصحيح . هيفاء مُلتفةٌ لم يَهْبِط جسمُها ولم يَرْبُ [(١)] تملأ قلبك كما تملأ ثوبَها . وتمايل أعطافُها فلو خُلق غصنُ البان امرأةً لمشى يتَهادَى في مثل مِشيَتها . وتنظر نظرةَ الغزال المذعور أُلْهِمَ أنه جميل ظريف فلا يزال مُسْتَوْفزاً يَتَوَجَّسُ [(٢)] في كل حركة صائداً يطلبه . . . . وتنفجر لعينيك في حركاتها وكلماتها كما يتفجَّر امام الظمآن ينبوعُ الماء العذب . وما رأيتُها مرة الا أحسستُ نفسي تُصورها تصويراً كأن الشمس والقمر قد صنعاها في الحسن صنعةً جديدة . وتَنْتحِلُ هذه الظبيةُ احياناً كبرياء الأسد فيكون

(١) لا سمينة فضفاضة البدن ولا هزيلة نحيلة
(٢) يخشى والغزال دائماً كالمذعور

ذلك منها في باب الدلال مخاشنةً بين طبعي وطبعها تَبُثُّ بها في الحب قوةً تبلغ قوةَ الافتراس في أسد جريح

تريد الهوى وتعرفه وتنفخ في ناره وتُذْكي ضِرامها بما لا يخمد ولا ينطفىء ولـكن .. ولـكن لترى من كل ذلك كَيف أحترق

تلك هي أيها العزيز؛ من أيّ الجهات اعتبرتَها لا ترى أوصافها تنتهي الا كما تنتهي أطرافُ الواحة الخضراء في رمال كالأُقيانوس الجافِّ تُقحِمكَ المَتَالِفَ (١) وتَبُثُّ لك مَصايِدَ الموت في كل جهة ، ولا يخرجك منها الا أن يكون عمرك أوسعَ منها ؛ ومع ذلك فلا تخرج الا حيًّا نصفُه موت او ميتاً نصفُه حياة . ان عاشقها المسكين في كل ما يناله من حبها ليمشي الى الجَدْب بخُطُوات خُضْر تعُدُّ عليه واحدة واحدة ؛ فههنا نبْعٌ يَروي وهناك روضةٌ تتنفّس وثَمَّ سَرْحَةٌ تفيء بظلها ؛ وما شئت من

(١) تورطك في المهالك

متاع أحسنَ ما تنظر ومن رَوْح أجملَ ما تبتغي ومن نعمة أبدعَ ما تتحفّى بك النعمة ؛ ثم تنتهي من الواحة لانك كنت تندفع ولا تُحِس ويُسارُ بك ولا تدري ؛ وتنتهي بعد الفضاء الجميل الاخضر الى ذلك الفضاء المخيف الابيض بياضَ عظام الموتى.... فضاءِ الصحراء المهلكة التي تقول لك أولَ ما تتلقاك : ليس من يُحس بك ههنا فحيث شئت فمت ....

كانت والله قَدَراً مقدوراً لو علمتُ كيف تنتهي لاتقيتُ كيف بدأتْ، ولكني جئتها وأنا أقدِر ان أراها كما هي وأدعها كما هي فاذا القَدَر مخبوء فيها واذا هو قد طلع عليَّ في الحاظها واذا أنا أراها فلا أدعها. وكان طريقي اليها بين رؤيتها وتركها ، أبدأ وأعود ؛ فلما تخطيتُ أولها لم أر لها آخراً ولما بدأتُ عدلتْ بي الى الناحية التي كنتُ أجهلها فلم أدرِ كيف أعود

« * »

وهي شاعرة تغمُرُ أفقاً واسعاً بأشعة خيالها ، ولو ان

نجمة سألت الله ان يخلقها امرأة فتنزلَ على الشعراء بوحي السماء وخيال السماء وأسرار السماء لكانتْها . غير أنها لا تحسن عربيــة الكتابة الفُصْحى فاذا كتبت وقليلاً ما تكتب [1] اختَبَطَتْ في مثل البحر اللُّجّيّ ففرّت الى الساحل ورقصت هناك على رَشاش الموج . وهي تا لمُ لذلك النقص فيها وما أظرفَ ما تراه في سببه إذ تقول : إن المصري والسوري ومن يشبههما قد بلغوا من ضعف القومية التاريخية بحيث يريد اكثرهم الكمال لشخصه لا لتاريخه ، ولنفسه لا لأمته ؛ فينسلُّ أحدهم من تاريخه ويغامر في آداب امة حية كالفرنسية والانجليزية ويستفرغ فيها كل همه فيدرك في خمس سنوات ما لا يأتيه به التاريخ المصري او السوري في خمسين سنة لو بقي في أمته وادعاً يترقب نُضج تاريخها . والشرقي اذا خرج من الشرق أحسَّ

---

(١) يستعمل هذا التركيب للندرة والعرب يستعملونه في نفي أصل الشيء وفي القرآن الكريم « فقليلاً ما يؤمنون » اي لا يؤمنون أصلا وهو اعجاز عجيب لمن يتأمله

أنه ترك وراءه بلاد القبور والمدافن والجثث المحنَّطة واستقبل بلاداً اصبحت الطبيعة فيها أسرعَ من اهلها في العمل للحياة والأحياء فهم يخدمون نواميس الكون لتخدمهم على الارض لا في السماء . وكانت اذا انتهت الى مثل هذا قلت لها انك لتتكلفين أن تجعلي للَّانهاية حدوداً اربعة ... بل أربعةً ذات قياس ومساحة والا فابتلي اوربا بمثل ما بلي الشرقُ منها اربعين سنة في جِد السياسة وهزلها فانك والله لا ترين منهم يومئذ الا الزنوج البيض ...
وكانت تقول ما أعجزني في أجناس الكتب إلا كتبُ اللغة العربية ؛ لقد أحضرتُ شيخاً يُدارسني كتاباً منها فكانا كتابين .... الذي أراه هو الذي أسمعه والذي اسمعه هو الذي أراه . ثم تغرقُ في الضحك وتقول في كلام ظريف كأنه يضحك ضحكاً آخر : فأنا والله في حاجة لاتقان هذه اللغة الى عِمامة وعشرين سنة في الأزهر ...

« ❊ »

قلت لك إنها شاعرة تملأ سماء من السموات فتكاد لا ترى فيها من جهات الارض شيئاً[1] كأنما تركت المادة الانسانيةَ في أبويها وخرجت من ذلك الحطب والورق .... مخرجَ الزهرة الناعمة؛ بنيةً من اللون وجسماً من العطر ونسيجاً متماسكاً من الشعاع . خرجت عاطفةً مولودة تكبَر وتنمو لتبلغ في العواطف سنّ شباب القلب ؛ لا يتصل بروحها شيء الا نبت واخضرّ ثم نوّر وأزهر[2] كأن طبيعة الجمال خبأت في قلبها سرّ الربيع . وهي الصافية كرقة النسيم والناعمة كملمس الماء والضاحية كطلعة الشمس ؛ فان غضبت بدّلت النسيمَ قَيظاً والماءَ ظماً والشمسَ الطالعة غيماً يلفّ نهارَ الحب في مُلاءة ليل أسود

ولا يستخرج عجَبها شيء كما يعجبها الكلام المفَنّن المشرقُ المضيءُ بروح الشعر فهو حِلاَها وجواهرها وما

(١) كناية عن الطباع الحيوانية النفسية
(٢) نوّر أخرج النوار

لِسُوق حبها من دنانير خير المعاني الذهبية . فانها لا تُبايعك صفقةَ يد بيد ولكن خفقةَ قلب على قلب

وما عسى أن أقول في فلسفتها واهتدائها الى موضع السر من الأشياء ونزولها وراء الحُجُب الى الأعماق البعيدة التي تغوص الحجةُ فيها واستبانة المُشْكل باللَّمح وتقليب المعاني في أصابعها كأنها ملتَّمة ما تحاوله ؛ وأخذها في سبيل البرهان حين تجادِل مأخذاً لا يُقام له ، وإظهارِ خيالها البديع في معانٍ لامعة كأنما تتدلَّى عليها الشمس . فلو كنا نقول بالرَّجعة [1] لقلتُ إن (أرسطو) قد رجع بفكره الجبَّار الى هذه الدنيا ليمارس حياةَ الأنوثة ويتمَّ امرأةً كما تم من قبل رجلاً فينتظم كلَّ الجنسين في نفسه

على أن فلسفتها هذه قد جعلت من بعض قُواها ذلك الجمود الذي تستعين به على الحب « جمودَ احساس الكُتُب . . . » حتى ملأت نفسي بمثل البحر ملحاً ومرارة

(١) مذهب يقول به الهنود وغيرهم فيزعمون ان النفس ترجع الى الدنيا في جسد آخر لتستوفي كمالها

الجمال هِبةُ الله فليس لامرأة فيه عمل . ولكن العجيب أن اكثر ما يكون من عمل المرأة انما يكون في إفساد هذه الموهبة كأن الجمال غريبٌ حتى عن صاحبته . تفسدها بالجهل اذا كانت جاهلة وتفسدها بالعلم اذا كانت عالمة وتفسدها بلا شيء ان كانت هي لا شيء . . . .

« * »

على أنها كانت تزعم أنها تبغض الفلسفة وأهلها وتقول ينبغي أن تتحول الفلسفة الى شعر كالتراب نُعالجه ليستويَ مخضرًّا فاذا هو لم يُنْبِتْ فارْدمْ به المستنقعاتِ واملأْ منه الحفَر وافتح فيه القبور ، والفلسفة وان كانت من ضرورات الحياة والأحياء ولكنها عند بعض الناس أعجبُ شيء وعند آخرين شيء عجيب وعند الشعراء لا شيء عجيب . . . . أعرفُ العلم والمنطق ولكن الطباع غير العقول فمن كان في سنّ العقل استطاع أن يحمل في فلك رأسه السموات السبعَ والارضَ ومَن فيهنّ وذلك هو الفيلسوفُ في سَمْتِهِ وهيبته ووقاره كأن فيه مكتبةً

كبيرة أو كأن فيه ثقلاً خاصاً .... ؛ ومن كان في سن الطبع فلا يعرف الا ما يميلُ اليه طبعه ، فان يكن هناك منطق وعلم فهما في كيفية إيجاد الميل في نفسه ثم في استخراج اللّذَاذَةِ الروحية لنفسه من هذا الميل ثم في تهيئة الاستمتاع من هذه الروحانية بكل ما فيها لكل ما فيه

هذا هو رأيها ولكن لا تنسَ انه رأيُها الفلسفي .... وانه لن يكون لها رأياً الا اذا كان لها بَدِياً [1] فلسفةً قد جعلت من طباعها « جمود احساس الكتب » ؛ وههنا المصيبة فانها ان عمدتْ الى غيظك اختبأت نفسُها في كتبها وأوراقها ورأت هذه الكتبَ والأوراق دنيا غير الدنيا لها أشخاص غير الأشخاص . أما بين الكتب والاوراق فهي تحمل في رأسها السموات السبعَ والأرضَ فكيف تشعر بك اذا أنت وحدك وقعتَ من السموات السبع والارض ..؟

ولكن هل أنتَ الا أنتَ وحدك ؟

(١) أي قبل ذلك أو كما يقول الناس (أولا)

الرسالة السابعة

نالتْ مني رسالتك يا عزيزي وما كنتَ ظالماً ولقد ظلمتَ . جاءتني سطورك جُمَلاً جملاً فانصبَّت على قلبي انصباباً فَغَشِيَتْه من حروفها بموج أسود كالظُّلَم . لك اللهُ أن تحسبني هالكاً وتقول إن روحي محمومة بتلك الفتاة واني في حاجة منك الى علاج مُر ؛ الى بضع نصائح من الكينا ....

فأما إني محموم بها فلا وما أبعدْتَ ؛ ولكن هي كانت أشبه بالهذَيان في الحب ، وان الدهر ليَحَمُّ مراراً عدَّةً متى ركبته الأقدار الملتهبة فاذا هو حُمَّ جاء من هذيانه نابغةٌ يهذي في رجل أو امرأة . وكان من علامة نبوغ تلك الفتاة أن فيها من برد الدنيا وسخونتها .... فيها والله برد شديد ويكفي أنه برد الفلسفة ....

قالوا جلَّت الحقيقة أن تكون البشريةُ محلاً لِتلقّيها ؛ وأقول جلَّت مرة أخرى أن تكون المرأة هي هذا الحل ؛

فما للمرأة الجميلة والفلسفة ؟ أللهمَّ لا تبتلِ بها من النساء الا كلَّ ذات وجه غَضِنٍ [١] لا يضره ولا يضر أحداً ان تزيد فيه كُرْبَةٌ أو عقدةٌ أو مسئلة حسابية . . . .

ولكن ما أجمل الحقيقةَ تُرسل أشعتَها وألوانَها في قلب الجميلة فتَمتَهِدُ لها فيه أرضاً من الشعاع ثم تهبط من السماء الكبرى الى هذه السماء الصغرى جمالاً في جمال وحقيقة على حقيقة وشعراً على شعر ومعنى يُوحَى به الى من هي تفسير له . تلك حقيقة الجمال الذي لا يُفهَم الا بمثال عليه من امرأة ؛ وان من النساء تفسيراً بديعاً لهذه الحقيقة ، ومنهن تفسير ناقص ، وبعضهن مغالطةٌ في التفسير ، وبعضهن مسخٌ ، وبعضهن كالتضريب والشطب لا يفسر شيئاً ولا يصحح شيئاً ولكن يمحو ويطمس . . . .

« * »

سآتيك بها الآن من جهة الشعر وقد وصلتُ

---

(١) الذي فيه تكسر وتجعد من الهم والكرب و . . . والقبح أيضاً . . . .

جناحها بجَناحي بعد مَقْدَمها الى مصر بايام وخرجنا مُتَنَدِّيَين[1] ذاتَ صباح في طريق تبعثرتْ فيه الشمسُ على الندى وعلينا . كانت هي صبحاً في ذلك الصبح وقد وافت كعادتها متكسرةً وللفتور مَسٌّ فيها ؛ فتورها النسائي[2] البديع الذي يُنبئك في لطف أيّ لطف أن عواطفها تُبعدك عنها ولكن بشرط أن لا تبتعد ؛ فتور في الجسم تظهره الأُنوثة التي نراها لنطّلع منه على سر الأنوثة التي لا نراها . وفتور في اللحظات تدل به على أن في قلبها منك شيئاً تحب أن لا يظهر لك وتحب كذلك أن لا يخفى عليك ....

ومشينا بين الجمال المنظور وبين الجمال المعقول وهي تجمعهما في شخصها ومعانيها على حين أن الطبيعة لا تكاد تُرضيك من هذه الجهة الا اذا عرضت لك ألف شيء

---

(١) متنزهين غبّ الندى وهي كلمة استعملناها قياساً ولا يوجد في كتب اللغة (٢) يظن بعضهم ان النسائي غلط وصوابها النسوى وكلاهما صحيح والاولى أفصح احياناً

جميل . ثم فِئنا الى روضة على شاطىء النيل يُسافر النظر في أرجائها وتَتَموَّجُ للعين كأنها بحر أخضر تهتزُّ عليه هنا وهناك أمواجٌ ملوَّنة من الزهر

وقلتُ فلأكنْ آدمَ هذه الجنة اليوم . قالت ثم تخرج منها كما خرج .... قلت فان الخروج لا يَأزفُ الا عند غروب الشمس « كقانون المجلس البلدي » .... فضحكت وحضرتْها النفسُ الثالثة[1] ثم مدت عينيها الذابلتين في شواطىء ذلك البحر الأخضر وقالت ألا تظن يا آدم الصغير أن إدراك الجمال الطبيعي في الأرض هو بقيةٌ فينا من نفسية آدم الكبير لَدُنْ كان في السماء وقد ورثناها عنه : قلت لا أظن ظنًا بل أنا مُستَيقِن فاننا طُردنا من الجنة ولكنا استَرَقنا منها قدرَ ما وسع خيالنا ؛ فإدراك الجمال في أي أشكاله وبأي طُرُقه انما هو متاعُ الروح الانسانية على طريقتها الأولى في عهدها الاول . إن هذا الجمال لم يُخلق الا للحِسِّ والتخيل فهو كلام بين

(١) مرَّ تفسير ذلك في الرسالة الرابعة

السماء وباطن الانسان . قالت فأنت الساعةَ تكلمك السماء ؟ قلت وتقول لي . . . . قالت يا وَيْحي ماذا تقول لك السماء ؟ قلت فانها تقول ما لك منصرفاً عني بِمَلَكٍ من ملائكتي ونسيتَ حتى الشمس فلم تنظر اليها . قالت وجوابك ؟ قلت جوابي هو أن بعض الاسرار الالهية يُبْحَثُ في العلم عنها وبعضها يكون من الجلال والاشراق والسموّ بحيث يُبحث فيها هي عن العلم ؛ فالسر الكامن في هاتين العينين وفي هذا التكوين وفي هذه الطلعة هو الذي أبحث فيه عن علم قلبي . قالت أنت شاعر يُمَدُّ قلمك شيئاً عجيباً وكثيراً ما أحاول الابتعاد عن الفاظك . قلت ولِمَهْ ؟ أيكون فيها أحيانا صوتُ شفة يمسُّكِ ؟ فسكتت وجعلت تَنْكُتُ الأرض . ومضيتُ أقول : ان الجمل يَسْتَرْوِحُ الماءَ (١) مَسِيرةَ ميل وان بعض الحيوان يحمل اليه الهواء رائحة ما يخشاه او يحبه فكيف لا تحمل اليَّ الفاظك عطر خديك وشفتيك فتستحيل الفاظي كلها قُبُلَات ؟ إن السائل

(١) يشم رائحته لخاصة فيه اذ خلق للظما

المسكين حين يدعو لمن يُحسن اليه يقبّل يده بالفاظ الدعاء لان كلماته لا ترتفع الى السماء الا بعد ان تمسَّ هذه اليدَ الكريمة المحسنة من كل لفظةِ دعاءٍ بقُبلة شكر ؛ والمحبُّ حين ينظر في وجه من يهوى نَظَرات كالالفاظ وحين يتكلم بالفاظ كالنظرات . . . وهنا لمست كتفي وانتهضت وقد أشارت الى زهرة حمراء كوجه المستحي ثم مشت اليها فاقتطفتْها ورجعت ؛ فعلمت ان الكلام كان سقطة مني فتداركتُه وأردت أن أقلبه عن جهته ولكنها تنهدت ثم قالت ما أحببتك شخصاً بل شعراً ولا انساناً بل فكراً ، ولولا اسباب القَدَر التي باعدت ذاتَ بيننا . . واخذ كلامها يرقُّ ثم يرقّ حتى خرج من معانيه كلام لا يتلقّى الا بالشفاه ، وخُيِّل اليّ أن نسيم الروضة يرتمي عليها ليتخطّف تنهدها فجعلتُ اتخطف هذا النسيم وكأني لا أتنفسه بل أشربه شُرْباً

« * »

في تلك الساعة ذكرت هي الشعر وقالت انه يُخرجنا

الآن من حدود العمر الارضي فان في هذا العمر ساعاتٍ لا تحسَبُ منه إما لانها أبدعُ واجملُ فلا يُلائمها ، واما لانهـا أقبحُ واسخف فلا تُلائمه ؛ أفتُراها أقبح وأسخف . . . ؟ قلت يا شاعرتي العزيزة إن اللغة أيضاً تخرج من حدود الأرض أحياناً فهي في مثل هذه الساعة في مثل هذه الروضة في مثل هذه الجميلة لا تُؤَدِّي الا معنى الجمال والحب . اما الأقبح والأسخف فلا يدخلان هنا الا بعد أن نخرج نحن ويدخل غيرنا . . . .

قالت يا لك من « عقل جميل » كما يُسمِّي الفرنسيون ظرفاءهم . ثم تناولت من المَثْبَنَة [١] في يدها أنبوب قلمها الرصاصي المصنوع من الذهب وأخرجت دفتراً صغيراً . وغمست سنَّ القلم في ثناياها وفكّرت لحظة ثم غمسته ثانيةً ثم كتبت في طُرّة الصفحة هـذه الكلمة « الشعر » . ونظرت اليَّ باسمة وقالت خذ هذا القلم واكتب كلمة صغيرة في الشعر لأنقلها الى الفرنسية في مقالة لي....

(١) المثبنة كيس تحمله النساء تضع فيه بعض اداة الزينة

آه لو ان الكهرباء اجتذبت القلم من يدها ما كانت أسرع مني في اختطافه . وجعلتُ أغمسه في شفتيَّ مرةً بعد مرة بعد مرة ولا اكتب شيئًا وهي تضحك وتقول ما لك لا تكتب ؟ فاقول هكذا اعتدت في المدرسة وكنت بليداً . . . .

ثم كتبتُ ولكن بعد أن خالط في طعمُ الرصاص من كثرة ما غمستُ القلم . . . . وكتبتُ وانا اشعر بأنفاسها وعطرها ومعاني لحظها يتحولْن في نفسي الى كلمات :

« ❊ »

ما هي العاطفة المُهْتاجة في نفس الانسان اهتياجاً لا يُريه الحياةَ أبداً الا اكبرَ او أصغرَ مما هي ؟

ما هو المعنى الساحر الذي يأتي من القلب والفكر معاً ثم لا يأتي الا ليُحْدث شيئًا من الخَلق في هذه الطبيعة ؟

ما هو ذلك الأثر الالهي الكامن في بعض النفوس مُسْتكِنًّا يتوثَّب بها ويُحاول دائمًا ان يعلو الى السماء لانه غريب في الارض ؟

وما هو الشعر ؟

هذه الاسئلة الأربعة يختلف بعضها عن بعض وينزع كل منها الى منزَع ولا جوابَ عليها بالتعيين والتحديد في عالَم الحِسّ لان مَردَّها الى النفس والنفسُ تعرف ولا تنطق ؛ وشعورها إدراك مخبوء فيها وهي نفسها مخبوءة عنا ولكن العجيب أن كل سؤال من هذه الأربعة هو جواب للثلاثة الباقيات ؛ فالعاطفة هي ذلك المعنى وهي ذلك الاثر وهي الشعر . والشعر هو العاطفة بعينها وهو الاثر وهو المعنى ؛ وهلمّ جرا

« * »

سُبْحانَكَ يا من لا يقال لغيره سبحانك . خلقت الانسان سؤالاً عن نفسه وخلقتَ نفسه سؤالاً عنه وخلقت الاثنين سؤالاً عنك . وما دام هذا الانسان لا يُحيط به الا المجهولُ فلا يحيط به من كل جهة الا سؤالٌ من الاسئلة ؛ ولا عجبَ إذن ان يكون له من بعض المسائل جوابٌ عن بعضها

هذه هي الطريقة الالهية في دقائق الأمور ، تجيب الانسانَ الضعيفَ عن سؤال بسؤال آخر

ولقد اكثروا في تعريف الشعر وجاؤا فيه بكل ألوان القول . ولكن كثرة الأجوبة جعلته كأنه لا جواب عليه . بالغوا في تقريبه الى الروح فأجرَوْا في حدّه كلَّ عناصر الجمال والفضيلة ودلوا بالخيال على حقيقته إذ رأوا انه لا يدل على حقيقته الا الروحُ وحدها وهي غامضة فهو غامض وتفسيره في مئة تفسير

الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من ورائها الغيب ؛ فلو جمع ما قيل في الشعر لرأيتَه يصلح في اكثر معانيه أن يقال في النفس ثم لرأيتَه مفهوماً من جهتنا وغيرَ مفهوم من جهته . وما الشعر الا اول المعاني المبْهمَةِ والدرجةُ الاولى من سلّم السماء الذاهبةِ الى عرش الله ؛ وهو كذلك أولُ ما في الانسان من الانسانية

في هذا الكون مادة عامة يسبح الكونُ فيها وتنبعث من قوة الله وارادته وهي دائمة التركيب والتحليل ايجاداً

وفناء ؛ وما أرى الشعر الا تأثير هذه المـادة في بعض النفوس العالية الكبيرة التي تصلح أن يسبح خيـال الكون فيها

بهذه المادة تمتزج نفسُ الشاعر بكل ما تراه ؛ ومن هذا الامتزاج يتكون الشعر. فاذا أردتَ أن تتحقَّق ذلك فانظر الى نفس الشاعر العظيم تمتزج بالجمال الرائع في نفس الجميلة ، وبالحب في نفس الحبيبة ، وبالطبيعة في المعنى الطبيعي ؛ وانظر اليها حين تتَّصل بأسباب اللذات والآلام؛ حين تُثيرها اللحظةُ والابتسامة، ويَهيجها الصدُّ والاعراض، ويحزنها المحزن ويَسرها السار؛ حين تخترق بالفكر حجابَ هذه الانسانية وتَثِبُ بالعاطفة فوق الطِّباق العليا وتستمدُّ من الشُّعلة الأزلية لونًا من ذلك الضِّرام الذي اشتعل به في أصل الخلقة كلُّ كوكب يتلهَّب

((*))

ما أشقى نفسَ الشاعر ؛ فانها لسموِّها تجهل ما هي من هذا العالَم فلا تزال تمتزج في أرضنا بكل ما يحزنها ويسرها

لتعرف ما هي ؛ ولن يكون الشعر العالي أبداً الا التقاء بين نفس سامية وحقيقة سامية . ومن ثَمَّ كان الشاعر العظيم يُحب ويُبغض ويضحك ويبكي ويرضى ويغضب ؛ ولا يُحسّ من كل ذلك وما إليه الا أن السماء تحكم من داخله على الارض

وعلةُ شقائه هي نفسها علةُ سروره بشعره وان نَثرَ هذا الشعر من عينيه بكاء ودموعاً ، وان انْفجَرَ به أحزاناً وآلاماً قاتلة

كل النوابغ لا يُرضيهم الا أن يرتفعوا فان من كان له جَناحان للطيران لا يُسر الا اذا طار ؛ وما جناحا الطائر الا كتابان من الله يملكه في احدهما على الشرق وفي الآخر على الغرب ؛ بَيْدَ أن الشاعر لا يُرضيه أن يرتفع عن الارض وحدها فان خياله لا يقع الا ساجداً عند عرش الله ؛ وذلك سبب آخر من أسباب شقائه في الدنيا ، فإنما شرٌّ مسَّ كبرياء روحه وأمسك من جناحيها

رأيتَ أثره في نفسه الرقيقة وكأنما صدمه الصدمةَ ترمي به من فوق السماء الى الارض في سقطة واحدة

يا للعجائب ان سرور الشاعر الملهَمِ سرورُ نفسه وحدها ولكن حزنَه حزنُ العالَم كله

« * »

قيل في احد القدّيسين إنهما وجد السبيلَ الى الكمال الانساني الأعلى ولا استطاع ان يكمل حتى كانت له نفس شاعر عظيم في جسم فقير بائس محزون ، فضَربَ الله بتلك النفس على هذا الجسم وبهذا الجسم على تلك النفس واستضاء منهما القمرُ الانساني في ليل حالكٍ من سواد أحزانه وهمومه

فواهاً لك يا شعر الشعراء ؛ أنتَ النقصُ كلّه مع لذاتِ الدنيا وأنتَ الكمالُ كله مع آلامها . « انتهى »

« * »

واستوعبتْ هذه الكلمة يا عزيزي في دفترها الجميل

عشر صفَحات . فعـدَّتها واحدةً واحدة ونظرت اليَّ أظرفَ ما رأيتها ثم شكرتني وقالت : آه ماذا قالت ؟ لقد كنتُ أكتب وهي تُديرِ فكرها في اختراع بديع لمكافأتي

فكّر أنت أيها الصديق . أحسبك تسمع الآن صوتَ النقْد اللوءلوءيّ الثمين ؛ صوت عشر قبُلاتٍ

كلاّ كلاّ لقد كذب عليك الحسن وكذب عليك القمر . قالت . . . . لم يبق الا عشر دقائق . . . .
وانفتلتْ ضاحكةً ونهضت لا تلوِي

« * »

ومِلْءُ شعُاعِ هـذا السيفِ قتلْ
وَمِلْءُ جمالِ هـذا الحسن ذُلْ
ولولا سَطْوَةُ الأقدارِ فيها
لُبِّ الناسُ كان الناسُ مَلوا

فانْ كثُروا يقلُّوا كي يَعودوا

كِثاراً ؛ ثم ان كثُروا يَقِلوا

مَسائِلُ ما لها حَلٌّ ولكن

اذا نُسِيَتْ ففي النسيان حَلُّ

وسأنسى يا عزيزي سأنسى



*

الرسالة الثامنة

وادي هواكِ كأن مَطْلَعَ شمسهِ
يُلقِي على يأسِي شعُاعَ أماني
وكأن هذا البدرَ في ظَلْمَائِه
يَدُ راحمٍ مَسَحتْ على أحزاني
وكأن أنْجُمَ أُفْقِهِ في ليلها
ذِكْرى وعودِكِ لُحْنَ في نِسياني
يا ظبيةَ الوادي الذي نَبَتَ الهوى
بِثَراهُ بين الزهر والرَّيحان
واديكِ من طول التدلل قد بدا
شَبَهُ التَدُود به على الأغصانِ
وكأنَّ طِيبَ نسيمِه قد مَسَّ من
شفتيكِ موضعَ قُبْلةٍ وأتاني
هو جَنَّةٌ كلُّ النعيم بأرضها
الا رضاكِ ؛ فذاكَ من نيراني

دانٍ وما يدنو ؛ بعيدٌ ما نأى

يا شَدَّ ما يُضْنِي البعيدُ الداني

« * »

أنا مَن عَلِمْتِ فَتًى كأن مُهَزَّهُ

في الرَّوْع مَسْنُونُ الغِرَارِ يمانِي

كلُّ الحوادثِ حُمْرُهُنَّ وسُودُها

في صفحة الأيامِ من ألواني

نفسي من المَلَإِ العُلَى وسَجِيَّتي

تأبَى عليَّ مذلَّةَ الانسان

ولقد أُراعُ اذا لحاظُكِ لامَسَتْ

قلبي كأني في هواكِ اثنانِ

« * »

ألحسنُ ألوانٌ يُمازِجُ بعضُها

بعضاً لتصوير الهوى الفتَّان

وأرى الجوَّى والسحرَ والايمانَ قد

مُزِجَتْ فمنها هـذه العينانِ

وآه لو رأيت عينيها أيها الصديق تَغْزِلان غَزَل السحر خيوطاً خيوطاً تَلْتَمِعُ واحداً من شعاع الحريرفي واحد من شعاع الشمس . آه لو يَتَبيَّن لك مَكتومُها في بعض نظَراتها الساجية الطويلة التي تَغْفُل فيها عن كل حذر وتُرسل فيها كل خواطر الحب. وتمدُّها اليك وكأنها تقول خذ هذه النظرة وانظرني أنت بها لتَطَّلع على ما في قلبي . ثم تُرخيها بفتور اليّ كأنما تُصارحك أنها سَئِمَتْ مقاومة فكرها وتريد ان تميل الى صدرك ولو بلحظة من عينيها ... كل شيء فيها من نتائج فكرها الا تلك النظرات فانها وحدها نتائج قلبها

تُنكر عليَّ أيها العزيز وصفي اياها بالفلسفة ونعتها بالذكاء النادر والشِّعر العجيب وتقول « ان هذا من سحرها فيك وانها لو بلغت مبلغاً مما وصفتَ أو دونه لتوكدتْ بينك وبينها علائقُ من تحت النفس ومن فوق القلب ولكنك تصفها بما لا يتصوّر في وهم ولا يَهْجِسُ في ظن الا وهمكَ انت وظنّك انت لانك انت .... »

فوالله ما كان أمرُها على ما رَجَمْتَ (١) وانها لأبلغ ذاتِ لسانٍ وأبرعُ ذاتِ فكر وأروعُ ذاتِ نفس ؛ ولو كنا سِلِبَيْ أُبوة (٢) ما شهدتُ لها بأكثرَ من هـذا حرفاً ، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتُها من هذا حرفاً؛ وعَلِمَ الله ما أُبْغِضُ فيها الا هذه التي أشهدُ لهـا . . . . ولو أن الله مكنها من لغـة كتابه الكريم لَغَصَّ منها في هذا الشرق العربي كلُّ كاتب وكاتبة غُصةً لا تُساغ ولا تتنفَّس

واني لأكتب اليك رسائلي هذه والقلبُ ينفُضُ في أضعافها (٣) ما لو قرأته اوَرَدَ عليك من أضواء المعاني في جمالها وحبها وأوصافها ما يملأ نهاراً بين صبحه ومغربه يبدأه بشمس ويختمه بقمر

((✻))

لقد كنتُ اذا جاش بي حبُّها وثار منه ثائره فحاولت

---

(١) أي ظننت بالغيب (٢) أخوين من أب واحد

(٣) بين سطورها وحواشيها

أن تَرْبِطَ على قلبي وتُثَبِّتَ هذا الفؤاد القَلِقَ ؛ جاءت بكلام نَضِرٍ تنبت منه السلوةُ في الحب القفر الذي لا يُنْبِتُ شيئاً ؛ وجعلت الملائكة تنزل في العُشِّ الذي بناه الشيطان لنفسه في القلب وعَشَّشَ فيه ؛ فلو أن كل حبيبة مثلُها وكل محب مثلي لكان الحب تغييراً في الإنسانية ولما احتاج الناس الى قوانين وملوك ولكن الى حبيبات والى حب .

إن الرذيلة واحدة ويتعدد أهلُها فهما كَثُروا ألوفاً وملايين فهم واحد في المعنى إذ يتلو كل منهم تِلْوَ صاحبه ويَقْتاسُ به فكأنهم صُوَرٌ متكررة لأنهم في الرتبة المنحطة كالنبات تُخْرِجُ الحبةُ منه الف حبة مثلها لا تمتاز واحدةٌ من واحدة ؛ ولكن كل من قام بفضيلة فهو فضيلةٌ قائمة بنفسها ، فهما قلَّ الفضلاء فهم كثيرون لأنهم في الرتبة العُليا ولأنهم وحدهم الناس . فلو صحّ الحبُّ وأطاقهُ أهلُه وصبروا على ما يَحِزُّ في الصدور منه وتَوَجَّرُوا العلاجَ المُرَّ (١) الى ساعة الشفاء لكان كل مُتَحابَّيْن عالَماً قائماً

(١) اساغوا يقال أوجرته الدواء اذا اكرهته على شربه

من اثنين لإنشاء عالَم لا يُعَدُّ من صفات الفضائل وأنواعها .

كانت تقول لي ، ان القلوب الضعيفة هي التي تصدأ في فكرة واحدة تُلِحُّ عليها حتى تَتَآكّل صَدَأً ثم تتفتَّت ؛ فاذا حَدَثَتْ عليها الحادثةُ انكسرتْ ولم تَقُمْ لها ، وبقيتْ زمناً طويلاً في الهموم حتى تتعب الحوادث والأقدار المختلفة في أيام تتصرَّم بعد أيام الى أن تجمع من حُطام القلب قلباً متحطماً ؛

ولكن القلوبَ القويةَ الصارمةَ ذاتَ الصدور الجريئة الواسعة تكوِّنها القُوَى المختلفة من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئة تجعلها مَرِنةً في صلابة فهي تلتوي ولا تنكسر ، وما أسرعَ ما ترجع كما كانت اذا لوتْها الخيبة أو نَجَمَتْ لها قاصمةٌ من الحوادث التي هي مَطَارِقُ القلوب لا تضربُ الا عليها ولا تحطم الا فيها

أقول لك « عدم المبالاة » فافهم عني فاني أريد أن تحفظَ هذه الكلمة وتَعِيَهَا من بَوَادي هذا الحب الى تواليه

الى أعقابه [١] . ان عدم المبالاة يكون في بعض الاحيان وفي بعض الأمور هو كلُّ ما تكلفنا به الطاقةُ البشرية من المبالاة ...

ثم تقول : انما أنتَ مني في باب من أبواب الفكر فاياك لا تتسلطْ عليك حاسة من حواسك فان لهذه الحواس ضَراوةَ السباع وكَلَبَها [٢] ؛ والعاطفة تجعل الانسان أشْكَلَ بالملائكة والحاسة تجعله أقربَ للشياطين ؛ والحب كالخمر كلاهما نَشْوَةٌ وكلاهما دواء فلا تُجاوزْ حدَّ الطب فيما ترى ولا حدَّ الشعر فيما تفهم ، والا كنتَ كالمُدْمن لا يكفيه الا ملْءُ جوفه حرَّةً وظمأً ومرضاً وجنوناً . واذا هو ملأه توهم أنه يسعُ بحراً من الخمر ولا يزال يطمع في الانتشاء ولا يزال يُسرف على نفسه حتى يذهب عقله وينكفيء وما به قدرةٌ على شيء ولا على أن يتوهم شيئاً . اجعل الحبَّ تَمَدُّلاً ودع مكابرَه في ناحية . وميّز بين ما يجب أن يبقى خيالاً وما يجوز أن يكون واقعاً

(١) من أوله الى تاليه الى آخره (٢) شدة الحيوانية فيها

فان أردت أن تُخْرِج من كل صورة في خيالك صورة من الواقع أشقيتَ نفسك واستفرغتَ كلَّ همك وقُواك في باطل وعبَث ليس مثلهما باطلٌ ولا عبث . دع المعاني في ألفاظها إن لم تؤاتِكَ الاسبابُ وعِلَلُ الأقدار على خلقها أعمالاً فانك إن داريتها ولم تجئك بالمسرَّة التي تريدها جاءتك بغيرها وخرج منها على العِلاَّت شيءٌ ما يكون منه أمرٌ ما .... وكن في قوة عواطفك وإحكامها وضبطها كالمصارع الجبَّار الذي لا يُوضَعُ جنبُه[1] فانه كما تعلم يَعرُكُ بكل جهة من جهاته أنواعا من أقوى القوَّة مُمثَّلةً في أجسام من أعنف العُنف ؛ فصدرُهُ الذي لا ينعطفُ وظهره الذي لا يُضْغَط وأطرافُه التي لا تَهِنُ ولا تَكِلّ ، وكل لوحٍ فيه انما هو رجل تامُّ الخِلقةِ وثيقُ التركيب لان كل ما فيه قوة بالغة في قوة بالغة ، ولأن الرجل لم يجتمع كذلك الا من المكاره والغَمَرات التي خاضها وثبت عليها حتى كأنما خرج بها من وزن رجل الى وزن جبل

(١) لا يغلب فيرمى على الارض

ثم تقول : دع الدماغ يحلم نائماً أو منتبهاً ، ولكن متى انعدلَ الليلُ راجعاً الى مآبهِ واستدار النصفُ المضيء من الكرة فلا تجعل حُلمَ الرأس الذي هو أداةُ الخيال سبباً في عذاب الحواس التي هي أدواتُ الواقع . واقطع من نفسك أسباب المَطْمَعَة الخيالية تجدْ كل شيء قارّاً في موضعه لا ينحرف ولا يضطرب ولا يتمامل ؛ وتذهب أحلامُ النوم في النوم وتأتي حقائق اليقَظة مع اليقظة وكنا في انتظارها فلا يفْجأنا منها شيء . انك ربما تأتي في أحلامك مالا يُسوِّغهُ عذر ، وترى وتسمع ما لا وجود له ، وتجد متنزَّهاً من أمور ليس فيها متنزَّع ، وتموُجُ بك العوالمُ كلها وأنت ساكن في نومك مستثقلٌ حتى على الحركة الضعيفة . وحسبُكَ بعضْ هذا في الدلالة على أن الدماغ لا يَسْكُنُ الى نَزَوَاته عاقل لانه مصنعُ المستحيلات كما هو مصنع الممكنات

« * »

آه يا عزيزي لو رأيت كيف تختلط المعاني بأنفاس

شفتيها وكيف تُقبَل عليك ألفاظها وفيها من اللطف واللين والرفة وألوان النفْس اكثر مما في خدي عذراء سافرةٍ بين عشاقها لا يفارقها الحياء من الالحاظ ولا تفارقها الألحاظ . إنها لتُميتُ داءَ الصدر من الوساوس والشهوات اذا هي كلمتك بتلك اللغة القلبية التي تمحق حواسك مَحْقاً ان كنتَ رجلاً كريم النفس ؛ واذا هي استسلمتْ بكلماتها اليك ولكن في حِماية ضميرك . تُسمعك صوتَ ضعفها ملتجئاً الى قوتك وكأنها تقول لك إن نصفَ كلامي هو هذا والنصف الآخر هو ثقتي بشرفك

في المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلاً وتخلِجهُ عن كل ما في دنياه كما تَخْلِجهُ المَنِية عن الدنيا ؛ وليس فيها شيء واحد ينقذه منها اذا أحبها ، بل تأتيه الفِتنةُ من كل ما يُعلِنُ وما يُضمِر ومن كل ما يَرى وما يسمع ومن كل ما يُريد وما لا يريد ؛ وتأتيه كالريح لو جَهَدَ جُهْدَه ما أمسك من مَجْراها ولا أرسل. ولكن في الرجل شيئاً يُنقذ المرأة منه وإن هلك بحبها وإن هدمتْ عيناها

من حَافَاته وجوانبه. فيه الرُّجُولة اذا كان شهماً، وفيه الضمير اذا كان شريفاً ، وفيه الدمُ اذا كان كريماً . فوالذي نفسي بيده لا تَعُوذُ المرأةُ بشيء من ذلك ساعةَ تُجَنُّ عواطفه وَينْفِرُ طائر حِلمه من صدره إلا عاذَتْ والله بمَعاذٍ يَحميها ويَعْصِمُها ويَمدُّ على طهارتها جناحَ مَلك من الملائكة

الرجولةُ والضميرُ والدمُ الكريم : ثلاثة اذا اجتمعن في عاشق هلك بثلاث : بتسليط الحبيبة عليه وهو الهلاك الأصغر ؛ ثم فِتنته بها فتنةً لا تَهدأ وهو الهلاكُ الأوسط؛ ثم انقاذها منه وهو الهلاكُ الأكبر ... ألاَ إن شرفَ الهلاك خير من نذالة الحياة



الرسالة التاسعة

﴿ القلب الكريم المتألم ﴾

إن رسائلي اليك أيها العزيز لَتَنْتَزِعُ مني دواعيَ هذا الصدر المحزون[١] فانها كفيْضَةِ المَلآن[٢] ولكني أراها لا تذهبُ بهمّ أستريح اليه ، الا رجعت بهمّ ألتوي عليه ؛ وقد يكون بعضُ العَزَاء عن المصيبة تفنُّناً من المصيبة نفسها ؛ كدمعة من يَرْثى لك من النكبة يجيئك بها تعزيةً ولها على نفسك الأبيَّة غَمْزٌ مؤلم قد يكون أشدَّ من ابتسامة العدو الذي يشمت بك

أكتب اليك في أحزاني اضطراراً أيها الصديق فانت الجسم الثاني لروحي وقد هدم ذلك الحب صورتي الأولى فسكنتُ منك لصورتي الثانية . وما أعجب رحمةَ الله اذ تحيلُ كل همٍ في هذا الانسان الضعيف الى قوة

---

(١) أسباب الضجر ونحوها (٢) الملآن يفيض فيخف ما به

تبعثه على التماس العطف والرقة من كل النواحي الانسانية ؛ كأن في النفس بجانب كل شيطان مَلَكاً ان لم يستطع تحويلَ الشر الى خير أخرج منه نَزْعَةً من نزَعات الخير

واهاً لهذا القلب الذي أحمله فانما هو عقلٌ فيلسوف خُلق على شكل القلوب ؛ فهو يأتيني من كل شيء بشيء غيره حتى تلك التي أحبها جاءني منها بهذه التي أُبغضُها وبقي مع ذلك يتفلسفُ في حبها . . . ولكنه قلبٌ جليل سامي النَزْعة قارٌّ كالصبر مجتمعٌ كالايمان ؛ يقول لكل حاسة أو عاطفة أرادت أن تتهضَّم فيَّ أو تستذلَّ : ياسَرْحَةَ الوادي لا يزال هناك جبلٌ لا ينحني لعاصفتك

قلب لا أدري أوهبني الله له أم وهبه لي فهوَ مثارُ الألم ومهبط الرحمة جميعاً . ولقد ورد في أثر من الآثار إن العبد اذا دعا لانسان قد اشتدَّ بلاؤُه فقال اللهم ارحمه ؛ يقول الله كيف أرحمُه من شيء به أرحمُه . وكيف يرحمني الله من هذا القلب وقد رحمني به في ذات نفسي ؟

إنما علة البلاء من ناحيتنا نحن، ثم من هذه الجهة الفانية

جهةِ الجسم الذي يَستَيقِن انه يعيش ليموت وهو مع ذلك
يقبل المقدَّمات وحدها ويحاول دائماً أن يَفِرَّ من نتائجها
كأن النتيجة ليست في المقدَّمة والآخرةَ ليست في الاولى؛
أما تلك الناحية الخالدة ناحية الروح فهى كما قيل في شجرة
الصندل: تعطِّر الفأس التي تضربها وتحطِمُ فيها

هذا القلب هو سر الجمال الانسانى لأن فيه بَرَكَةَ
النفس وزينتَها وسَكَنَها. فالبركة تنبت من الخُلق الطيب
والزينة تخرج من الفكر الجميل والسكَن يثبتُ بالايمان
واليقين؛ وما جمالُ النفس الانسانية الا خُلق وفكرة
وفضيلة مُؤْمِنَة

« * »

ما زلتُ منذ وَعيتُ كأنما أُفرِغُ في قلبي هذا قلوب
الناس بتوجُّعي لهم وحنانى عليهم، وكأنما أعيش في هذه
الارض عيش من وضع رِجْلاً في الدنيا ورجلاً في الآخرة؛
أحفظ الله فى خلقه لانى أحفظ في نفسي الرحمة لهم وان
كان فيهم من يُشبه في التَّلَفُّفِ على دَوَاهِيهِ باباً مقفلا

على مَغارَة مظلمة في ليل دامس . . وأتّقي طائلةَ قلوبهم[١] وألبسهم على تفصيلهم قصاراً وطوالاً كما خرجوا من شقّي المِقَصّ المجتمعين من الليل والنهار تحت مِسمار الشمس ؛ وأُصْدِرُهم من نفسي مَصْدَراً واحداً لأني أعلم أن ميزان الله الذي يَشيلُ ويَرْجَحُ بالخفيف والثقيل ليس في يدي فلا استخفُّ ولا أستثقل ، وأعرفُ أن الفضيلة ليست شيئاً في نفسها وانما هي بالاعتبار فلا أدري ان كانت عند الله في فلان الذي يَحَقِّر الناسَ أو فلان الذي يحقِّره النـاس . وليس من طبعي أن اتصفَّح على الخَلْق[٢] فان من وضع نفسه هذا الموضع هلك بالناس ولا يَحْيَوْن به وتَعَقَّدوا في صدره كما يَتَعَقَّد المـاء العَذْبُ بالغُصَص المؤلمة ، ورَمَوْه بذنوبهم من حيثُ لا يُمَحِّصُ عنهم شيئاً[٣] . وقد خلقهم من عَلِمَهُمْ كيف يجيئون وكيف يذهبون ، وما تَقْذِفُ بطونُ الامهات في هـذه الارض الا تواريخَ كُتِبَتْ في

(١) كناية عن الحسد ونحوه (٢) تصفح على الناس التمس عيوبهم وفتش عنها (٣) محص الذنب بالتوبة محاه

الازل كما قدَّر الله ولما قضاه فمن استقامَ فعلى الخطّ الذي امتدَّ له ومن زَاغَ فللدائرة التي انحرف به محيطُها المائل من طَرَفيه إن سَفَلَ وإن علا

لقد أقمتُ من نفسي لهـذا الخَلْق جَبَلاً وان هذا الجبل ليتدحرجُ عليه الصخر الصَّلْدُ ويلصَق به الحصى المسنونُ وينغرزُ فيه الشوكُ الدامي وتنبتُ منه الفروعُ المُرَّة وترسو بين أطباقه العُروقُ الضاربة ؛ ولكنه على ذلك جَبَلٌ وهو بذلك أتم رَوعةً ورهبة . ولكل شيء مما عددتُ معنى في نفسه ، ولكلها مجتمعةً وحدها معنى آخر ولجميعها مُبَعْثرَةً يتَخَطَّى المعنيَيْن في الجبل معنى ثالث

فما أضيقُ بالناس ولا أتبرَّمُ (١) ولي ابداً مع الضعفاء والأقوياء سَفْحٌ ظليل مُخْضَرٌّ وقِمَّةٌ عالية (٢) مُتَمَرِّدة ؛ واني على ما وصفتُ لأرى في أعماق هـذا الطَّوْد الراسي بركانا يتزلزلُ به كلما اضطرمَ جاحِمُهُ . ذائبا في الاغوار

(١) اتضجر وبرم بالشيء (بكسر الراء) وتبرم (٢) السفح من معانيه اسفل الجبل

البعيدة تُمْسِكُهُ الارض امساك المزيمة وتَشُدُّ عليه شدة الصبر على أنه لَجُجٌ من النار ؛ فترى الطَّود الشامخ قائما على الارض كأنه أرض مستقلة وفي جوفه ما يَحْطِمُه مما يَمور ويضطرب (١)

وكأني إذ لا احاسب الناس أحاسب نفسي بكل ذنوبهم الي فأفجرُ عروقَ دمي عليهم ، وكأن ذلك الكمال الانساني الذي لا يزال بعيداً عني يحاول أن يقتلعني من اساسي لأثب اليه في اقاصي عُلوِّه

ان النملة من النمل لتخاف على قَرْيتها من قَدَم الطفل الرضيع ما نخاف نحن على كرة الارض من أكبر نجوم السماء متى خشينا أن يتنفس عليها فيرسلها زَفْرَةً في صدر الأبد . وكم بين قرية النمل وبين كرة الارض ؛ وأين وطأة الرضيع من صَدْمة النجم ؟ ولكن كل شيء فانما هو باعتباره في نفسه وباعتباره لنفسه ؛ ألا وإن الزلزلة التي يُضْرَبُ بها ذلك الجبلُ القائم من نفسي انما هي رِقَّةُ الحبّ

(١) يسيل ويغلي

« * »

وان تَعْجَبْ فعَجَبٌ ما ترى أن هذا القلب الانسانى لا يُصبِحُ هَشيمةً (١) في جنبي صاحبه يأخذُ الناس منه ويدعون كيف شاؤا الا اذا أنبت الله صاحبَه المسكين من نَبْعَةٍ باسقةٍ في مَغْرِسٍ طيّبٍ (٢) واخرجه فى صيغة كريمة واودع فى اعصابه ميراثاً سامياً من الدم . ولقد تجد هذا الرجل الكريمَ ملءَ ذكائه دَهَاءً و نُكْرًا (٣) و نَفاذاً فى أعضل الامور يَنقَعُ فى الحوادث فِكرَهُ كما ينقع الثعبان نابَهُ المسموم ، وقد تجده فى بدنه شديدَ الفحلَةِ معصوبا عَصْباً كأنه من عَضَلاته فى لفائف الحديد (٤) ، ولكنك تجد قلبه شيئاً غير هذا كله ، لا يُسْرِعُ إلا فى هدمه ولا يتركه يدور كما يدور غيره على الخطوط والأضلاع الطويلة

(١) مهشوماً محطماً وفلان هشيمة الناس وهشيمة كرم يأخذه الناس كيف يشاؤن لانطباعه على الكرم والسهولة (٢) المراد بكل ذلك كرم الاصل (٣) أي سياسة ومكرا (٤) الفحلة هيئة الفحولة وقوتها في الرجل

من زوايا الحياة بل ينفذ به الى الهموم من أَقطارها على استقامة . فما أسرع ما يتهدَّمُ وتَتَقَصَّفُ سنُّه بعضُها على بعض [(١)] وربما كان فى الاربعين فلا ترى إلا ان العمر يخَيِّطُ فى ثوب همه بأربعين إبرة

بهذا القلب رأيتُنى كلما كبرتُ صَغُرَتِ الدنيا فى عينىَّ وكلما تقدمتُ دانيتُ أطرافَها العليا فأصبحتُ أشعر حقا أن هذا العمر انما هو سُلَّم الى السماء لا الى غيرها ؛ ومن هذا القلب اعتادت بعضُ سُفُن الاقدار أن تجد فيه حلْقَة ثابتةً متينة تَشدُّ اليها حبالها اذا هي أرست على شاطيء الدهر بأحمالها . فالناس يتناولون منها خِفَافا وثِقَالا ولكن الحلقة المعذبة لا عمل لها الا أن تهتز وترتجَّ من الالم والشدة والعنف

وفى هذا القلب أعرف موضعَ كل شيء الا نفسي فما أدرى أهو من الضَّعَة بحيث صارت فوق أن تنزل فيه أم هو من السموّ بحيث صار نفساً وحدها ؟ ولكنه على

---

(١) تمر أيامه مسرعة

الحالين أشقاني بهذه النفس وطوّح بي وبها في مهَاوي الاحزان الى قرار بعيد

« * »

في قلب كل إنسان معنى من الأزل لانه كان ذَرَّةً في يد الله ، بَيْدَ أن هذه الذرّة تُمْحَقُ في بعض الناس أنواعاً من المحق ، فتصيبُ الرجالَ وانه لعظيم جليل ولكنه في ميزان الله لا يَعْدِل مِثْقالَ ذرة من حَسَنَةٍ من رجلٍ حقير ؛ وتَرْبُو في بعض الناس وتَتَنَفَّخُ فاذا هي في وزن الجبل الراسخ بأَعضاده (١) المترامي بنواحيه ؛ فيا قلبي المسكين ما أنتَ منهما ؛ لقد تعذبتُ بك طويلا وتقلّدتُ منكَ بَلِيّتي فما تَغمِزُ بعِلَلِكَ ونَزَعَاتك الا في صَمِيم الروح غمزاً كوَخْز الإبَر ، ولا تَضربُ عروقي التي تَستَقي منك الا على ألم تأتيني به إذ كنتَ لا ترميني الا بشرّ ماتجدُ من هموم الناس ؛ واذ ترى أن درس الشر والآلام انما هو عنصر الفلسفة الأسمى وانما هو الفضيلةُ المنحلّة لمن يريد أن يعلم

(١) التلال المحيطة به

ويرى كيف تتألف أجزاء الفضيلة فى باطنها . فأنت تَنْتَشِطُ [١] الحزنَ من كل شيء وتأتينى به لأتحزّن وأتألم فألمس بالحزن والالم مصراعي باب السماء . وأنت تبسط عليّ رُوَاقَ المعانى المظلمة من الآلام والاحزان لارى فى ظلماتها أشعة روحي المضيئة بالايمان والرضا

رضيتُ ياقلبي المسكين أن تجتمع من حُطَامي المتناثرة وان تكون سَوِيّاً تامًّا وأكون أنا الجسمَ الحيوانى أشْلاءً وبَقَايا [٢] ، فانى رأيتُ شرَّ أهل الدنيا ذلك الذي هو أهنأُهم بمَتَاعها حتى كأنه فى شهواته ولذاته لم يجتمع الا من حُطام قلبه المتبدد . الشهوات واللذات تبنى عالمًا والآلامُ والاحزان تبنى عالمًا آخر وهما يتجاوران كما يلتصق حائط الليل بحائط النهار ، وانت ياقلبي المتألم لا تُشْرِفُ على العالم الأول الا مايشرف النظر العالى من البعيد البعيد لانك طَوْدٌ باذخ رسختْ جذوره فى العالم الثانى

ان الابرَةَ المغْنَطَةَ [٣] التي تَهدي السُّفُنَ باتجاهها هي

(١) تختطف (٢) الأشلاء الاجزاء المقطعه (٣) البوصلة

القلب الذى تحمل فيه السفينة روح الارض ؛ والقلب الانسانى هو كتلك الابرة غير انه يحمل روح السماء . ولولا حاسة الاتجاه الالهي فيه لتمزقتْ علينا جهاتُ الارض [١] فى انفسنا فَضَلَلْنا فيها وارتبكنا فى فُتُوقها الواسعة حتى لا يهتدي إنسان الى الجهة الانسانية . ولكننا نتغافل عن هذه الحاسة فيه وترى اكثر الناس لا يُقبلون بأنفسهم الا على جهة أجسامهم ويَطْوِي احدهم الدهرَ الفسيحَ من عمره وما ارتفع قليلا ولا كثيرا بل يكون كالطير في قفصه يتخبط بين أرض وسماء ، وما بين سمائه وارضه الا علو ذراع ... وان أشد ما كانت الحياة واشدَّ ماهى كائنة على من لا يجد لذة قلبه فيها ؛ وأصعب ماتكون الانسانية على من يعظُم بحيوانيته وَحَسْبُ [٢] ؛ فتراه وكأن مئة حمار ركِّبت منه فى حمار واحد ولكنه حمار عظيم ...

وما رأيت قلبي يلتمس لذةً من بعد إيمانه الا فى

(١) كناية عن الشهوات الحيوانية (٢) أى فقط ، وقد عم استعمال هذه الكلمة وكنا أول من استخرجها وأذاعها

ثلاث: الفكر الانساني الذى يهبط فى أدمغة الفلاسفة والشعراء من أعلى السموات أو ينبع من أغوار النفس؛ والفكر الطبيعي الذى يملأ السماء والارض نورا وألوانا وجمالا ؛ والفكر الروحي الذى يتلألأ لخيالى فى عيني الحبيبة الجميلة.



الرسالة العاشرة

لقد وصفتها لك ايها العزيز وملأتُ رسائلي منها ؛ غير أنى والله ما أدرى أوصفتُها أم وصفتُ بها ، وكتبتُ منها أم كتبتُ عنها ، فانما ذلك مَطْلَبٌ دونه أن تجعل وصفَ الجَمْر يلذع لَذْعَ الجمر ؛ ومهما أكتبْ فانها باقية في نفسي لا تنقصُ على قدر ما تزيد . . . إن فيها شيئين هما الفكرُ والجمال وفيَّ شيئان هما الخيال والحب ؛ وهذه الأربعة تُنْشِئُها في نفسى خَلْقاً بديعاً لم أره لامرأة قطّ ؛ ففيها وحدها زيادة عن النساء لان فيها وحدها نفسى

أما سمعتَ بذلك الأعرابي الذي قيل له ما بَلَغَ من حبك لفلانة : فقال والله إني لأرى الشمسَ على حائطها أحسنَ منها على حيطان جيرانها . . . . قد والله صدَقَ وبَرَّتْ يمينهُ فان فى كلماته الشعرية لا ثرا من عينيه إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على البلَّور الصافي لا على الحجَر والمَدَر ؛ فهناك أشعةٌ أخرى من تلك التي وراء الحائط تنفذ الى قلب هذا المسكين فاذا هي سَطَعَتْ لخياله في نور

الشمس أضافت الى النور ألواناً مختلفة من ذلك المعنى الجميل الحيّ فلا تكون الشمس فى عينيه أحسَن مما هي وقتئذ ولو أنها طلعت على حائط من اللؤلؤ

ليس الجمال ما يَعلَم الكاتب أو يدرسه الفيلسوف ولا هو مذهبٌ من مذاهب التلفيق في الجمل والألفاظ ولا هو كما صنع علماء الرياضيات الذين جعلوا الفَلَكَ كلَّه بألوانه وجماله وما فيه من غموض الا بد مسئلةً حسابية . . . . والارضَ بما انبسط عليها من جمال الطبيعة مسئلة هندسية . . . كأن الازل كله خطوطٌ وزوايا وأرقام ؛ وتركوا جانباً حركةَ الفكر الأعظم القائم بالارادة الازلية ؛ وهي التي تُطالِعُ العقلَ من كل شيء بمعنى والخيالَ بمعنى آخر ثم تكون هي في حقيقتها المجهولة معنى ثالثاً . ولكنك مع ذلك واجدٌ في الارض من يَتَسَكَّع ويحملُ الشمعةَ ليفتّش في ضوئها على النجم العظيم . . . .

« * »

لو أنى سُئِلتُ تسميةً لعلم الجمال لسميتُه « علم تجديد

النفس » فان الجميل الذى لا يجدد بمعانيه حواسك وعواطفك ويُعيدها غَضَّةً طَرِيَّةً كما فُطِرتْ من قبلُ ؛ لا يُسمى جميلا إلا على المَجاز الذى سمَّى به أحد القواد كتابه في الصنَّاع الفقراء : (غَزْو الخبز) . . . لا تَسَل عن الجمال من يُحسن الفكرَ والإبانةَ عن فكره ، ولكن سل عاشقاً يُحسن الشعورَ والتعبير عن شعوره ؛ فذلك هو الشاعر من جهاته الأربع : جهة قلبه وفكره وحوادثه وحبيبته ، وذلك هو تاريخ الجمال الذي يتكرر على الأرض أبدا والى منْقطَعِ الحياة في صورة واحدة كالحياة نفسها

ألاَ ما أتعبَ الانسان بحياته وموته ؛ إن هذه الحياة مصيبةٌ كُتبت على الأرواح لإيجاد عيوبها في عالَم العيوب ، والموت مصيبةٌ كُتبتْ عليها لنقل هذه العيوب معها الى العالَم الآخر ؛ فما عسى أن يكون الجمال والحب الا تخفيفاً من مصيبتين أو . . أو زيادة فيهما ؟

سأحدثك عن هذا الجمال كما أَوحته الي عواطفي التي ما تزالُ تَدْأَبُ لا تأْتلي كالنحل على الأزهار والألوان ،

وكما رأيته في تلك الحقائق الساحرة التي كانت تفيض بمعانيها على الجميلة فتكسبها غرابةَ الجمال وتمثّلها لعينيّ في ثلاثة ألوان : لونٌ من وجهها ولونٌ من دمها ولونٌ من قلبي .
سأنثر لك الجميلة وأسرارَ جمالها وتأثير جمالها نثراً ألّفني والله قبل أن أؤلفه ، وما صعد الى فكري وانحدر من قامي الا بعد أن وَفَدَتْ عليه الجَمَراتُ الحُمْر فغَلَى في القلب وتبخّر واندفع وطار اليك في كلام كالندى على الورق الأخضر

« * »

إن في نفس هذا الانسان أعماقاً بعيدةً تنحدر أغوارُها من مَهْوًى الى مَهْوًى الى مالا نعلم لأن النفس ما بَرِحَت جزءاً من الأزل كبعض النور من النور ، ينفصل عنه وهو مُسْتَقِرٌّ فيه

وقد نَثَرَ الله في أعماق الفضاء هذه المصابيحَ المتّقدة التي اهتدى في ضوئها الفكرُ الانساني الى شيء من الادراك الاسمَى ؛ من ذلك النور الذى يشتعلُ ويَتَوهَّج

في أقطار السموات كلها . وكما ترى فى أعماق الفضاء ترى في أغوار النفس ، فلا بدَّ لهذه مما لابدَّ منه لتلك من معانى النور الالهىّ ؛ فالكوكب يُضيءُ فى أعماق الفضاء والوجهُ الجميل يضيء فى أعماق النفس

ألم ترَ الى المحب الذى أدنفَهُ الحب كيف يشعر أنه متصل بالنور الأزلى من الحسن الذى يعشقه ؛ وكيف يرى فى أطواء نفسه أخفى الوساوسِ وأدقَّها كأنها مكشوفةٌ لعينه على الضوء ؛ وكيف يظَلُّ أبدا فى حبه كأنما يبحثُ فى الأرض عما ليس فى الارض . ويحاولُ أن يجدَ فى قلبه مالا يُخْلق فى القلب ، وكأنه وحده الذى يعلم من نفسه أن فوق كل طبقة طبقةً أعلى وتحت كل عُمْق عمقاً أسفلَ ، فلا يَقْنعُ بشِيء لامن عاليها ولا من سافلها ؟ وانظر كيف يجعله حبُّه العظيم يرى العالَم كلَّه صغيرا حقيرا ، واذا اتفقت له ساعةٌ من حبيبته رآها عجيبةً كأنها ليست من الحياة أو ليست الا الحياة ؛ فهل وَسِعَتْ نفسُه من الحب شيئا لاسبيل لأن يُقاسَ معنى العالَمِ به ؛ أم صارت

أعماقُها تطاوِلُ أعماق الفضاء ؛ فهو بالحب كائنٌ فيما حوله وما حوله كائن فيه ؟

« * »

لا أرى سرَّ الجمال الا أنه شيء حقيقي من تلك القوة السماوية التى نسميها الجاذبية ؛ فكأن الله حين يُبْدِع الجميل يُرسِل فى دمه مع الذرَّة الانسانية ذرةً من مادة الكواكب هي سرُّ عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التى لا يزال الجميلُ يُخضِعُ بها كما يُخضِعُ الفَلَكُ المُدار ، ويتسلّط على عاشقه كما تتسلَّط الأقدار ، ويَبُثُّ فى الدم الانسانيّ مع مادة الدم مادَّةً من النار

وما أساليبُ الدلال أو ما نراه دلالاً فى الجميل المعشوق الا اضطرابُ تلك الذرة من سكونها ؛ فانها متى تحركت للجاذبية جعلت الجميل يتلألأ من كل جهاته وانبعثت فى كل ناحية منه نورا فوضعت لكل شيء فيه معنى من المعانى الخيالية إذ هى معنى كل شيء فيه

ولو أنك سألتَ عاشقاً أن يُصادِمَ من يحبُّ ويتّسعُ

لهجرها ونَبْذها ويتجَافى عن هواها لكانت عاقبة ذلك فى نفسه ويقينه مايعلم من العاقبة فى مصادمة الأَرض لكوكب من الكواكب ، إذ يتحطَّم ولا يُغْنِي شيئًا فى تعطيل قوة الجذب المُنْصَبَّةِ من قمره الجميل على كُرة قلبه الضعيفة

وكما نجدُ للكواكب فى نظام السماء نعرفُ نَحْواً من ذلك لكواكب الجمال فى نظام النفس ، فليس كل ظريف جميل يَجْذِبُ حسنُهُ فى كل دائرة على ماشاء وشاء الهوى ، والا فسدت الارضُ وأصبح الجنسان فيها كحجَري الطاحون لاعملَ للاعلى الا أن يطحنَ على الاسفل ....

بل إن لكل جميل فَلَكاً لاتَعْدُوه قوة جذبه فاذا هي تخَطَّتْه الى فلكٍ غيره بطل عملها أو عَمِلتْ على ضعف أو وقعتْ ثَمَّ موقعَ صوت القنبلة ، يخرج منها وليس فيه شيءٌ منها . ذلك بأن الله قد سلَّط على هذه الارواح السماوية موادَّ مختلفةً من ثقل الارض لا تبرح تُدَافِعُ تلك المادةَ من جاذبية السماء فإمَّا أبطلتْها وإما كسرتْ من حِدَّتِهَا وإما أضعفتها وإما طمستْ عليها ، ما لم تكن النفسانِ

العاشقةُ والمعشوقةُ من فَلك واحد في القَدَر الجاري عليهما

فلو أن أُرقَّ من غمَزَ الحبُّ على قلبه من الشعراء الذين يجعلون الكلمة الواحدة كلاماً طويلاً ، يحدّثك يوماً عن تلك الجميلة التي كَلِفَ بها وَاخْتبَلَتْه بحبها(١) فأرسلته على وجهه في كل مذهب من مذاهب الهوى ؛ ثم يَتَفَتَّحُ لك في صفتِها بكل ما تَخَيَّلَ حِسهُ وأُحسَّ خياله فيفْرِغها في القالَب الذي لم يَخلق الله فيه امرأةً قط ، ويصبُّها لعينيك مُمَثَّلَةً من النور السماويّ المَحْض تُضيء كلُّ قطرة منه وجهَ مَلَك من الملائكة ؛ ثم يَجري كلامُه فيها شعراً خالداً مُطَّرِداً كنهر الكَوْثَر في رياض الجنة حافتاه من ذهب ومَجْراه على الدُّرّ والياقوت ؛ ثم يتفق لك بعدُ أن تراها وتجلس اليها وتُطارحها واستَ من فَلَكها الذي تعمل فيه جاذبيتُها . إذَن لرأيتَه قد غار من أوصافها في بئر من الكذب وتعلَّق في الحديث عن جمالها بخيوط من الباطل ونزل من الحقيقة التي كان يذكرها لك منزلةَ المُفلس يَظَلّ

(١) اصابته بالخبل والجنون

متسكعاً فارغاً يُتبِعُ نفسَه هواها وَيتَمَنَّى الامانيَّ ولا حقيقة . ولرأيته كالعنكبوتِ تقضي الأيام الطويلة في نصب أشراكها وحبائلها لأجمل ظبية في عينها . . . . ثم لا تكون ظبيتُها الا ذُبابة . وتردُّ عليه سوادَ أمره وبياضَه كذباً وزُوراً وتتّهم ذوقَه وتُهجّن طبعَه وتتّقي عليه أن يكون قد تخبَّطَه مَسٌّ من الشيطان ؛ وأنت على ذلك مستيقن أنك تكلمه فيها بأصحّ لفظ وأوضح معنى وأصدق نصيحة وانك تُلقي في اذنه براهينَ المنطق وحُجَجَ الفلاسفة وتصحّح له خطأه في رائحة الزهرة بالزهرة نفسها تقول له ها هي ذِهِ في ريّاها ونسيمها فأين ما زعمتَ لها ؛ على انه هو في كل ذلك لا يراك الا كالأقطع الذي يقدّرُ قياسَ الباع الطويل ببقايا ذراعيه . والمُقعَد الذي يضبط قياسَ الخُطوة الفسيحة بعد رجليه ، والأعمى الذي يُفاضِل بين لونين ، ويكذّب في رأيه ذا العينين ، ويراك مجنوناً فاسدَ العقل أو سخيفاً فاسد الذوق او احمق فاسد الرأى : وما بك ولا به بأسٌ غير انك تنظر مُدْبراً وينظر مُقبِلا ، وتهزأ بتيّار البحر

لان قدميك فى الشاطىء ويرهبُه هو لانه مندفع فيه منخلعُ القلب من فَوَرَانه وهَديره . وأنت تروي فيما وصفتَ لهُ بلسانك عن عينك عن هـذه المرأة ؛ وهو يروي فيما صوّر لك بالسنَد الطويل : بلسانه عن عينه عن خياله عن آماله عن قلبه عن روحه عن القَدَر المحتوم عن هذه الحبيبة . وأنت في نفسك كانما تنظر من الأرض الى النجم فلا تراه بعلم ولا يقين ؛ وهو في نفسه انما ينظر من فَلَك النجم الى النجم ذاته فاذا الكوكبُ ماهو . واذا فَضَاءٌ واسع من النار وجوٌّ عميق من المغناطيس ومَظْهَرٌ من القدرة العظمى جمالُه في هيبته وهيبتُه في قوته وقوتُه في جماله فهو شيءٌ واحد بعضُه من بعض

« * »

واذا رحم الله انساناً من هـذا الحب ومن التعلق بالجمال كَدَّر طينته وأغلظَ على نفسه بمواد ثقيلةٍ من هموم الحياة وأكدار العيش ؛ او افرَط عليه بآمال النفس وأطماع الحاسّة فيشغله بكل ذلك او بعضه ويَحُوطه منه بمثل

أكياس الرمل التي يتحصن وراءها المُقَاتِلةُ فلا تنفذُها الطائرات الحُمر(١) بل تنطفيء فيها، ويجعل له من دون العيون الذابلة والحاظها صدراً مُصفَّحا بما يَتَسَاقَطُ في داخله من جوانب نفسه وما يتصدّع من اركان قلبه بين الكَمَد والهمّ أو الامل والطمع أو الجهد والتعب او الثِقَل والغِلظة او غيرها من هزاهز العيش ودواهيه ؛ فتذهبُ سطوةُ الجمال في سطوة المادة ؛ و تُخضعُ الانسانَ قوةٌ بإفلاته من قوة اخرى ، ويُهْدَمُ من أعلاه ليُشَدّ بناؤهُ من أسفله

وما من أحد في الأرض يستقيم طبعهُ على الجمع بين همّ الحب وهم الحياة فان قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالى به إذ هما حقيقتان متدافعتان كتيَّاري الكهرباء ، لو أمكن شيء من المستحيل لما أمكن أن يَطَّردا في سلك واحد اطِّرادَهما في السلكين . فان لم تكن مَحَامِلُ هذا الجسد(٢) خفيفةً على النفس من جهات الفكر والهم والا انصَبَغَ الذوقُ فالتبست ألوانهُ وخالط بعضُها بعضاً

(١) الرصاص ونحوه (٢) اغراضه المادية الحيوانية التي تحمله

وضعفتْ موهبةُ التمييز بين المعاني المضيئة وصار الانسان همًّا كافياً لنفسه وعادت النفس همًّا كافياً لصاحبها فليس بينهما على ذلك موضعٌ لما ليس منهما . وتحُولُ مادةُ ذلك الهم بغِلظتها وجفائها بين السرّ المعشوق في الجمال والسر العاشق في الروح فلا يُدرك منهما شيءٌ شيئاً

فهذا الجمال إن شئتَ قدرةٌ لا قوة فيها ، وان شئتَ قوةٌ لا قدرة لها ؛ ولو أن الله جعلهُ مجموعاً من القوة والقدرة معاً لأبطل سُنَن الطبيعة الانسانية ولصار لكل انسان كونٌ وحدَه في القلب الذي يَرفُّ ليخفق على قلبه ؛ ووطنٌ على حِيَالِه في الجسم الذي يحنُّ لينضمَّ الى جسمه ؛ ودينٌ على حِدَةٍ يهبط الوحي فيه نَظَراتٍ من عينين الى عينين ، وقانونٌ مستقِلٌّ لا تكون موادُّه الا قبُلاتٍ من شفتين على شفتين . واعلم ان اشقى المخلوقات هم اولئك التعساء الذين يَشذّون في تاريخ الناس احياناً وينفردون دونهم بجنون الحب كما حدثوا عن (مجنون ليلَى) [1] إذ

---

(١) هو مجنون بني عامر الشهير واسمه قيس رحمه الله

يتسلط عليهم الجمالُ بضَرب ممتزج من القوة والقـدرة يَغْمُرُ الطاقةَ الانسانية ، ثم تجيء أقدار غريبة بين الرحمة والقسوة فتجذب الحب الى الحبّ ولـكنها تدفع المحبَ عن الحبيب ، فلا يزال الجمال يسوقهم سوقاً عنيفاً من ناره الى باب جنته ثم يَرُدهم عن باب الجنة الى النار حتى يصبح الواحد منهم بين العناصر والنواميس المنتظمة في هـذا الـكون الانساني كانه عنصرٌ مجنون او ناموسٌ مختلّ

((*))

إن هـذا الانسان وعاءٌ من الأوعية لا يملأه الا الأفـكار والنَّزَعات ومتى احتـلّ الفكرُ وتمدد . ثم ضرب فتمكّن . ثم غار بجـذوره وانْشَعَبَ بفروعه صبغَ الاشياء كلّها في عيني صاحبه بألوان منه حتى كأنه لا ينبعث في اشعة النظر الا ليلبس كلّ ما تنظره العين فلا يرى المرء فيما يرى الا صُوَراً من فـكره كما تنبعث اخيِلَةُ السيما (١) في انوارها على حائطها فاذا هو تاريخ

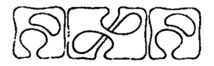
---

(١) خيالات السينماتوغراف

وحكاية وعمل وَحياة ٌ واذا هو هي على أنه حائط . ولم يخلق الله فيما أعرف غيرَ الحب فكراً يتمكَّن من الانسان ويضربُ الضَّرَبَات الثقيلة فيستطير في قلبه استطارةَ الصَّدْع الشادخ في لوح الزجاج ، يَشقُّه على مَدّ ما تتصل اليه حركتُه وَيثامُهُ على غير قاعدة من هنا وههنا وَيدَعُه فُلُولاً تَتَشَظَّي (١) وما هذا الحب الا فكرُ الجمال وأثر عمله في النفس ، إذ كان الجمال الفاتن لا يُخلَق على ذلك الأسلوب الذى هو عليه الا ليَستَحْوِذَ على التخيُّل والحس معاً ؛ فهو نوع من جَوْر الطبيعة على الانسان يجيءُ من اتصال أحسن ماظهر في شخص بأحسن ما كَمَنَ في شخص آخر ؛ وهو كذلك نوعٌ من استثارة هذه الطبيعة لكل مافي أعماق النفس الانسانية ببعض مافي أعماقها هي . فالعاشقُ مُقتَتَلٌ (٢) بأسلحة طبيعية منها كلُّ نظرة من حبيبه وكلَّ كلمة وكلُّ حركة وكلُّ مامسَّه أو اتصل به منه . وذلك لأن قوة طبيعية عجيبة تَنفِثُها رهبةُ السكون وتحصرها بين نفسه

(٢) بقايا تتفتت وتتناثر (٢) مقتول

ونفس حبيبته لتجعل منهما طريقي سَلْبها وايجابِها ؛ هـذه القوة هي الفكر ؛ هي ذلك الحب ؛ هي الكهرباء المتألفة من نفسين . ومثلُ ذلك بعينه في الضَّرب على قلب الانسان مايتملكُ هذا القلبَ من هموم الدنيا وشِدّات مصائبها . كِلاَ الفكرين قَتْلٌ من الطبيعة غير أنها في أحدهما باسمة وفي الآخر عابسة . تَقْتُلُ الانسانَ بما يُحب كما تقتله بما يكره وهما طريقتان لا تسلك غيرهما اذا أرادت أن تنفذ بقَدَر من الأقدار الماحقة الى باطن النفس لتترك هذا الانسان المعذَّب يُحِسُّ بغَمْزِ القُوَى الخَفِيَّة على فؤاده



*

الرسالة الحادية عشرة

تقول أيها الصديق : « ألاَ زدنى ثم زدنى فأن ليلك الحزينَ قد تفجَّر لك بصبح من تلك الشمس ، وان قلمك ليجمع أشعةَ النجوم ويصوّرمنها ذلك القمر ، وانك لأنت المحبُّ الذى يخرجُ من جنونه العقلُ الكامل . ولئن كانت تلك الحبيبةُ قد اخْتَلَجَتْ نفسَها (١) من يدك فما ذلك إلاّ أنها مَلَكٌ مدّ اليك جناحه وأمكنك منه ثم انفَلَتَ ليدَع في يدك الريشةَ السماوية التى تُصوِّرهُ بها »

كذلك كانت تقول هي : « أنا لا أخشى غضبَك فان غضبك عليّ لا يكون الا السحابةَ المُطَرَّزَةَ بخيوط البرق تهبط في ألوانها مُذَهَّبَةً وتُجَلْجِلُ بأجراسها من بعيد لانها تحمِلُ اليك مَلكَ الوحي الذى لا ينزل عادةً إلا في جوّ من البرق والرعد »

« * »

ما كثرت أمراضُ التأويل في شيء كثرتَها في تعرُّف

(١) انتزعت نفسها كناية عن الهجر

حقيقة الجمال ؛ على أن هذه الحقيقة لا تُستَخْرج إلا من الدم ؛ فلو فتّشت عليها السماء والارض فلسفةً لجئتَ فيها بملء السماء والارض كلاماً كذبا

الجمال في حقيقته التي لا تختلفُ انما هو معنًى من المعاني الحبيبة يَعْلَقُ بالنفس فيُحْدِث فكراً متمكناً تتطاوَعُ له هذه النفسُ العاشقة حتى ينطبع في أعصابها فيستوليَ على الانسان كله بجزء من عقله ؛ ومن ثَمّ يتقيّد المحب بقَيد لا فِكاكَ له إذ لا يجد ما ينتزُعه من عقله او ينتزعُ عقلَه منه إلا ان يموت او يُجَنّ ، وهو من ذلك المعنى مُحتَبَسٌ فى قُفْل لو ضَغَطَتْ عليه السمواتُ والارض لما تَسنّى ولا انكسر ، وليس الا الحبيبةُ وحدها هي فَتْحُهُ وإغلاقُه

بهذا يكون الجمالُ على مِقدار ما يُحسنُ الانسان أن يفهم منه ، ثم على مقدار ما يُؤَثّر من هذا الفهم ، ثم على مقدار ما يَثْبُتُ من هذا التأثير . وتلك هي درجاته الثلاث :

فجمالٌ تستحسنُه ، وآخر تعشقُه ، وجمالٌ تُجَنُّ به جنونا

والأول تجودُ به الطبيعةُ في أشياء كثيرة بل هو الأصل في الخَلْق ولكننا لا نتنَبَّه منه الا لما نجد فيه رَوْحاً على القلب ورقَّةً للنفس وترفيهاً لهما ؛ وهذا الجمال خاضع للانسان ومن ثَمَّ فلا سلطانَ له الا بعضُ الميل والرغبة في النفس ، ومنه كلُّ مناظر الطبيعة

والثاني تعلو به الطبيعةُ عن هذه الطبقة وتُنْزِله منزلة أعلاقِها وذَخائرها النفيسة وتتسلط به على بعض النظام الانساني كما تتسلط بهذا النظام على بعضه فيحبُّ الانسان ويسلو ، ويمرضُ بالحب ثم يصنعُ بيده دواءَ مرضه ويشربُ منه السُّلْوان والعافية .... إذ هو بإزاء الجمال الذي يتسلط من ناحيةٍ ويخضعُ من ناحية تقابلها

والثالث لا يَجده من يَجده الا مرة واحدة كما أنه لا يموت الا مرة واحدة ، وهو من خوَارِق الطبيعة التي كلُّ نظامها أن العقل لا يعرفُ لها نظاماً ؛ وما هو الا أن يصوِّبَ الانسان رأسه فاذا هو عند جنون الحب واذا هو بجنونه فوق العقل والمعقول

فالمرأةُ في عين محبها المَفتُون أجملُ من مَسَحَتْ يدُ الله على وجهها من النساء فتركت الأثَرَ الالهيَّ يتسلَّط في سحر عينيها ، وطَبَعَت المعنى الناريَّ يتلَهَّبُ في شعاع خدَّيها ، وأودعَت رَوْحَ الجنة أمانةً بين شَفَتَيها ؛ ووصلتْ بين الرحمة والنفوس بذلك النور المتلألىء في ثغْرها ؛ وبين النِّقْمة والقلوب بتلك النار المُسْتَعِرة من هَجْرِها ، وأضافتْ الى النواميس النافذةِ في الكَوْنِ فُتُورَ عينيها وتَنَهُّداتِ صدرها

ويراها المحبُّ فما يحسبُ الا أن قطعةً من السماء قد صارت ثوبا لجسمها ، وأن قدَراً من الأقدار قد نَشَأَ على الارض وسُمِّي باسْمِها ؛ واذا نظر اليها عَلِمَ بدلالة وجهها أنها من القمر ، واذا نَظرتْ هي اليه أعلمته بدلالة لحظها أنها من القَدَر

وتُسالِمهُ فيَحِلُّ سلامُ الدنيا كلِّها في قلبه ، وتُغاضِبُه فيقع في حرب هذه الحياةِ وتقع الحياةُ في حَرْبه ، واذا ضاقت الجميلةُ به ساعةً واحدةً لم يبق له بالعُمر استطاعة ،

واذا كان الهَرَمُ بالسنين الطويلة هَرِمَ في هجرها بالدقيقة والساعة

ويرى لو أن الجمالَ نفسهَ خُلق امرأةً لكانها ، ولو جادل احدٌ في المحاسن لجملتها المحاسنُ بُرْهَانَها ، فهي تُقْبِلُ بوجهها الفتَّان كما تُقْبِلُ السعادة بالأمل الوَسِيم ، وتختالُ بمعانيها النسائية كما تهبُّ روائح الازهار في النسيم ؛ رفَّافة على الحب كأنها خُلِقَتْ في جنة الحب رَيْحانَة ، مُسْكِرَةٌ للعاشقين كأن نهر الخمر في الجنة جعل فمها لهذا العاشق حَانَة ، صافيةٌ يَتَرَقْرَقُ في حسنها ماءُ دَلاَلِها ، وتُشْرِقُ بالقمر الأزهر من وجهها سماءُ جمالها ، ولا تُشْبِهُ الا نفسَها كما لا يُشْبِهها الا ما تبْدِي المرآةُ من خيالها

وَيغلو فيفسِّرُ النظرةَ منها تفسيرَ الفقيه المتكلِّم للآية ، ويقفُ عند الابتسامة وقوفَ السابق اذا فاز عند الغاية ، وينظر اليها في ثوبها ولكن كما ينظر القائدُ الى مجد وطنه في الراية ، ويسمعُ صمتَها كأنه كلامٌ بين نفسه وبينها ، ويَعي كلامَها فلا تدرى أأنْطَقَتْ به فمَها أم أنطقت به عينَها ؛ فهي بجملتها ليس

فيها من الحسن الا وَحْيٌ وتَنْزِيل ، وهو بجملته ليس فيه من الحب الا تفسيرٌ وتأويل ، ثم هي وحْدَها القاعدةُ العامَّةُ في الجمال وهو وحدَهُ البرهانُ والدليل

وتراه ينظر اليها ولكنه من سحر جمالها كأنه يتَوَهَّمُها ، ويَعْرِفُها ولكنه من سَطْوة جلالها كأنه لا يفْهمُها ؛ ثم تعلو فما يُشْرِقُ حسنُها عليه الا كالمعنى الازليّ من جانب في الغَيْب ، ثم تَعْظُمُ فلا يُدْرِكُ مافيها من الحقيقة السماوية الا على طريقة أهل الارض في إدراك الحقائق العُظمى بالإيمان والرَّيْب

« * »

تلك هي الحبيبةُ الجميلةُ لاتعرف ان كان الجمال في شخصها أو في الجزء المتَّصل منك بشخصها ، أو في الذي هو متَّصلٌ بك من شخصها . فهي جميلة من ناحيتك ومن ناحيتها ومما بينهما ؛ وهذا هو الذي يجعلها فوق الجمال الانساني بَطَبَقتين لا تسمو امرأة الى واحدة منهما ؛ ويجعلك ترى مافيها من الإبهام جمالاً لاتفسيرَ له ومافيها

من التفسير جمالاً مُبْهَماً ؛ فكأنها في كل ذلك دائرةٌ مرسومة من الفكر لا يَهديك البحث الى موضع طَرَفَيها ، وهي محيطةٌ بروحك من ثلاث جهات فلم يبق لك الا الجهةُ التى تتصل روحُك منها بيد الله . وهذا هوموضعُ التألُّهِ في الجمال المعشوق ، إذ لا يَدَعُك الحبُّ معه الا بين شيئين اثنين : الحبيبةِ والخالق

ألم تَرَ الى شعراء الدنيا وهم أنبياء الجمال الذين لا تتصل ملائكتُه بغيرهم ولا يَفْهمُ غيرُهم مايفهمون منها ؛ كيف يُشَبِّهون الحسن الرائع بكل مافي الخليقة من مظاهر الرَّوعة ، فيتناولون من الآفاق والسُحب والبروق والرعود ومن الشمس والقمر والنجوم والأفلاك ، ومن الخُلْدُ والجنة والنار ، ويأخذون من الجبال والبحار والأنهار ومن الرياض والأزهار ثم من الطير والوحش ثم من المعادن وأفْلاذِ الأرض ، ومن كل ما خَتَمَتْ عليه يدُ الله برَوعة أو طبعت عليه برَهْبة ؛ ويجمعون ذلك ثم يُفِيضُونه في أوصاف الجميلة وجمالها حتى لكأنها ذلك السرُّ الذي قام به

حسنُ الخليقة وحتى كأن الله لم يخلقها الا ليكون كلُّ شيءٍ فيها تفسيراً لشيءٍ مافي آيةٍ من آياته . وما ذلك بمبالغة من الشعراء ولكن أرواحهم الجميلةَ قد أُحيطَ بها من هـذا الجمال النسائى فأينما أَحَسُّوا رأوا له صلةً بإِحساسهم وضَرَب فى افئدتهم عِرْقٌ منه فانقَدَحَ له شعاعٌ يطير الى الفكر لانه بعضُ القوة الموَّجهة اليه من الروح المفكِّر

إن الجميلات إنما هُنَّ كوا كب الارض يَدُرْن في أفلاك القلوب ؛ ولستَ ترى فلكيًّا يرصُدُ نجومَ السماء الاولعينيه مِنْظَار تَكبَّر فيه الاشياء (١) أضعافاً الى أضعافها فيدنو بالبعيد ويَجْهَرُ بالخفيّ . وعاشقُ الجميلة حين يَهيم بها ويرصُدُ منها نجمَ خياله في فَلك أمانيه لايَلْبَثُ أن يرى الجمالَ قد جَسَّم فيه الحِسَّ وبَسَطَ له ضوءَ الفكر ، فاذا عينهُ في تكبير نجمة الارض كذلك المِنظار بعينه فى تكبير نجمة السماء ، واذا مِلْءُ العين حبيبُها

فيا كَبِدي مما ألاقي من الهوى ....

(١) اصطلحوا على تسميته بالمِرْقَب وهو التلسكوب

الرسالة الثانية عشرة

وهنا مَغَاصُ الدُّرَّة في لُجَجِ الحب فألقِ على نفسك قبل أن تقرأ هذه الرسالة معنى من رقَّة قلبي حتى تُواثِقَني على أنها لا تخرج من نفسي الا كما أُريد أن تتلقاها فلا أتَبَسَّطُ ولا أتسرَّحُ بكلامي هذا الا في مكان من نفسك

في موضع من شاطيء النيل نَدِيٌّ [1] فلان اليوناني وهو رجل في رقة المرأة ينهض في خدمة المحبين بفن من الذوق امتزج فيه ما تَقْتَحِمُه جُرْءَةُ العاشق بما يحتاجُ اليه حياءُ المعشوق ؛ فترى من رُقْعةِ نَدِيِّه طرازا أخضر مُفَوَّفًا [2] على ثوب الماء وفيه حَبْكٌ بديع من أغصان الشجر يَلُوحُ طرائقَ طَرائقَ وحُبُكاً حُبُكاً [3] كهذا الانكماش الذي تراه طرازا لأثواب الغانيات . وتجد في أطراف النديّ أشجاراً متعانقة كلٌّ لَفِيفٍ منها يبني بيتاً أخضر

(١) وضعناها للمكان الذي يسمونه (القهوة) وهي أحسن ما يؤدى معناها وليس أثقل من قول بعضهم (مشرب القهوه)

(٢) منقوش

(٣) الحبك جمع حباك والمحبوك الثوب الذي فيه هذا

ستائره من الأغصان المتدلية وجدرانه من الفروع المعروشة وكانما زخْرِفَ وطُلِي وفُضِّضَ وذُهِّب بألوان الظل والماء والسماء وما يتسحَّبُ فيها

وترى الناس يَسْتَكِفُّون (١) حولَ هـذه البيوت الخُضْر، ولـكنك اذا احتَجَزْتَ في عَرِيشٍ منها وكنتَ منفرداً أشعرك بكل المعاني أنك وحدك فلا تصلح للجلوس فيه؛ وتَساقَطَتْ عليك ظلالُه أرواحاً عنيفة تطردك طرداً ونالتك من كل ظل ثَقْلَةٌ (٢) لا تُحْتَمل كأنما تُناجيك أن هذه الاشجار التي تشبه الضلوع ما غُرِست الا لقلبٍ وكَبِد . . . وأن هذا البيت هو بيتُ الحب لا يَتَكَنَّنُ (٣) الا عاشقين . وهَدَتني قدماي يوماً الى ذلك النَّدِيِّ بعد أن ضربتُ ساعةً في بياض تلك الأرض وسوادها (٤) فملتُ اليه أُرِيحُ فيه من الإعياء والحر فاذا هو يهبط على نفسي بمعانيه واذا أنا من الطرب كبعض

(١) يستديرون (٢) كثقلة الطعام حين يثقل على المعدة
(٣) يحتوى (٤) عامرها وغامرها

شجرهِ أميل وأصفر وأتَنَغَّى . وأدرتُ عينيَّ فأبصرتُ في سَرَارَةِ المكان (١) شجَرَاتٍ يَدْعُونني فقمتُ اليهن وما هناك أحد غيري وغير الطير ، فاذا غَرْسٌ قد تَسَطَّحَ وآخرُ قد تَفَنَن (٢) وثالثٌ على ساقه كما تُقيم الخيمةَ وتَسْدِلُ عليها حجاباً من هنا وحجاباً من هناك . واذا رائحةٌ من نَفْح الحب وبقايا التنهد والتشاكي ما يَكْذِبُني الحِسُّ فيها أبداً فاستخفَّتني الأشواقُ وجعلت قلبي المتلهفَ ينتفض في علائقه كما يَنْزُو الفارس في السرج والجواد يَخُبُّ به ويعدو

« * »

ثم تَكَوَّر النهارُ على الليل والليلُ على النهار (٣) حتى أتت ساعةُ مَوْعِدِها بعد أن تقدمتْها حاشيةٌ عريضة من المواعيد المكذوبة والمعاذير الملفَّقة والكلام الذي لا تحلّ معانيه في الفاظه ابدا . . . . لانه لغةُ شفتيها

وكنا نمشي وقد انتفخ النهار (٤) وبدأت الهاجرةُ

---

(١) وسطه وسرته (٢) تفرع . والمتسطح الممتد على الارض
(٣) يمحق احدهما الآخر (٤) قبل الظهر بساعة فذلك انتفاخ النهار

ترتجلُ « معانيَها الذهبيةَ » في مدح الظل والماء والنسيم ؛ وقَلِقَ بنا ظَهْرُ الطريق لامْرٍ مَا فقالتْ وأبصرت الندي : نجوز الى تلك الواحة . وتحفّى بها المكانُ حين جاءته كان أرواحَ الاشجار تعرفها ، فهبَّ النسيم الراكد يجري وجعلت الاشجارُ يصفّق بعضُها لبعض حتى خُيِّل اليَّ أن هذه ملكة الطبيعة دخلت الى قصرها

ومشيتُ الى تلك العريشة بعينها فلما احتوتنا قلت هذا مجلس السلام [1] في هذا البيت . قالت وما باعثُ هذه الكلمة ؛ قلت ان كل شيء فيك ليتكلم من غير ان يضطرب به صوت ولقد يكون من بعض خواطري وخواطرك ما أسمع منه في قلبي صوتاً كصلْصلَة الدِّرع حين يقع عليها السيف وانك لاتدرين كيف أفهمك ؛ قالت فكيف ؛ قلت اني أفهمك سعادةً أخشى منها وأخافها فان السعادة ان لم تتحقق لا تضر الا في الحب فشَرُّ أنواع السعادة فيه تلك التي لا تتحقق. قالت فاذن أنت تخافني ؛ قلت ولكن ذلك ليس معناه أني

(١) هو ما يسمونه قاعة الاستقبال

أخافك بل معناه أني أرجوك

قالت وعلى هـذا يكون لقولك اني أرجوك معنى آخر ؟ قلت بل معانٍ عِدَّة منها أني . . قالت وماذا أفهم من أنى ؟ قلت أليس فيها ياء المتكلم ؟ فقالت وأي شيء في ياء المتكلم ؟ قلت بربك لا تتعنتي أليس فيها المتكلم نفسه . . . ؟ فضحكت وقالت ولكن ما معنى انك ترجونى ؟ قلت : إن النبات لا ينبت الا حيث يجد عناصرَ غذائه ، وروحي قد وجدت في جمالك كل عناصر الحب فنبتت فيها نَبْتَةٌ جديدة أخاف ان لا تتعهديها فتذوي ؛ ومن هذا الخوف أرجوك . .

وقلبي يخشى منكِ على ما فيه منكِ فان لكل شخص ظلاًّ ولكن هواك نقل ظلك الى قلبي كما تنقلهُ آلةُ التصوير ؛ فان غضبتِ وتحولتِ مزّق ظلك هـذا القلبَ ليغضب ويتحول ومن خوفي هذا أرجوكِ . .

وكل شيء فى عالَم الموت يموت ويُنْسى فاذا أنتِ نسيتني فهذا موتي عندك ، وكل من يحب الحياة يخاف الموت

فمن هذا الخوف أرجوكِ . .

وكلماتي هذه تخاف أن تحمليها مَحْمِلَ الجُرءة عليك

فهي كذلك من الخوف ترجوك . .

قالت أفليس في الحب الا الخوف ؟ قلت فيه الرجاء ولكنه هو الخوفُ بعينه. وللعرب خرافة جميلة في سُلَحْفَاة يسمونها « بِنْتَ طَبَق » فيزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحفُ وكلها بناتُها وكلها من جنسها ؛ ثم تبيض بيضة واحدة تَنْقَفُ عن حيَّة تأكل التسعة والتسعين كلها . . . قالت آه . قلت وآه فلو كان لي في حبك تسعةٌ وتسعون رجاءًا مائة الا واحداً ثم خوفٌ واحدٌ لمحاها كلها . فاسترسلتْ في إِطراقةٍ جميلة . ثم قالت : لقد جئتُ معي بالنسخة الانجليزية ، من ديوان « عمَر الخيَّام » ؛ إن هذا الشاعر ـ ونظرت الي باسمة ـ حبيبٌ الى قلبي وهو مني كالسعادة ان لم أطمع في نيلها لم أيأس من قربها ولا من الفكر فيها . كل قصيدة من قصائده تُنشىء فيَّ حباً جديداً ففي قلبي له أنواع كثيرة من الحب لا أدرى ما هي

ولا ما الفرقُ بين نوع منها ونوع منها ولكن كلُّها حب كلُّها حب . وهو نجم بعيد عني غير اني أراه ساطعاً وأعلم أن في قلبي دماً يحنُّ اليه وفي هذا الدم ينغمس شعاعُه الآتي من السماء ؛ هو حيث يكون وحيث يكن فهو في قلبي

قلت واذن فلا ينبغي (للخيَّام) أن يُسَلِّطَ الخوفَ على رجائه . . ؟ فتلألأ ثغرها ضحكا وقالت « الخيام » انما هو هذا الكتاب في هذا الجلد المذهب . قلت فأنا أستنزل روحه الينا فان فيَّ هذه القوة فلا بد له من ان يجيء

ثم أطرقتُ وجعلت ألمح ابتسامها حين أُدَوِّمُ عينيَّ[1] يَمْنَةً ويَسْرَةً ثم انتبهتُ ورميتُها بنظرة ارتاعت لها روعا ظاهراً وقلت إن روح الخيام تجيشُ فيَّ منذ الساعة وهو يسألك هل تحبينه ؟ قالت بلى ؛ ولكن على سائلنا أن نسأله ، فماذا يرى هو فيَّ ؟ قلت ان كل ما احتساه من الخمر فكان لذته في الدنيا يراه الآن قد خُلق جسما جميلاً رائع الجمال فهو يسكر منه ولكن سكر أهل الجنة في الجنة . قالت

---

(١) أديرهما وأقلبهما

أفلم ينس الخمر بعد ؛ قال « إلخيَّام » . . . وهل الكتاب الذي في يدك الا اسطر من شعاع الكؤوس . قالت والحبيبة الذي يذكرها فيه ؟ . فقال الخيام لو كانت مثلك لما ساغ لي ان اذكر معها الكأس، ولكني كنت أستجمع بها مناظر الجمال فان الطبيعة تتزين لعين الشاعر اذا رأت معه امرأة جميلة كأنها تغار . قالت إذن كان يريد الطبيعة لا الحبيبة . قال الخيَّام ـ بل أردتُ ان يكون موضعُ تأملي جميلا بالجمال وحبيباً بالحب وتوَخيَّتُ ان تكون فيه كل عناصر الهوى . ان المسجد لا يُبْنَى في أي الامكنة بل يُختار له المكانُ الذي فيه عنصُر الصلاح والمنفعة ، والمسجدُ نبات مغروس في تُربة خاصة تجمع عناصرَ الصلاة والتسبيح والتهليل . والخيَّام نباتٌ مغروس كذلك ولكن في الورود والرياحين والالحاظ وشعاع الخمر

قالت وهل يتقبّل الخيّام مني اذا سألته ابياتاً جديدة قال الخيام — لقد جئتِ بي الى الارض فان لم تُسَوِّغيني طباعَ اهل الارض في الحب والهوى والحنينِ لا استطيع

شيئا وان كان في وسعي ان اجعلَ كل شجرة في هذا المكان تُنشد قصيدةً خضراء بلغتها لا بلغتك

قالت بل اريد لغتنا فانى لا افهم منطقَ الشجر

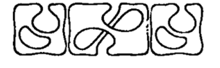
قال الخيام — فهاتى الديوان ، ثم جعل يزَمزِمُ زمزمةَ العجم[1] وقلب غلاف الديوان وكتب :

صُبَّ كأساً على الثرى فتراه
عاد قلباً يطيرُ فيه احتراقُ
يتَلَوَّى بها ويهتزُّ منها
إنه كان أكبُدًا تَشتاقُ
وَيْحَ من أسكرتْ إذا تُسكِرُ الكأ
سُ ويا ويحَهُمْ إذا ما أفاقُوا
تَنْسجُ النورَ والشعاعَ خيوطاً
كلُّ خيط للهمِّ منه وَثاقُ
وتُريني السماءَ في سعَةِ الصدْ
رِ وصَدْري بشمسها[2] آفاقُ

(١) صوت همهمتهم وهم يزمزمون عند الشمر وغيره
(٢) تشبه الخمر بالشمس

أحتَسيها كالفجر يُعقِبُ ليلاً
أو كليلٍ للفجر فيه انبثاقُ
هاتِها فهي في فَمِي قُبُلاتٌ
واصطدامُ الكؤس منها عِناقُ

وقرأت الابيات وأنا أترجرجُ كأن في الكرسي زلزلةً أو كأن فيّ روحا يضطرب ويتقلقل؛ فما انتهيت الى « القبلات والعناق » حتى انقلب الكرسي بي فاصطدمتُ بها ولم أقع ولكن ٠٠ آه ولكن وقع فمي على خدها وَجَعَلَنَا (الخيّام) كأسين في يديه فقرع كأساً بكأس ليسمع منهما في صوت القُبلة رنّةً مُسْكِرة ٠٠٠



*

الرسالة الثالثة عشرة

تلك ساعةٌ لاتَطْلُع عليّ ذكراها الا طلوعَ الفجر في نور وألوان ونسيم وندى ؛ فاذا أطـرقتُ فيها وتمثّلتُها رأيت ذلك الفجر يمتدُّ ويضطرم واذا الشمسُ قد بزغت منه تُطَوِّح بشعاعها من بعيد تحيةً للارض وأهلها ؛ ثم أُمْعِنُ فيها فترتفع وينْسَاحُ [1] ضـوءها واذا بتلك الفاتنة قد طلعت لي من الشمس ؛ واذا نحن على تلك الطريق ، واذا المـكانُ والزمانُ والسحر والجمال ؛ واذا نورُ وجهها قد نبع فيه الضوء الأحمـر من لون الحياء ؛ واذا هي واقفةٌ وعلى خدها القُبلةُ الاولى

لمستْ روحي روحَها ؛ ذلك هو معنى القبلة .ولـكنها وقفتْ ذابلة يُعْرَفُ فيها الحزنُ ، وكان في صدرها التنهد وكان في لحظها معناه ؛ أما لون التنهد فبقى على خدها

يالله ما كانت الا تمثالا يريني منها صورةَ الاطمئنان

---

(١) ينبسط شعاعها

الخائف، وما كنتُ بإزائها الا تمثالا آخر يريها مني صورةَ البراءة المتَّهمة . وكنت أقول لها منذ هُنَيهة إن الحب هو الخوف ، فعلمت أن من الخوف اشياءَ لاشيئا واحداً كلها من نَكد الحب : الخوفُ نفسهُ ثم رجاء ذهابه ثم خشيةُ قدومه ثم خوفٌ ليس فيك ولكنه في النفس التي تحبها ؛ والانسان حين يرجو الاقدار يشعر بها بعيدة عنه ولكنه حين يخافها يراها قد خالطتْه وكانما تَعتَلِجُ في جنبيه وتَعرُكُهُ بكل أثقالها . ليس ما يُخيفنا هو ما نخشاه في الحقيقة . انما هو قوة خَفيَّةٌ في الغيب تعترى القلبَ فتتناول مَنفَذ الحياة منه فتُرسل فيه ما تُرسل من الآلام الحكيمة كما ترى اللافظةَ من أنثى الطير حين تَزُقُّ فرخَها وعنقُه المرِنُ الغَضُّ ينتفضُ في مِنقارها ، وهو يكاد يختنق من طريقة إطعامه الحياة ؛ وكذلك نتناولُ من السماء حكمةَ الألَم

« * »

ولما تصرَّمتْ تلك الوَهلَةُ[1] التي اعترتْها مزَّقتُ بشفتي

(١) انكشفت الحيرة

ذلك الصمتَ الذي كان يغرز أنفاسي في قلبي كأن في كل نفَس إبرةً نافذة وأردتُ الكلام فجعلتُ أُجَمْجِمُ في عذري[1] وأرسل ما يحضُرني من نفس الشفتين المتهمّتين بالذنب ... وهي غافلة أو متغافلة لا تأْذَن لكلامي أن يمر بها . ثم نظرت فاذا في أجفانها دمعة تترقرق وتهم أن تنحدر. وكأنما لم أكن عرفت ظرَفَها ومزاحَها وميلَها الى النادرة وأنه لا يَسْرِي الهمَّ شيءٌ عندها كالكلمة الشاعرة وأن الجبل من جبال غيظها وغضبها تنسفه جملة مُفَرْقِعَةَ من الضحك ، وأسعدني طبعي الجريء الذي أنكرْته من يومئذ فلمع لعينيّ معنى جميل في دمعتها فأمسكتُ يدها وقلت : ان عذري اليك في اضطراب الكرسي بى وما تعمدتُ نِيّةَ وهذه يدي لكِ بأن حكمك فيّ نافذ اذا لم تنشر الصحف اليوم أو غداً :

« حدثت زلزلة خفيفة لم تُلحق ضرراً بأحد . . . »

فتدافعَتْ تتبسّم وغمَر وجهَهَا معنًى رقيقٌ كالنور

(١) أعتذر من غير تصريح

الذي يسطع من خلال سحابة كانت مجتمعةً ثم تسايرت تجرّ سوادها . واستتبعتُ فقلت : ذلك عهدي وأنا مرتهن بكلامي مأخوذ بأقوالي فهذا توقيعي عليها وأسرعت فقبلتُ يدها الجميلة . وحلّتْ هذه الجرأةُ عقدةَ صمتها فقالت : والعذر ذنب آخر ؟ قلت : فاذا كان ذنباً فان منه عذراً ثانياً . . . . . ولكنها أسرعت فاختلجتْ يدها وما تماسكتُ ضحكاً

« * »

القبلةُ الاولى هي تلك النظرات الطويلة الحائرة في أعين المحبين وقد ضاقت بالصمت والابهام وكثرةِ ماتتردد بين معنًى يسأل ومعنى يجيب ، فانحدرت الى الشفاه لتتخلقَ حركةً وتتمثّلَ صوتاً وتستعلنَ للحب بكل معانيها . فالعواطف المشبوبة والنظرات المتكلمة والابتسامات المترجم تأخذ كلها في تأليف تاريخ الحب زمناً يقصرُ أو يطول . ومتى بدأت في تدوين هذا التاريخ كانت الكلمةُ الاولى هي القبلة الاولى .

واللغات تعجز أحياناً بما نُحَمّلها فلا تُحسِنُ التعبيرَ اذا كانت العاطفةُ قوية مُهْتَاجَة وقد نَشِبَتْ في عاطفة أخرى مثلها . فاذا ضاقت الروح بهذا العِيّ عمَدت الى لغتها الاولى فأرسلت العاطفة لونا في الوجه اذا كانت حياءً او خوفا ؛ ورِعْدَةً في الجسم اذا كانت فزعا أو محْقا ؛ ودمعاً فى العين ان كانت حزناً أو قهراً ؛ وضحكا وابتساما ان كانت إعجابا وطربا . فاذا كانت العاطفة وجداً ولوعةً وقد استفاضت بين روحين ، دنَتْ احداهما من الاخرى فمسّتْها بشفتيها فيكون هذا اللمسُ بأداة النطق هو ابلغُ النطق

إنما تحيةُ الفكر ردُّ كلمة بكلمة ، وتحية النفس هزّ يد بيد ، وتحية القلب لمسُ شَفَةٍ بِشَفَه



الرسالة الرابعة عشرة

كم أسأل الدُّرَّ عن معناكِ باسمةً
والوردَ عن لفظة قد أطبقَتْ فاكِ
لا الدرُّ يدري ولا في الوردِ لي خَبَرٌ
أرويه عن شفتَيْكِ أو ثناياكِ
يا نجْمةً أنا في أفلاكِها قَمَرٌ
من جَذْبِها ليَ قد أضللتُ أفلاكي
النارُ بالنار لا تُطْفَأ اذا اتصلتْ
فكيف أصنعُ في قلبي لِيَنْساكِ ؟

آه ايها العزيز إن صدرى لينشقُّ لهذه الأبيات وان لها لَغَمْزاً على فؤادى لا يسكن وانى لأرْتَعِضُ بها كأن فى كل بيت منها نوعاً من أنواع الْحمَّى . هي ألحاظها أولَ اللقاء بينى و بينها ساعةَ كانت تنتزع الفاظَها من قلبى فألتوى عليه لأنتزعه من ألفاظها ، وكنتُ ساهياً عن القدَر وعين القدر ذاكية عليَّ في تلك الساعة ولا أدرى

لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمَّده قلبي ولا أحسب أن فيها أموراستؤُلُ ماآلها (١) ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : مايستحيل وقوعهُ فلاتُفْضِي اليه ومايمكن وقوعهُ فتُهمله فلا يُفضي اليك . ولكن حين توجد المُعْجزة تبطل الحيلةَ ومتى استَطْردَكَ (٢) القَدَر الذى لا مَفَرَّ منه أقبل بك على ما كنتَ منه تَفِرُّ

ان لهذا العقل جَمَحَاتٍ تَردُّه أحياناً الى طبيعته الاولى من الطفولة التى غَشِيَتْها الايامُ والليالى والافكارُ والحواس فيرجع الرجل طفلاً صغيرا لايدرى كيف يُميِّز ؛ ولقد يكون ومايُشْبه رأيَه رأيٌ ولا يتعلّق بصوابه صواب وانَّ عقله لكالنجم من أيِّ أقطاره اقتَحَمَتْه عيناك رأيته نارا وشعاعا . غير أنه متى بلغ تلك السَّوْرةَ فجَمَحَ عقلهُ أسرعتْ منه الفَيْأَةُ (٣) الى حالته الاولى فانتبهت الطفولة فيه فعاد كالطفل . فاذا فجأه الحبُّ فى عين امرأة رأيته لايبالى الا ماعرف فى عهده الاول من تَحَنِّى المرأة عليه وانعطافها

(١) أي تنتج نتائجها (٢) ساقك أمامه (٣) الفيأة الرجوع

له ؛ ورَجَعَ الى « عصره النسائى » فترى الدنيا بما وَسِعَت لاتعدل فى عينه الصدرَ الجميل الذى يترامى عليه ، وتموت المطامع فيه وترجع كلها الى محصول واحد من ذلك الفم الذى يحبُّه ، وتعود لغة الحياة عنده كلغتها الاولى فى إشارة أو كلمة أو ابتسامة أو قُبلة

ان الطفولة تَكبَر فينا ولا ندرى ؛ ودع الناس يسمون حماقة الانسان بما شاؤا فهي هي انتباه الطفولة فيه ومُحَاجَزَتُهَا فى ساعة من الساعات التى يَجْمَحُ فيها العقل بين ذات نفسه وبين صفاتِ نفسه

« * »

لايريد الهمُّ منك اكثر من أن تريده فيأتى ؛ وحتى لو زَوَيْتَ جلدةَ وجهك (١) حكايةً وتمثيلاً لطلع مما بين عينيك فهو مقيم فى أعصاب كل انسان ؛ لايبرح الانسان يؤَدِّى اليه شيئا ويحمل منه شيئا يُؤَدِّيه ، بل هو نصفُ مكروبات الدم الانسانى . . . ولذلك قالوا : إن القلب

(١) قبضتها كما يفعل العابس

المبتهج يقتل من المكروبات أكثر مما يقتل أقوى المطهرات . وهمُّ الحب همٌّ على حِدَة لانه لايكون فيك بل يتصل بك من أعصاب أخرى ودم آخر . وما أحسب أن ألحاظ المرأة الجميلة يكون فيها ذلك الفُتور وذلك التكسُّر الا بما تحمل من الاشعة المسمومة ؛ تلك الاشعة التى متى وقعت فى الدم الذى يقبلها ويتأثر لها طبعت فى كل ذرة منه صورة من صور تلك المرأة

هذا همُّ الحب ولكن مجيئه همٌّ آخر لانه يَتَهَكَّمُ بالناس فلا يأتيهم بكُنْهِهِ وحقيقته الا فى أسلوب الحظ والسعادة ثم لايأتى الا اتفاقا ومصادفةً فى ساعة ترتجف كأنها وقعتْ الى هذا الزمن خطأ ، أو كأنها تُحِسُّ بما فيها من الجَوْر والقتل ، أو كأنها خُلقت مرتجفةً متزلزلة ليتأتى لها أن تزحزح الطبيعة الانسانية وتطيشَ بها حتى فى جبابرة العقول الذين رسختْ طباعُهم بجبال من الاخلاق الراسية تمنعها أن تَمِيد أو تتزحزح . السرور والحب كلاهما يأتى اتفاقا ؛ ولعلك لاتجدُ فى كل ماعرَّفوا به السعادة أصح

ولا أوفى من أن تقول إن السعادة هي نفس هذا الاتفاق
حين يتفق السرور أو الحب

« * »

والجناح الكبير إنما خُلق كبيرا ليأكل الأجنحة
الصغيرة . ولما لقيتُها كانت ألحاظها تقول لى بفصاحة
أوضح من نور الصبح : أنت فريستى ؛ وكانت ترفرف
علىَّ فأتنسّمُ منها هواءاً يذهلني كما تذهل العصافير الصغيرة
للجارح المنقضِّ عليها . وتحولتُ أسرعَ مما أرادت بى
وكنتُ ذا عزيمة قوية مضيئة كالنهار الذى يتغذى من دم
الشمس فما أسرعَ مافتح هذا القمرُ بابَ سمائه وطلع علىّ
من سحره بمثل مايطلع قمرُ الارض على الارض فيُبدِلها
من نهارها ذلك الصبحَ الرّطْبَ المريضَ الذى تتخايلُ
فيه الظِّلالُ والنَّسَماتُ حتى يَأْذَنَ الله فتمْحَى آية الليل
الأَسود وتُطْوَى آيةُ القمر الأبيض

كنتُ كذلك البطل الذى أكْدَى مرةً في قتال خَصْمه
ورجع كما يرجع الجبان فعيَّروه فقال والله ما كنتُ جبانًا

ولـكني زاولتُ أمرا مُوَجَّلا (١) . وتالله ما كنتُ ضعيفاً
ولـكني دافعت قدَرا معجّلا لا يُدْفَع

« * »

وحاولتُ أيها العزيزُ ان اكتب اليك وانا في هـذا الموت فصنَّفتُ كلماتٍ ثم خشيتُ أن أرتادَ أحـداً لسري فحفظته فيها وتركتها بين أوراقي ؛ وكان قلبي يحدثني أنه يَسترْوِحُ من هـذه الصحيفة رائحة صفَحات كثيرة سأكتبها ؛ وقلتُ إنه حب أبيض لاينبغي الا أن يكون منسيًّا او سراً مُضْمَراً او على الاقل شيئاً غير ظاهر . أما الآن فانى مرسـل اليك ما كتبت ؛ ولَتَجِدنَّ هذه الاسطر وما فيها الا قلبٌ يتمزق ونفسٌ مُضَعْضَعَة وكأنما هي من بكاء أعصابي المتألمة . واذا رأيتَ بلدا سال بها السَّيْلُ أو مدينةً جاشَ بها البحر فاعلم ان لهما ثالثاً في معنى الخراب وهو العاشق الذي يَغْمُرُهُ الدمع . وها هي الرسالة :

(١) اكدى أى أخفق ويريد البطل انه لا حيلة له في أن يفرغ من عمر لم تفرغ مدته

أكتب اليك وانا في حال هي من شدة الوضوح قد صارت في شدة الغموض وأيةُ حال تظنها ؟ سيذهب بك الظن الى الموت فهو أخفى ما ظهر من اسرار الانسانية ، ولكن هناك موتاً لاينقل من الدنيا الى الآخرةِ بل من نصف الدنيا الى نصفها الآخر . . . . وهو في أسرار الانسانية عكس ذلك لانه أظهر ماخَفِي ، وهو الحب

علامةُ هذا الموت الصغير أن يقعَ كل شيء منك في غير موقعه حتى لو جاءك اليقين لانقلب شكّاً ولو لمست الحقيقة لاستحالتْ شُبهة ، ثم تجد في أسباب الحياة مايجد المريض في أصناف الطعام لان العلة المستقرة فيه تجعل في كل شيء له علةمنها. وترى كل ما أنتَ ناظره يُوَسْوِسُ في نفسك بلُغَةٍ ما ولمعنى ما حتى لايَتَرامَى أمرُك الا الى الوساوس والاباطيل كأن جماعة من الشياطين ارتجّتْ في صدرك فلا يَهْدَأُ أبداً . وتحسبُ الارض قد نَبَتْ بك وثَقُلْتَ عليها كأنها لاتستطيع أن تحملك أنت واعتقادك الجديد . . . وما اعتقادك هـذا الا انك ترى الناس جميعا قد تغيروا فلا

تصيب بينهم موضعاً تكون نفسُك فيه هي نفسك الا ذلك الموضعَ الذي يضمُّ من تهواها ؛ أما سائر الامكنة واما سائر الناس فانت منهم فى رأي نفسك كالمُصْحَف فى بيت الزِّنْدِيق المُلْحِد، يُظْلَمُ فِي كل شيء في الوضع وفى الاستعمال وفى الاعتقاد وحتى فى النظر اليه . . . وتستحيل فيهم بشخصك الواحد الى اثنين معهما خيالُ شخص ثالث . . . فلا ترى الا أن نصفك يَتَحَزَّنُ للنصف الآخر في كل ما تراه . وهذا النصف الآخر يكون فى بَلائه كالطائر الذي وقع من الجو بسهم فلما أحسَّ الارضَ جعل يَهِمُّ ويُدارِكُ الضربَ بجناحيه ويَكِدُّ ويَعْنُفُ على نفسه ولكنه لا يطير ؛ وكلما اراد أن يثب الى السماء وجد آلتَها فيه مختلَّة تَرْجفُ وتضطرب ولكنها لا تعلو ؛ وقصَّر جناحُه فلَصِق بالارض وجاءه الموتُ من كل مكان وما هو بميّت

تُبغِضُ العيشَ وتُبغض الحياةَ وتبغض الناس ؛ تبغض ثلاث مرات لانك أحببتَ مرة واحدة ، وهذا كله اذا

كانت من تحبها لاتدري بهـواك أو كانت تدري ولـكنها لاتستطيع او كانت تستطيع ولـكن ... آه ياعزيزي لابد فى لغة الحب من « لـكن » اذا كانت المرأة تعرف لغة الحب

ياوَيْلَتَا لقد انتبهتُ الى أني أخاطبك كأنك انتَ المُبتلَى ... فلعلك عاذري فان هـذه طبيعة النفس الحزينة تريد ان تكون مصائبُها فى سواها ولو على ورقة ... لم يبق مني الا جزء قليل من شخصيتي القديمة اما اكثرها فضاع ضياعه او أصبحتُ لا أملـكه . ولـكن هـذا الجزء الباقى يُفسِح لى مـذاهبَ النفس فارانى كأنما أستقبلُ السموات وأحويها فى صـدري ، وارى بعينيَّ مجموعي الانسانيّ كلّهُ واضحا يَتَسَامَى ، وأشعر أنى عقل من هـذه العقول التي تُشرف على الدنيا وتعمل فى نظامها

ولا أثْقَلَ على نفسى من الناس فان ظِلاَلَهم تهبط على قلبي المتألم بأشباح ممسوخة وأراهم على وَتيرة واحـدة فى ثِقَل الروح وسواد الظل ، ولا ذنب لهم غير ان ولياً من اصفياء الله خرج يتوضأ يوماً وقد اقبل الناس على وضوئهم

فكَشَفَ الله عنه حِجَابَ الحيوانية فنظر فاذا لكل رجل وجهٌ ولكل وجه سَحْنَةُ حيوان ولكل حيوان معنًى واذا شهواتُ انفسهم قد مَسَخَتْهم مسخاً وفاءَتْ ظِلالُها على وجوههم بجلود الحمير والبغال والقِرَدَة والخنازير وما دبّ ودَرَج . فاللهمّ غَوَاثَك لاهل النفوس (١) .

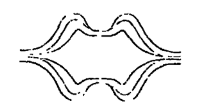
وهذا الحب حاسة في الروح فهو ولا ريب يستثقل كل ما يُنَافِرُهُ من الطبائع ، طبائع هؤلاء الذين يَتَرَفقُون للعيش (٢) بأيديهم وأرجلهم وأبدانهم وقلوبهم وأنفسهم فيُثيرون فى كل سبيل غُبارَ الحيوانية على كل قلب روحاني فلا يكونون عليه الا ألماً ومَضَضاً وشدةً من الشدة ؛ وكثيراً ما يُخَيَّل اليَّ فيمن حولى ممن أخالطهم اضطرارا أنهم ثعالب أطلع عليهم برائحة الاسد الضارى .

ان عواطفى تغلي وتَستفِزّ فى مثل المِرْجل من إرادتى العنيفة المصبوبة من فولاذ الكبرياء ولست أخشى فى هذا الحب الا انفجارَ هذه الارادة التى هي وعاء النفس

(١) أي أغث (٢) يعملون للعيش والكسب

فانها ان تنفجرْ ذهبتْ قِطَعاً مُبَعْثرةً على كل كَسْر منها كَسر مني . فهل تنفجر يوما ؟

ما أشدَّ هـذه الأيامَ الحادَّة . إنها كَسُلَّم نُصِبَتْ لي درجاتُها من سـيوف مسنونة ؛ في كل يوم جرح ينفجر بالدم ولـكل يوم عذاب وتقطيع في الجرح نفسه ؛ لا راحةَ في الصـعود ولا في الوقوف ولا في النزول ، وكلَّ يوم يقول لي حبها تَعَلَّقْ بيديك الممزَّعتين على حد هذا السيف وضع قدميك الممزَّقتين على حد ذاك السيف ؛ واصعد



الرسالة الخامسة عشرة

إن كل ما سطرتُ فى هذه الرسائل قد انعقد همُّه وسوادُه فكان عَجَاجَةً ثائرة من حرب الهوى ؛ ليس تحتها فى حَوْمَة القلب الا ألم كضربة سيف أو طعنة رمح أو كَيَّةٍ برصاصة ملتهبة حمراء. احْتَلْتُ نفسى (١) عما كانت فيه من الغيظ والمَوْجِدَة ودافعتُها وغالبتُها حتى وقفتُ بها على صِراط النسيان ولكنى فى ذلك إنما كنتُ كناقِش الشوكة بالشوكة (٢) يعالج وَخْزَةً واحدة بوخَزات كثيرة ويكشف عن حُمَة العقرب النباتية بحُمَة مثلها ، ومازلتُ أنكتُ بسنِّ هذا القلم فى صميم هذا القلب حتى فاض فى صفحات هذا الكتاب

قَبْضَةٌ من هذه الاوراق جعلت بينى وبين تلك الحبيبة ما تجعل قبضة من التراب بين الحي والميت. إذ تَنْثُرُ يدُ الموت من ذرَّاتها عوالمَ أبديةً بينك وبين من تحبّ أو من كنت تحب ....

(١) أي حولتها (٢) يقولها العامة ناكش الشوكة

حسوتُ كأسَ الحب فدارت في دمي وانحدرت الى قلبي وصَعِدت الى رأسي وهذه الرسائل هي الحقيقةُ التى كانت في خمرها قَطَرَتْ من القلم كلاماً ومعانى . ومنذ اليوم سأضع العقل بينى وبين تلك الكأس فلا أراها الا جنونا ملوّناً ومرضاً مُزَخْرَفاً ثم لا أراها الا حُلماً خَمْريًّا زاهيا إن حَسُنَ بالنائم أن يَستغرِقَ فيه لايحسن بالمتيقّظ أن يُلِمَّ به ؛ ثم لا أعرفها الا شيئا يجب اطّراحه إن لم تَدَعْهُ لأنه إثْم فلتَدَعْه لانه ذَمّ

اضطرمت النار فأكل بعضُها بعضاً وهذه الرسائل هي صوتُ الماء الذي صُبَّ عليها ليُطفئها فزفرتْ به الزفرةَ الأخيرة ، ومات الهوى لما أُصيبت مقَاتله

« * »

تلك مسئلة امتحنتني الحياة بها فما كان أجهلَنى إذ ركبتُ فيها الشُّبهة أُصَرِّفُها بعنان الحَيرة فمضتْ تتخبطني. إن اعجابي المجنون أخرج لى من الحقيقة الصغيرة على الارض خيالاً في قَدْر السماء يتلألأ في عين الشمس على أجنحة

الملائكة . وكذلك الجهل في الانسان يُخرج له من كل مسئلة سهلة الحل مسئلةً لاتُحل أبدا فلايبرحُ الفكر يضرب فيها مُقبِلاً و مُدبراً ولا ينفُذ اليها الا من الجهات المستحيلة التي لايخرج الصوابُ لا من واحدة منها ولا منها كلها

والخطأ ههنا من لاشيءٍ وليكن اسمُه بعد ذلك مايُسمَّى. سمِّه مسئلةً فارغة أو مشكلةً دقيقة او رذيلةً جميلة او حبًّا او امرأةً . . . او ماشئتَ ؛ هو على كل ذلك خطأٌ من لاشيءٍ

« * »

إنّ مَسَّ استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحياناً أيسر وأهـون من مسّ اسـتقلال نفس من النفوس الـكبيرة

وفي الدم الـكريم قانونٌ أزلي يرثه المرء من سلسلة طويلة من أجداد كرام ؛ فاذا انتُهك هـذا القانون الالهي وخاضت في ذلك الدم مهانَةٌ او مَخْزَاة ، انتفض أولئك الأموات العظماء فيه واضطربوا كامواج البحر في البحر ،

وتحولت قَطَرَاتُ الدم العريق الى لَمْح بَاصِرٍ (١) كأَن كل قطرة منه تَفُورُ على حدّ سيف مُجرَّد من غِمْده ، وامتلأت عروقُ الحي أصواتاً داويةً كصلصلة السلاح فى المعركة ؛ وترى ذلك الدمَ الكريم يَتَرَقْرَقُ ثم يَتَعَقَّد ثم يلتفُّ على الجُرثومة التي دَنَّسته فينفجر بها انفجارةَ البركان لا يَدَعُ الصخر صخراً ولا الحديد حديداً ولا التراب ترابا بل يُذيبُها كلَّها في حَمِيمٍ (٢) واحد يجمعُ صُوَرهَا النافعةَ المختلفةَ في صورة بغيضةٍ مُهلكةٍ تُدَمِّر كل شيء

كذلك حُكْمُ قانون الدم ؛ وكذلك حَكَم هذا القانونُ فقضى في دمي ودمها

أيها الجميل الذي يحسب كلَّ شيء مَوْطِىءَ قدميه . ان ذَلّ لك الحيّ بدموعه لم يذلّ لك الأموات العظماء الذين استَوْدَعوا لآلئَ كبريائهم الكريمة في الأصداف من عِظامه تحت الأمواج الجيَّاشة من دمه الحرّ ، ومن لم تُعِزَّه نفسُه فلا يَصلُحُ الا أن يكونَ رجلاً لا يصلُح . . .

(١) النظر بتحديق كما يفعل العدو المبغض (٢) اصله الماء الحار

* * *

والآن سأدع صمتي يتمم كلامي . وانه لصمتٌ قاتمُ الأعماقِ أسودُ النواحي لانه مملوءٌ بفكرة التوبيخ ؛ مُظلِمٌ شديدُ الحلك لان شمس الحب لا تَسطعُ فيه ؛ مُبْهَمٌ مُستَغلِقٌ لانه صورةُ الظن السيِّئ ؛ مُوحِشٌ مُقفِرٌ لأنه رسمُ قلبٍ حزين

١٧ فبراير سنة ١٩٢٤

خاتمة الكتاب

اجتمعتْ في هذه الرسائل عواطفُ الحب تتساوق معانيها دون حوادثها على نسق الشعر والفكرة لا على سرد التاريخ والرواية ، إذ لم يكن الغرضُ منها حكايةَ نفسين بل صفةَ نفس صريحة لنفس مُعقَّدة .... فلما ضممتُ أُلفتَها وهيأتها للطبع أدرتُ الرأيَ فيما أرضاه منها وما لا أرضاه وما زاتُ بها على ما يختلط فيها من الحب والبغض حتى خرجتْ كما يخرجُ الماء الصافي من الماء الكدِر وجاءت كما ترى نقيَّةً بيضاء ليلُها كنهارها

« * »

ان ساعةً من ساعات هذا الضعف الانسانى الذي نسميه (الحب) تُنْشِئ للقلب تاريخًا طويلاً من العذاب إن لم تكن آلامُه هى لذاته بعينها فهى أسبابُ لذّاته ؛ ومن ثَمَّ يشتبهُ الأمر على المحبين اذا استفزّتهم فَوْرَةُ الغضب ممن أحبُّوا ؛ فلا تجد في البغضاء عندهم أبغضَ من طريقة إظهارها حتى إن نيران قلوبهم لتخلقُ منها الشياطين ؛ ولقد

كان في هذه الرسائل كلام يَدْوِي كهزيز [1] السحابة الحمراء تنطلق من الرصاص في معركة حامية لتُمْطِرَ مطر الموت والألم والوجع، فلم أُثبِتْ منه إلا كما ترى من ضَبابَةِ البخار فوق المِرْجَلْ الذي يَغْلي ، ومن ألوان البرق تَلْمَحُ من صواعقها لَمْحًا

ألا كم في هذا الحب من العجائب المتناقضة حتى إن فضيلة الصبر في العاشق هي نفسُها رذيلةُ الغضب فيه ، كلما طال صبره طال غضبه ، وتراه يُبْغِض بأقوى ما في نفسه فلا يكون ذلك إلا إخفاءً لأضعف ما في قلبه ، واذا تَرَامَى في أطراف الارض لينأى عن حبيبه رأيته من أيِّ عِطْفَيْه التَفَتَ [2] لا يجد الا خيالَ حبيبه ، ومهما تَطَرَّحَ قلبهُ في مَطَارِح السُّلوان فلن يكون الا كعقرب الساعة تَعمل كل قُواها في إبعاده عن « الثانيةَ عشرةَ » ليرجع دائماً بنفس هذه القُوى الى الثانيةَ عشرةَ نفسِها

والعاشق هو وحده المخلوقُ الغريب الذي ترى

(١) الهزيز صوت الريح تصفر به (٢) من اي جانبيه التفت

الاحلامَ في عينيه وهو يقظان يَعْقِلُ ويعي . فليست الحبيبة في عينه امرأة كغيرها من الناس ، وانما تُخرجها له جملةٌ من الصفات الغريبة التي فيها لتقابل جملةً أخرى من الصفات الغريبة التي فيه ؛ ومتى كان الأمر غريباً نادراً من طرفيه في النظر والاعتقاد لم يبق فيه موضع يمكن الحكم عليه بأنه من الاشياء المألوفة التي جرَتْ بها العادة . وتلك هي مُعْضِلَةُ الحب التى جعلت من بعض النساء الضعيفات هَزْلاً أروعَ من الجِدّ ومن بعض الرجال الأقوياء جِدًّا أسخفَ من الهزل ؛ معضلة لا تُحل أبداً ما دامت بين الحبيب ومحبه إذ لا تجيء ولا تكون ولا تستمرُّ الا كما تجيء وتكون وتستمر ؛ وانما مَثَلُها كذلك الانعكاس الذي لا يَسْتَوِي له بحال من الأَحوال أن يُظْهِر الكتابةَ على المرآة الا مقلوبة أبدا

«*»

كل معنى انسانى في الحبيب يكون دائما وراءه معنى غيرُ انساني في وهم المحب ؛ فالمعشوق مجتمع من إنسانيتين

متبَايِنَتَيْن وهذا هو كل السر في انفراده عند من يهواه مادام يهواه

وأظهرني صديق على رسم صاحبته التي يصفها في هذه الرسائل أوصافاً كثغور الحسان لا تفترُّ الا عن لؤلؤ ؛ فما رأيتها في الجمال خارجةً من الجنة ولا سابحة مع الملائكة ، إن هي الا واحدةٌ من خمسين من كل مئة في النساء (١) ولكني أشهدُ أن عينيها كأنهما غير إنسانيتين ، لو كانتا في أسَدٍ ضارٍ لارتمى عليه العاشق من تلقاء نفسه ليفترسه . فيهما بَيِّنَةٌ صريحة على أن هذه المرأة الشاذَّةَ إن أحبت لم يعرف أحد غيرها كيف تظهر حبها ؛ فربما آنَسْتَ منها النفرةَ أو الإعراضَ أو البغضَ مَلَالَةً فما فوقها ومع ذلك يكون هذا هو حبها الذي ابتُلِيَتْ بكتمانه أكثر مما ابتليتْ به

واذا كانت القدرة الأزلية تصطفي من نوابغ العقل والشعور من تُكَاشِفُهم ببعض أسرار التعبير في مَلَكُوت

(١) الخمسون نصف المئة . . . . وأعتذر الى صديقي

السموات والأرض ، جاعلةً وسيلتَها الى ذلك ملَكاً أو شيطانا أو امرأة كأحدهما . . . فتلك التي رأيتها امرأة كأحدهما ولكن لا تدَعَك أسرار عينيها تعرف أيّهما هي ؟ . . . . .

« * »

ليس ببعيد أن تكون هذه القلوبُ الانسانيةُ ينظر بعضُها في بعض أحيانا على شعاع الروح كما يتراءى الوجهُ للوجه في سِرَاج العين ، ومن ثَمَّ يكون اختلافُ كل عاشق مع الناس أجمعين في تقدير الجمال الذي يعشقُهُ واعتباره إذْ لا يُقدِّر بعينه ولا بعقله ولكن بقلبه . ولقد حاورتُ الصديق يوما في جمال صاحبته تلك فقال إني أرى مالا ترى فان قلبي ينظر في قلبها كما تنظر أنت في وجهها : ومتى جادتَ محبًّا في هواه صارت الحبيبةُ في جِدالكما كالفلسفة تَراها عند أهلها إيضاحاً لشيءٍ مُعَقّد فاذا تناولها غيرُ أهلها انقلبت تعقيداً لشيءٍ واضح . . . . وإن المرأة الجميلة في رأيي هي تلك التي أرفعُ روحي إليها إذ لستُ أفهمُ من معنى الحب الا أن الروح اهتدت الى شيءٍ من

سرّ الانسانية في إنسان جميل قد استطاع بجماله أن يهديَها الى هذا السر

ولما يَئِسَ مابينه و بينها واجٌ في غضبه منها سألته رأيه في « إيضاح المعقّد .... » [١] فقال أيها الرجل ! اذا مدحتَ امرأة جميلة فلا تقل ما أجملها بل قل ما أجْمَل الشرّ

« * »

آهٍ مِنَ الدُّنْيَا ومِنْ قَدَرٍ عَلَى الدُّنْيَا حَكَمْ
البُغْضُ شَيْءٌ مُؤْلِمٌ والحبُّ شيءٌ كالألَمْ

تنبيه

هذا الذى أصدرناه من « رسائل الاحزان » انما هو نصف كتاب الحب . وبقي نصفه الآخر الذى يحتوى رسائله اليها ورسائلها اليه وسنخرجه ان شاء الله كتابا على حدة ان أذنت هي في نشر رسائلها . فان لم تأذن طويناه وبقي النهار مشرقا على نصف الأرض والليل مظلماً على نصفها الثانى . . . .

(١) أي حبيبته التى شبهها بالفلسفة

خطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٤	١٥	وغير	غير
٢٥	١	بسرّ	وسرّ
٣٩	١٠	رهجٌ	رهجٌ
٨٦	١٤	الحل	المحل
١٢٥	١٤	على النجم	عن النجم
١٤٠	٢	عليها السماء	عنها السماء

ولعله فاتنا ما لا يفوت القراء مما ينبه على نفسه

طبع هذا الكتاب من الصفحة ١١٣ فى

المطبعة السلفية - ومكتبتها

فى شارع خيرت رقم ٤٠ * بمصر

السحاب الأحمر

﴿ تكملة على ﴾

رسائل الأحزان

في فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

المطبعة السلفية - بمصر

سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م

*

مؤلفات صاحب الكتاب

تاريخ آداب العرب　الجزء الأول فى تاريخ اللغة ورواياتها

» » » » (الثاني) فى إعجاز القرآن

» » » » (الثالث) فى تاريخ الخطابة والأمثال والشعر «تحت الطبع»

ديوان الرافعي — ثلاثة أجزاء

» النظرات

كتاب المساكين

حديث القمر

رسائل الأحزان (فى فلسفة الجمال والحب)

النشيد المصري الوطني وتاريخه فى «الطبعة الثانية»

نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه

*

*

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

لما كتبتُ « رسائل الأحزان » في فلسفة الجمال والحب » كنت في تدبيره والرأي فيه كمن يُؤرِّخ عهداً من شبابه بعد أنْ رقّتْ سِنّه (1) وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق الا ظنّه ، فهو يكتب والكلام يَحِنُّ لَدَيْه ، والقلم يئنُّ في يديه ، وكل وصف جاء به من الشباب قال رحمة الله عليه . . .
وكنت أتعلق بأطراف اللغة التي فرّتْ من الحياة معانيها ، وذهب نورُها وظلامُها في أيامها ولياليها ، فكان قلمي هو الذي يكتبها ولكنّ قلبي هو الذي يُمْلِيهَا .

لغة الأَحلام التي تعبِّرُ عن الحقائق على نحو ما وقعت

(1) شاخ وهرم ومتى بلغ الانسان هذه السن كانت لذات الدنيا كلها ظنونا في نفسه ، وبعد عن يقينها وحقائقها بعده عن شبابه وقواه

يوماً لا على نحو ماتقع كل يوم ، فهي تترجم للحياة في زمن من العمر تاريخَ هذه الحياة نفسِها في زمن آخر ، وتُرْجِم الانسان كله لبقيته الباقية ، وتأتي في الكلام لغير جدال ، كما تأتي الأَجوِبَةُ القاطعة على أَسئلتها

وهي لغةُ الماضي التي تحملُ ماحَمَلْتَ عليها لانها صافية كالحق منزَّهةٌ عن الرَّيْب كالواقع ؛ فاذا وصفتَ بها الخير كانت كالمرآة المَجْلُوَّة أشرق فيها وجه جميل فملأ صفاءها جمالاً وفتنة ؛ واذا صورتَ بها الشر كانت كالمرآة ووجه الزِّنجي يملأها سوادا ولكنه لا يَطمِس على شعاعها وتضيف الى سواده لَمَعَانَ نورها مادام فيها

« * »

كتبته بلغة الأَحلام ؛ والأَحلامُ هذه انما هي بعضُ مامات منا أو مامات لنا ؛ فان استحال رجوعُنا في هذا العمر عَوْداً على الماضي فهي رجوعُ الماضي الينا ؛ ومن ثَمَّ كان في لغتها شيء ظاهر من رَوْعة الخَلْق وكانت لها

مَعَانٍ كأنها راجعة من سفَرٍ بعيد الى شوق طال به الصبر.

كتبت كتابةً قال الغافلون إني اتكلّف لها خيالاً ورواية ، وقال العاشقون إنها كلامُ قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام إنه هو في كلامه . ولقد كنت من نفسى يومئذ كمن لو ضربه الحب بقشة لجرحه جرحاً يَدْمَى [1] وكنت أكتب عن ساحرة تَبْسِمُ حتى لتظنّ أنها لم تُؤْتَ وجهاً تعبسُ به ثم تكون مع ذلك شرّ ما هي كائنة من حيث لا تظنّ أنت بها الا الذى هو خيرٌ وأهْدَى .

وكنتُ فى ذلك الكتاب شاعراً وحُب الشاعر لا يخلو من الوزن .... وكنتُ متفلسفاً وهيهات إن أصبتَ الحبّ أيها الفيلسوفُ الا فى امرأة معقّدة يؤلفها الله تأليفاً من العُسْر بين فهمك ومعانيها ، فلاجَرَمَ كان الكتابُ في نوع من الحب المتألم لا يكون مثله الا بين اثنين مَسَحَ الله يَدَه على وجه أحدهما ثمّ مَسَحَ يَدَه على قلب الآخر ثم تراءَيا بعدُ

---

(٢) دمي الجرح يدمى (كرضي يرضى) اذا سال دمه

فما لَبِثَ أَن أشرق الاثَرُ الالهيُّ على الاَثر، ووقع القضاء في الحب على القدَر

أَلا إن كل باب يُفْتَح ويُغْلَق بمفتاح واحد هو يُغلقه وهو يفتحه الاباب القلب الانساني فقد جعل الله له مِفتاحين أحدهما يُغلقه ثم لايغلقه سواه وهو مفتاح اللذات، والاخر يفتحه ثم لايفتحه غيره وهو الأَلم

«*»

كنت أستوحي «الرسائل» من تلك النفس التي طارت بي طَيْرَتَها البطيءَ وقُوعُها فإني لَأَسْتَعِرُ بها فكرا (١) وأَشْتَعِل منها خيالا، وكنت أرى الفصول تَخلَّص في يدي حين أَكتبها كما تخلص سبائك الذهب بعناصرها لا بالصناعة، وكان هذا القلم كالحديد اذا أُحْمِيَ عليه، ليست يدٌ لمسته من أيدى المعاني الا وضع فيها سِمَةَ النار؛ ثم جاء الكتاب وما أكاد أصدّق أن الزمن مرَّ به

(١) يستعر أي يلتهب كأنه كله شعلة فكر

وتم قبل أن يُتِمَّ القمر دَوْرَةَ شهر واحد [1] ، فنبهني ذلك الى أن أستوفيَ الكلامَ في الحب استمداداً من أرواح أخرى فوضعتُ هذا « السحاب الأحمر » [2]

وقد استوحيته من أرواح فيها الحبيبُ والبغيض والصديق والمظلومُ والظالِمُ لنفسه ومَن عقلُه قلبُه ومن حبُّه منفعته وفيها أضعفُ ماعرفتُ من العقول وأقواها ، فمن هذه السماء توَكَّفتُ هذا السحاب [3] ؛ وإني لأَشهدُ أني في بعض فصوله كنتُ أُحامي عن الحب أن ينْتقَصَ [4] فأُدير الكلامَ على ذلك فيلتويِ ثم أراه لاينقاد ولا يُتابِعُ الا على خِلاف ما أريد ، فاذا أخذتُ في المذهب الذي يَعِنّ لي اتفاقا وَعَرَضاً [5] تحدَّرَ الكلام تحدُّرَ الدمع من حيث لايَملك أحد أن يُفيضَه أويَكُفّه لانه عند أسبابه الباطنة .

(١) كتبت رسائل الأحزان في نيف وعشرين يوما وكتب حديث القمر في أربعين وكتب هذا السحاب في شهرين وهي الكتب الثلاثة التي جعلناها للجمال والحب وكلها مستوحاة (٢) تعرف سبب هذه التسمية في الفصل الاول (٣) التوكف الاستمطار (٤) اي يعاب ويثلب (٥) من يعن اذا عرض

وفي فصل « الشيخ على » خاصةً كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها هي التي تكتب وكان مَرِيداً على طبعه وخُلقه[١] فما ملكتُ معه محاماةً ولا دَفعاً . وفي فصل « الشيخ محمد عبده » كنت أشعر كأني مُرتَقٍ في صَعْدَاءَ مَطْلَبُها طويل بعيدٌ[٢] فلا أخطو خطوةً الا مُدافِعاً جاذبية الارض وشاعراً بأني أحمل نفسي حَمْلا ؛ وكنتُ كالذى يطأ على أضراس الجبل الصخريّ وأسنانه مُتثَبِّداً حَذِرا أن يَزِلَّ فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة ... ولا ينفعه في الصخر وشُموخه وتعاليه أنه كان في عريض السَّهل عدَّاءً لا يُلْحَق

« * »

من الحب رحمةٌ مُهْداةٌ فاذا كنتَ مع الله كانت كل أفكارك صوراً روحانية ، فأنت كالملَك هو في الأرض

(١) المريد هو من عتا وطغا ولا يقال الا في الاخلاق والطباع اما في غيرها فمارد (٢) الصعداء الطريق العالية يصعد فيها أو الغاية البعيدة يصعد اليها

ماهو فى السماء ؛ ومن الحب نِقْمَةٌ مُسلَّطةٌ فاذا كنت مع الشيطان كانت كل أفكارك صوراً حيوانية فانت كهذا المُتَجَهِّم الطيَّاش (١) الذى لو نظر في كل مرائي الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد لانه القرد .....

والناس فى هذا الحب أصناف : فواحد يجاهد زَلاَّتٍ قد وقعت وهو المحب الآثِم ، وآخر يجاهد شهَوَاتٍ تَهُمّ أن تقع وهو المحب الممتَحَن ، وثالث أمِنَ هذه وهذه وانما يجاهد خَطَراتِ الفكر وهو المحب ليُحبّ فقط ، ورابع كالقرابة والصديق عجز الناس أن يجدوا فى لغاتهم لفظا يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الاشياء اليها فى المعنى وهو الحب . وعلى الثالث وحده بنيتُ « رسائل الأحزان » وعلى بعض الرأي فى الباقيات كَسَرْتُ هذا الكتاب

« * »

مَنْ للمحبّ ومن يُعِينُهْ والحبُّ أَهنأه حَزِينُهْ
أنا ما عرفتُ سوى قسا وته فقولوا كيف لِينُهْ

(١) القبيح الوجه الخفيف العقل

إن يُقضَ دَينُ ذوي الهوى فأنا الذي بَقِيَت ديونُه
قلبي هو الذهبُ الكريمُ فلا يُفارِقُه رنينُه
قلبي هو الألماسُ يُعْرَفُ من أشعتِّه ثمينُه
قلبي يُحِبُّ وإنما أخلاقُه فيه ودينُه

« * »

يامن يُحِبُّ حبيبَهُ وبِظَنِّه أمسى يُهينُهْ
وتَعِفُّ منه ظواهرٌ لكنه نَجِسٌ يقينُه
كالقَبرِ غطّته الزهورُ وتحته عفِنٌ دَفينُه
ماذا يكونُ هواكَ لو كلُّ الذي تهوَى يكونُه
دَعْ في ظنونك مَوْضِعاً أن الحبيب له ظنونُه
وخذِ الجميلَ لكي تَزِينَ الحسنَ فيه بما يَزينُه
إن تنقَلِبْ لِصَّ العفَا فِ لمن تحبُّ فمَنْ أمينُه؟
مالذةُ القلبِ المدَاهِ لايطولُ به حَنينُه
مالذة العَقل المحِبِّ ولم يُجَنِّنْه جنونُه
الحبُّ سَجْدَةُ عابدٍ ماأرضُهُ الا جَبينُه

الحبُّ أُفقٌ طاهرٌ ما إن يُدنِّسُهُ خَؤُونه
أُفُقُ الملائكِ نفسُهُ في البَدْءِ كانَ له لَعِينُه (١)

« * »

وَيلي عَلى مُتَدَلّلٍ ما تنقضي عني فُنُونه
كيف السُّلُوُّ وفى فؤادى لا تُفارقنى عيونه

مصطفى صادق الرافعي

(١) هو ابليس لعين السماء وطريد الملائكة

كلمة

كانت دُرّتان متجاورتين فى حِلْية على صدر حسناء ؛ وكلتاهما يتيمة إلا من أختها (١) ، تَمُجُّ ذلك الشعاعَ النادر الذى جاءه الحسن من كونه ضـوءاً لم يُولَد من شمس ولا من قمر ولـكن من ظُلمات البحر . فتناجتَا يوماً وكانت الجميلة قد استوفت كلّ زينتها وحملت الدرّتين على صدرها كأنهما عَيْنَا قلبها الثمين ؛ فقالت احداهما للأخرى وهي تشير الى هذه الفتّانة : انظري انظري ما أَحْسَنَ لؤلؤتَنا ...

صارت اللؤلؤة فى هذا المنطق الشعريّ هي امرأة الأعماق المظلمة وعادت المرأة الحسناء لؤلؤةَ الأعماق السمٰوية المضيئة ؛ فلا شيء يريد أن يكون كما هو فى نفسه إذ لا يزال موضعُ الفَصْل من حكمة الله خفيًّا لا يُرى بل يُتوهَّم ، ولا يُستَيقَن بل يُظَن ، وكان خفاء هذه الحكمة فى سماواتها ايجادا للخيال فى الانسان حتى لا يظلّ أبداً فى حيوانيته ؛

---

(١) أي لا يشبهها في الدر الا أختها

ولكن هذا الخيال نفسه كثيرا ما أضاف الى الانسان حيوانيةً أخرى

ولو كُشِفَ لك عن الحقيقة لرأيتَ أقبحَ ما في كل شيء أن لا يبرحَ أبدا محبوسا في حقيقة لا يُجاوِزها ؛ ومن ثَمَّ خفّف الله عن الانسان فأودع فيه قوة التخيل يستريح اليها من الحقائق ، فاذا ضجر أهل الخيال من الخيال لم يُصلحهم الا الحب فهو وحده ناموس التطور للقوة المتخيلة ولن تجد في الاشياء العجيبة أعجب منه حتى كأنه أُمٌّ تَلِد . فالمرأة هي تلد الانسان ولكن حبها يلد النابغة

« * »

وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب في نفسه بل لانه متصل من الانسان برُوعِه (١) أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه ؛ فان دَهِش الرُّوع أو تحيَّر العقل أو اشتهى الهوى أو تمكن المَطْمَع من النفس ؛ فهذه هي الألوان الأربعة التي تصور منها الطبيعة الانسانية كلَّ معاني التعجب.

(١) الروع الخاطر والقلب

والذى هو أعجبُ من جميعها أن الطبيعة لاتحتاج الى جميعها في تصوير شيء الا واحدا هو تصوير الحب الصحيح فى قلب انسان

فهذا الحب ليس حقيقة واحـدة عجيبة بل هو أربع حقائق داخَل بعضُها بعضا فلا يتميز لونٌ منها من لون منها. وما حقيقة الحب الصحيح الا امتزاج نفسين بكل مافيهما من الحقائق حتى قال بعضهم : لا يصح الحب بين اثنين الا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر يا أَنا [1] ؛ ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنفَ مافى الخُصومة إذ هو تقاتُلُ روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة ، وأكبر خَصيمَيْن فى عالم النفس مُتحابَّان تَباَغضَا

وللحب العجيب جنسٌ من النساء عجيب خُلِقْن جواسيسَ على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها ، وقلَّما تجسَّست الواحدة منهن الا لتفضح للدنيا أسرارَ روح

(١) يريد اتحادهما فى الميل والهوى والحياة والخضوع كأنهما تبادلا نفسيهما فنفس كل منهما انتقلت فى الآخر

عظيمة ، وهذا الجنس تُهيّئه الطبيعة تهيئة المادة السحرية وتولد المرأة منه مرتين ، فاذا هي انحدرت الى الدنيا طفلةً جعلت تأخذ فى دمها الجذّاب من شعاع الشمس يتَوهّج ومن نور القمر يتندّى (١) ، وذهبت تنمو فى ظاهرها نمواً وفى باطنها نموا غيره حتى اذا بلغتْ مَبْلَغها وانبعثت ملء شبابها آنَ لها أن تولَدَ الثانيةَ فولدت فى قلب رجل

والعجيب انها فى الولادة الأولى يكون أولُ وجودها هو أولَ وجودها ؛ أما فى الثانيـة فذلك أول فَنائها لان المرأة متى حلّت من قلب الرجل محلاًّ جعل يُفنيها معنًى في معنًى حتى تفرغ فلا يبقى منها الا ذكرى زمن مضى ...

وكل امرأة من هذا الجنس هي معْجزةٌ عقلية مادامت مخبوءةً فى الشعاع السماوي من جمالها وما دام هذا الشعاعُ يفعل فعلَه الذى عرفه الناس أوضحَ ماعرفوه فى أديانهم وعقائدهم وفيما أنزلوه منزلةَ الأديان والعقائد

وآيةُ مِصْداقِ هـذا الإعجاز (٢) فى المرأة الساحرة

(١) يترطب والتوهج توقد النار ونحوها

(٢) أي برهانه تقول مصداق الامر كذا وآية مصداقه كذا

المحبوبة ذلك النوعَ من الحب أنه بَيْنَا يكون محبها رَزِينَ الطبع وازنَ الرأي (١) كالجبل الراسخ الوَطْأَة ، إذا هو من سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونَزَعَاته كأنه جبلٌ يطير بألف جَناح وقد ملأ الخوافقَ بين السماء والأرض أوهاماً سحرية

وهنا مُعْضِلة الحب التي لا حيلة في فهمها ولا في تقريبها الى الفهم ، وهي تُثبت أن العاشق يُعطى في ناحية خياله قِبَلَ الناس جميعا ولكنه يُنْتَقَصُ من ناحية عقله مع حبيبته وحدها فهما سِحْران تَظَاهرا (٢)

ولا يُشْبِه تلك المعجزةَ الا أن ترى إنسانا يقوم على ساحل البحر المِلْح فيلقى فيه رِطْلاً سُكَّرًا ثم يتذوق البحر فاذا هو في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شرابٌ سائغ كأنما ألقى الرجل فيه وزنَ كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ الحلو ... ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك

(١) عاقل وقور راجح الفكر (٢) اي تعاونا

الفصل الأول

القمر الطالع

في يدي الآن هذا القلمُ الذي اكتب به وهو سنٌّ قائمةٌ في نِصَاب[1] من الزجاج أحمرَ صافٍ يَشِفُّ عن دَاخِلِهِ ، فاذا طاف به النورُ أشعَّ فيه[2] وانصبغ بلونه فرمى على إصْبَعي ظلاًّ مجروحاً[3] يريك الجلد كأَنما جُرحه من فوقه لا من تحته

فاذا رَاوحَتْهُ يدي[4] وقلّبته أناملي رأيتُ له بَرِيقاً يستطير فيه كأَنه شُعْلَة من اللّهب حبستها مُعجزة في عُود من الثلج

فاذا استعرضتُهُ بين العين وبين الضوء الساطع رأيت منه ياقوتةً حمراءَ قد افْتَرَّ فيها نَبْعٌ كالفَمِ الحلو يتنفّس على قلبي الحزين بابتسامات تأتي اليَّ وفيها ألوانُ شفاهها الوردية

فاني لَجَالسٌ ذات مرة في جَوف الليل أكتب على

(١) السن الريشة والنصاب اليد التي تمسكها (٢) أظهر شعاعه فيه
(٣) استعير له الجرح لانه أحمر يترقرق كالدم (٤) داورته وقلبته

ضوء الكهرباء إذ طارت فيه نظرة من نظراتى وكان بإزاء الشعيلة [١] فرأيت فى خلاله من انعكاس الضوء شميسة صغيرة لم أر قط أحسن منها حسناً كأنها سبيكة تحترق وتتناثر ضباباً من بخار الذهب ؛ فمددت النظر فاذا أنا بتلك الشميسة كأنها احدى عذارى الجنة انغمست فى غدير صافٍ نحوله جمالها فانقلب من معنى الماء الى معانى الجمال المستحي فاحمر كأنه لون خد مورد

وراعنى ما ابصرت فاستأنيت لحظة ثم رفعت طرفي الى مدار هذا الكوكب فجعل يرمى بمثل شقائق البرق [٢] تلمع واحدة لواحدة ، ثم انقلب يتضرم كالتنور المستعر ، ثم عاد لجة من «السحاب الأحمر» يموج بعضها فى بعض كالحب المتوهج يملأ فراغ قلب كبير ؛ فاختلج الذى هو فى صدرى وحضرتنى [٣] حاضرة من الذكرى لم تكد تعرض للفكر حتى انفلق السحاب عن وجه فتان كالقمر

(١) هي فتيلة السراج المشعلة سمينا بها خيوط النور المنبثقة في المصباح الكهربائي وما نجري فيه ترجمة لكلمة Duill (٢) قطع البرق جمع شقيقة
(٣) خطرت ببالي والذي هو فى الصدر القلب

الطالع وكان متمثّلا فى نفسى مُذْ أبصرت تلك الشميسة فكأنما رأى من السحاب مرآة فانطبع فيها ؛ وماتَلَبّثَ إلا يسيراً ثم اختفى.

وغصتُ في هذه النفس أفكر فيما رأيت وأنا أُمْسِكُ على قلبي أن يطير فاذا « السحاب الأحمر » يُمطر عليَّ مطرةً من الخواطر والكلمات يتلاحق منها طرَف بعدَ طرَف وتُقبل طائفة وراء طائفة كأن متكلما يتحدث بها في نفسي أو كأنه وحيٌ يُوحَى من مَلَك الجمال ، فأسرعتُ أدوِّنها وأُحصيها تحت عيني تلك الصورة الجميلة المُشْرِقة عليَّ حتى امتلأ البياضُ سوادا واستفاضت روحُ الحبر الأَسود بالهمّ على صُدوع القلب وعلى شِعابِه [1]

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السحاب يَعرضُ لي صوَرا أعرفها فاذا مَثَّلَها فاستوحيتُها الفِكرةَ سَحَّ عليَّ الخواطرَ من روحها فأقبلت كالمطر يُفرَغُ إفراغا دَفْعَةً من غير تَلبُّث [2]

(١)طرق القلب وشقوقه (٢) المطر متى سح تتابع حتى تنقشع السحابة أو تتساير

« * »

رأيت وجه فتاة عرفتها قديماً في رَبْوة من (لُبنان) ينتهي الوصفُ الى جمالها ثم يقف [1] ؛ كنت أرى الشمس كأنما تجري في شَعرها ذهباً وتتوقد في خدها ياقوتاً وتسطعُ في ثَغرها لؤلؤة ؛ وكنت أرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم فاذا تأملتُ شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنته ؛ وكانت لها حيناً خفةُ العُصفور وحيناً كبرياء الطاووس ودائماً وَداعةُ الحمامة المستأنسة ؛ وكانت روحُها عَطِرَةً تنفَح نَفْحَ المسك اذا تَشَامَّت الارواحُ الغَزِلَةُ بالحاسة الشعرية التى فيها

وكنت اذا رأيتها بجُملة النظر من بعيد صوّر لها قلبي من الحسن والهوى ما يموت فيه مَوْتَةً ثم يحيا ، فاذا جالستُها وأثبتُّ النظرَ فيها رأيتها في التفصيل شيئاً بعد شيء بعد شيء كما أنظر نجماً بعد نجم بعد نجم ؛ كلها شعاع

(١) لا نطيل في وصفها هنا فهي التي وصفناها في « حديث القمر »

وكلها نور وكلها حسن

وما نظرت مرة الى النساء حولها إلا وجدتُ من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعفُ من جهتها عالياً عالياً ويتضاعف منهن نازلاً نازلاً كأنه ليس فى الامر إلا أنها أُخِذَتْ من السماء ووُضعت بينهن

هي كالفتنة المختومة تنبعث الى آخرها فليس منها شيء الا هو يُحَسِّنُ شيئا ويُشوِّق الى شيء وبعضها يُزيِّن بعضَها

« * »

لقد تَراخى الزمنُ بي وبها فلو عددت لأَحصيتُ مائة وخمسين قمراً [1] منذ فارقتُها ، وما أحسب الأرض إلا انصدعت بيننا عن أُقيانوس عظيم من الزمن تملأه الأيام والليالي فلا يُخاضُ ولا يُعْبَر ولا ينظر فيه أهلُ ساحل أهلَ ساحل غيره

وعلى أن هذا الزمن قد محا فى قلبي من بعدها وأثبت

(١) كناية عن الشهر ولا تقول خمسين ومائة وكلاهما صحيح

فلا تزال تنشقُ لها زَفْرَةٌ من صدري كلما عَرضتْ ذكراها كأن القلب يسألني بلغته أين هي ؟ والقلبُ الكريم لا ينسى شيئا أحبه ولا شيئا ألِفَه إذ الحياة فيه انما هي الشعور ، والشعور يتصل بالمعدوم اتصاله بالموجود على قياس واحد . فكأن القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات بعضَ السر الأزلي الذى يحيط بالأبعاد كلها إحاطةً واحدة لأنها كلها كائنة فيه ؛ فليس بينك وبين أبعد ما مرَّ من حياتك الا خطوةٌ من الفكر هي للماضي أقصرُ من التفاتة العين للحاضر

«*»

ليس بجمال الا ذلك الروحُ الذى يرفع النفس الى أُفق الحقيقة الجميلة ثم ينفخ فيها مثلَ القوة التي يطير بها الطير ويدعها بعد ذلك تترامى بين أفق الى أُفق ، فإما انتهى المحبُ الى حيث يصير هو فى نفسه حقيقةً من الحقائق ، وإمّا انكفأ من أعاليه وبه ما بالطيارة الهاوية رفعت راكبها

الى حيث ترمي به ميتا أو كالمغشيّ عليه من مسّ الموت ؛ والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا أو يجعل الحياة كالقتل ثم يدّعون مع ذلك هوًى وحبًّا — انما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التى يحبون بها الذهب والفضة وورق البنك .....

وليس بحبّ الا ماعرفته ارتقاءً نفسيًّا تعلو فيه الروح بين سماوَين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرآتين ، يكون واحدا وترى منه الدين ثلاثة مصابيح ، فكأَن الحب هو تعدُّدُ الروح في نفسها وفي محبوبها

« * »

ولا سُمُوَّ للنفس الا بنوع من الحب مما يشتَعِلُ الى مايتنسّم ؛ من حب نفسك في حبيب تهواه الى حب دمك فى قريب تُعِزُّه ، الى حب الانسانية في صديق تَبَرُّه ، الى حب الفضيلة في انسان رأيتَه إنسانًا فاجللته واكبرتَه

فاذا أنت أصبتَ فى الخليقة من أغفلَ الله قلبَه (١)

(١) أهمل قلبه وتركه لا يثبت فيه شيء منها

عن تلك الأربعة فلا حبٌّ ولا صِلة ولا يألف ولا يُؤْلَف؛ فذلك هو الذي لا نفس له من نفوس الناس كأنه سبُع من السباع الضارية، أو هو الذي كله نفس كأنه نبيٌّ من الأنبياء. تجد الأول فيمن اعتزله العالم من شرار المجرمين وأخلاطِ الشياطين الإِنْسِيّة الذين لا يَسَعُهم الناس بعد أن انفصلوا من انسانيتهم وانحطوا انحطاطاً في أشد العُنف. وتجد الثاني فيمن اعتزل هو العالمَ من خيار الأوّابين والشهداء الذين لا يَسَعُون الناسَ بعد ان اتصلوا بانسانيتهم الكاملة فارتفعوا عن الخلق ارتفاعاً في أرقّ الرحمة

« * »

الحب بعض الايمان؛ وكما أن الطريق الى الجنة من الايمان بكل قُوَى النفس فان الطريق الى الحب من قوةٍ لا تنقص عن الايمان الا قليلا؛ والخُطوة التي تقطعُ مسافة قصيرة الى القلب تقطع مسافة طويلة الى السماء

وكما ينشأ الكفر أحيانا من عمل العقل الانساني اذا هو تحكّم في الدين ، يأتي البُغض من هذا العقل بعينه اذا هو تحكّم فى الحب

وتُرى ما هذا الشّبه بين المرأة وبين السماء ؟ أكانت المرأة فى أصل الخلقة مادة سماء بدأت تتخلّق فى الغيب فحبسها الله فى ضلع الرجل عِقاباً لها ، ثم عاقبها الثانيةَ فأخرجها للرجل تنظر اليه كما ينظر السجين الى سجنه . . . ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرتين لتتعلم هي بطبعها كيف تتجنى على الرجل وتعاقبه مراراً لا تُعَدّ ؟

أيمكن ان يكون هذا الجمال الفتان فى المرأة الجميلة خُلاَصةَ سماء من السموات خُلقت عينين وخدين وشفتين ، تضحك أحيانا بالنور وتلتهب أحيانا بالبرق وتنفجر أحياناً بالرعد ؟

لقد عرفنا أن فى السماء جنةً وناراً ، وأُقسم لو صُغِّرت الجنة وجُعلت أرضيةً تُلائم حياة رجل من الناس ثم عُجِّلت له فى هذه الحياة الدنيا لما كانت بمتاعها ولذاتها وفنون الجمال

فيها الا المرأةَ التي يحبها. أما الجحيم فلا أراني في حاجة الى برهان على أنها صغُرت وتجزأت واندفقت على الأرض شُعَلاً في أسماء من أسماء النساء . . . .

لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة بل لا أدري كيف أفهمها ، فمن حيثُما نظرتُ اليها لاأراها تبتدىء الا من فوق العقل فأنظر اليها ساكتا على أنها هي لاتنظر فيّ الا متكلمة

«*»

ياملوّنَ السماء والوجوه الجميلة ؛ يامصوّرَ الرّوعة والحب ؛ يا مُبدعَ هذه المعانى الظاهرة إبداعاً جعلها لدقّتها كأنها لم تظهر

يا موجد القلب كما هو لتملأه السماء إيماناً والجمال حباً والمعانى فكراً منهما معاً

و ياخالق الانسانية العالية في الانسان الكامل من ايمانه وحبه وفكره

نعرف هذه السماء بماوسِعَتْ للايمان ، وهذه الطبيعة

بما رُحبتْ للفكر ؛ فهل المرأة وحدها هي التى للحب ؟

تباركتَ اذ جعلت ما وراء الطبيعة فوق الفكر مهما سما ، وجعلتَ الطبيعة حول الفكر مهما اتّسع ، وأنزلت المرأة بين المنزلتين مهما كانت

ان من النساء ما يُفهْمَ ثم يعلو فى معانيه الجميلة الى ان يمتنع ، ومن النساء ما يُفهْمَ ثم يَسفُل فى معانيه الخسيسة الى ان يَبتْذِل

ان من المرأة ما يُحَبُّ الى أَن يلتحق بالايمان ، ومن المرأة ما يُكرَه الى أن يلتحق بالكفر

« * »

من المرأة حُلوٌ لذيذ يُؤكل منه بلا شِبَع ؛ ومن المرأة مُرٌّ كَرِيه يُشبَع منه بلا أكل .....



الفصل الثاني

النجمة الهاوية

طائفة من الخواطر في طائفة من النساء

وتَرَقْرَقَ السحاب فاذا هو كنَضْح الدم[1] واذاهو يَفور فوْرُه[2] فبَانَ كأَنما يتدفّق من طَعْنة أري دَمها ولا أرى موضعها لأَن هذا الشلاَّل الأَحمر يتفجر منها

ورأيتها هي طالعةً كالشمس حين تغرب محمَّرة يَتَغالبُ طرَفا الليل والنهارعليها ففيها أواخرُ النور وأوائل الظُلمة، وسوادها يمشي فى بياضها[3] ....

قلت يوماً فى صفة احدى القصائد البديعة: إنها فَنٌّ من الشعر، وفى احدى الصور المُحكمة: إنها فن من التصوير، وفى تلك الجميلة: إنها فن من المرأة. أما الآن فقد عرفنا أن اصفرار الشمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها

ويقول العرب: امرأةٌ مَجْلوّة، ويفسّرون ذلك بأنك

(١) كخروج الدم وسيلانه (٢) غضبه (٣) انظر كتاب « رسائل الأحزان »

اذا رامَقْتَ فيها الطرفَ [١] جال ، يَعْنُون أنها من جمالها ذاتُ شعاع فيجول الطرف فيها لأجل شعاعها وبَرِيقها .
أفلا يجوز لنا أن نزيد فى هذه اللغة : وامرأةٌ صَدِئة ونفسرها بانها هي التي اذا اتصلتَ بها تركتْ مادة الصدأ على روحك اللامع لانها كهذا الصدأ طِينَتْ على طِينَتها [٢] ؟

« * »

لست أريد أن أصنع فى هذا الفصل كتابةً حتى لا أُدير الكلامَ على شيء فقد مُسِخَتْ تلك النفس فى نفسي فخلَصَتْ لي منها هذه الكلمة الجميلة : تتمُّ آمالنا حين لا نؤمِّل . ولكني مرسلٌ مطرةَ سحابي تَهْطِلُ ما هطَلَتْ . فالمرأة الأولى أضاعت على الرجل جنتَه ومن نَسْلها نساءٌ يُضيِّعن على الرجل الجنة وخيالها . . . ولو استطاعت الأرض ان تَفِرَّ من تحت قدميْ مخلوق براءةً منه لكان أول من تنْخَزِل تحت رجليه [٣] واحدة من هذا النوع

---

(١) أرسلت فيها النظر (٢) أي جبلت على جبلتها وطبعها والصدأ أشبه بالطينة فى معدنه (٣) أي تنقطع وتنخسف

مِلحُ الله لا يحلو أبداً فماذا تصنعُ في نفس لو سالت لكانت بُحَيرَة

«*»

سرورُك من الصديق الطيّب لا يكلفك الا أن تستمتع به وأنتَ لا تخسر فيه اذا زال الا أنه زال ، فاذا لم يكن الطيّب فى نفسه طيّبا كذلك فى أثره فهو الخبيث

«*»

بعضُ النساء تَنْقصُ بها الحزنَ ، وبعضهن تغيّر بها الحزن ، وبعضهن . . . . تتمم بها حزنك

«*»

لا يتّقِدُ الشجر الأَخضر الا من أشد النار سَعيراً وتتقد المرأة الجميلة حتى من أشعة وهمها

«*»

فى قلب الرجل الفُ باب يدخلُ منها كل يوم ألفُ شيء ، ولكن حين تدخل المرأة من أحدها لا ترضى إلا أَن تغلقها كلّها ....

«*»

النساء مَنْجَمُ السعادة ، فرجلٌ واحد لا يكاد يمدُّ يدَه حتى يضعَها على الجوهرة المُشْرِقَةِ . ومائة رجُل يغربلون حصى المرأة وترابَها ليجدوا فيها شَذْرَةً تلمع

«*»

قال لي زوجٌ عن امرأته : أنا وهي ينتج منهما أنا بِلا أنا . . . .

«*»

لم يخلق الله أحداً مكروهاً قط ، وإنما نبغض من الناس الصُّوَرَ المكروهة التي يحْدِثونها ؛ فعملك شخصُك الحقيقي

«*»

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تثور يوماً فلا تدل ثورتُها على شيء إلا كما يدل المُستَنْقَعُ على أن الوحْلَ في قاعه ؛ فأغضِبِ المرأةَ تَعرفْها

«*»

الحبيبُ من تَلْتهمه بكل حواسك ، فاذا رأيتَه فقد رأيتَه وسمعتَه وذُقته ولمستَه وشممتَه ، والبغيض من تَقيئه من كل حواسك ....

«*»

فى المرأة حقيقةٌ ولكنها لن تعرفَها الا بفكر رجل ، فالكاملة من لا تسيء أحداً والا أساءت الى حقيقتها

«*»

كلُّ ما يخطُرُ ببالك فقَدِّرْ معه ضِدَّه اذا كنت تفكر فى الحب والبغض

«*»

يجب على المدارس حين تعلِّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها

«*»

الخبيثاتُ للخبيثين ، قيل لأرض حَطيبةٍ[1] : من تشتهين أن يكون زوجك لو كنتِ امرأة ؟ قالت .... الفأس

(١) أي كثيرة الحطب لخبث تربتها

«*»

تجاورت شجرةٌ من الحَسَك [١] وشجرة من الورد، فزَهَتْ الوردة زَهْواً عاطراً بطبيعة العِطْر الذى فى مادتها. فقالت لها الحَسَكَة وَيحكِ ما هذا الزَّهْوُ الذي أفسدتِ به محلكِ من نفسي؟ قالت الوردة فى كلامٍ هو عِطْرٌ آخر: لا تُتعبي نفسكِ فى تحقيرى فلست أفهم لغةَ الشوك الا اذا كان يُنبت الورد

«*»

قد يتغيّر الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له: يا أنتَ الأولَ، يا أنتَ الثاني [٢]. ولكنى عرفت رجلا قال لامرأته يا أنتِ الخامسةَ والخمسين

«*»

قيل لحيَّة سامَّة: أكان يسركِ لو خُلقتِ امرأة؟ قالت: فأنا امرأة غير أن سمّي في الناب وسمّها فى لسانها

«*»

(١) الحسك هو الشوك وسميت به شجرته مجازا
(٢) يريد تغير الطباع وفتور النفس وما أشبه ذلك

ما الأَمَ الشجرةَ التى لو نطقت لشَتَمَتْ من يسقيها

« * »

لا يفكِّر الرجل فيما لم يَحدُثْ على اعتبار أنه حادث الا في شيئين : المصيبةُ التي يكرهها والمرأة التي يحبها

« * »

قال رجل حكيم : اذا بلغك عن أخيك ما تكره فاطلب له من عُذرٍ واحد الى سبعين عذراً ، فان لم تجد فقل ولعل له عذراً لا أعرفه . وقالت امرأة حكيمة . . . اذا بلغكِ عن رجل ما تكرهين فاطلبي له من ذنب واحد الى سبعين ذنباً ثم قولي ولعل له ذنوباً لا أعرفها . . . زوِّجوا الحكمتين أيها الناس . . .

« * »

يُخَيَّل إليَّ أن عقل بعض النساء مثل وجوههن المزوَّرة . تحته ما تحته وليس عليه إلا « غُبارٌ » من العقل

« * »

من المستحيل أن نُنكِر النار وإن كان شررُها

ينطفىء كحَبَبِ الكأس ؛ ومن المستحيل أن تَلْذَعَ الخمر وإن كان حَبَبُها يَمُوجُ موجَ الشرر . ولكن من الممكن أن تجد في امرأة واحدة لذعَ النار وإسكارَ الخمر معاً وهي شيطانة النساء يجتمع مُمكنها من مستحيلين

« * »

شرُّ النساء عندك وعندي هي التي تجملك تتنبَّه الى ما في النساء من الشر

« * »

قال بعضهم لزاهد عظيم : إني رأيتك الليلةَ تمشي في الجنة . فقال له الزاهد ويحك أمَا وجد الشيطان أحداً يَسْخَرَ منه غيري وغيرك . وقال رجل لامرأة : إني رأيتكِ الليلةفي الجنة . فقالت له ويحك تقولها من غير أن تشكر فضلي عليك مع أني أُدخلتك الجنة . . .

« * »

أشأمُ النساء على نفسها من لا تُحَبُّ ولا تُبْغَض ، واشأمهن على الناس من اذا عدَّتْ مُبغضيها لا تَعُدُّ الا

الذين أحبوها

« * »

يا هـذه لا أَدري ما تقولين ؛ ولـكنَّ الحقيقة التى أعرفها أَن نفس المرأة اذا اتَّسخَتْ كان كلامُها في حاجة الى أن يُغْسَل بالماء والصابون وهَيْهات . . .

« * »

يا مَنْ على الحبِّ يَنْسَانَا ونَذكرُهُ
لَسَوْفَ تَذْكُرُنا يوماً وَنَنْساكا
إنَّ الظلامَ الذي يَجلوكَ يا قمرٌ
له صباحٌ متى تُدْرِكْهُ أخفاكا



*

الفصل الثالث

السجين

وتغَيَّمَ سحابي هذه المرة واُطبقَتْ في حواشيه سوداءُ على سوداء [١] كأَنه بجمع همٍّ قلب باتَ الأَلمُ من عناصر حياته . رأيتُ في سَوائِهِ [٢] رجلا أُلبِسَ الذِّلةَ ووُسِمَ الخسفَ [٣] قد انتصبَ كالجِذْعِ المشتعل وله فروعٌ من الدخان وهو هذا السجين الذى أَقُصُّ خبره

أَلاَ إنما الانسان من الأَقدار كالنبات بين الفأس التي تَحرُثُ له والمِنْجَلِ الذي يحصد فيه ، وماهذه الدنيا إلا هذانِ فلا يحسبنَّ العود الطالعُ أَنه شيءٌ غيرُ العود المقطوع

كنت يوماً في محكمة كذا ، فجاءَ الجندُ بسجين قُرَويّ كالمارد يزعمون أَنهُ سَبُعٌ من سِباع القُرى وشيطان من شياطين الليل [٤] وقد غلّوا يديه بسلسلةٍ من الحديد

(١) أي غيمة سوداء على غيمة أخرى (٢) أي في وسطه
(٣) سامه الخسف وأسامه أولاه الهوان والذل
(٤) أي لص فاتك وهي كناية

لعل فَقَار ظهره أصلبُ منها

خُلق في هيئة مُستَصعِبَة شديدة المِراس كالجمرة المتقدة، ولكن الحياة مازالت به من نكد الى أنكدَ منهُ حتى طمرَته في رَمادها لأن لهُ عثرةً هو عاثِرُها يوماً

وخُلق في مِزاجهِ وعَصَبهِ من المادة المشتعلةِ حتى اذا التهب رأت منه الحياة شكلها القويَّ الجميل في الرجل المشبوب يُرسل فروعَهُ النارية على ماحولهُ ؛ فاذا خمد رأى منهُ الموتُ شكلهُ العنيفَ الجميل في الجمرة العليلة الذابلة حين تمرُّ أنفاس الهواء عليها

رجلٌ طُوالٌ اذا انتصب والناسُ وُقوفٌ حولهُ رأيتهم معه أشبهَ بهم قُعوداً مما يفرُعُهم من طولهِ وامتداد قامته ؛ مجدولُ الذراعين مَشبُوحُ العظام [1] قد تباعَدَ مَنكِباهُ وتراءى بينهما صدرٌ مُصفَّح كل ثدي من ثدييهِ يجمع قوةَ أسد

وهو في توثيق جسمهِ وتفرُّع بعضهِ من بعض كأنهُ

(١) الشبح عرض العظام وهو من علامة القوة والصلابة

شجرةُ رجال كل فرع منها بَطَلٌ منكَر، وهو في إحكام تركيبهِ واندماج بعضهِ في بعض كأنه تمثالٌ أُفرغ من حديد فتوزَّعت فيهِ الـكُتَلُ هنا وهنا، وكل ما فيه من الإجمال والتفصيل أنه جسم آدميٌّ يمثل للأعين ناموس «بقاء الأَنسب»

وجاؤوا به والناس مُتقصِّفون عليه من ازدحامهم ينثني بعضهم على بعض لينظروا الى الرجل الكامل بل الذى نَقَص حين كمُل، وهو مُطِلّ عليهم.... كأنه عبارة مُبهَمة في صحيفة وكأنهم من حولهِ شروحٌ وتفاسيرُ رُقِمَتْ على حاشيتها بخط دقيق. وقف كالشيء الغامض يروعهم بغموضهِ أضعافَ ما يعجبهم برَوْعته وكانوا كالشعاع خيطاً يظهر من خيط وكان كالظلمة نَسيجا من قطعة واحدة؛ وأحسبه لو صاح بهم صيحةَ البأس لسقطت قلوبُهم من علائقها سقوط أوراق الشجر في قاصِفٍ من الريح وكأن ما بينهم وبينه في الروعة والقوة كالذي تقيسه بين الف متر انخسفت تحت الارض والف متر انبثقت فوقها فالبعدُ بين

طرفيها مضاعفُ كل منهما . وما زالت سُنَّة الله أن تتضاعفَ الفروق دائمًا بين الاشياء التي لا يمكن أن تتفق حتى لا يمكن أبداً أن تتفق

أما أنا فما يعجبني شيء ماتعجبني القوةُ السليمة في رجل شجاع والضعفُ السليم في امرأة جميلة وكما أنظر اكثرَ الوقت بالنظر الساكن المفكر ، أحب أن أنظر أحياناً بمثل البرق المتطاير من عيني أسد مفترس أو الازورار الزائغ في عيني جواد جَمُوح . وخيرُ الناس في رأيي من غسله تاريخُ أهله بضوء السماء وضوء السيوف معاً (١)

« * »

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يمسكهُ الحديد الذي يَعَضُّ على يديهِ بل ذنبهُ الذي يعض على قلبهِ ، ولعلهُ قَتَل ضعيفاً مظلوماً فتحول ضعف القتيل وذلته ومسكنتهُ الى أرواح منتقمة من كبريائهِ تدسُّ في ضميره عنصرَ الجبن البغيض اليهِ وتربط الروحَ الميتة الى روحهِ فلا ينزع ظلمتها

---

(١) يريد بهذا أن يكون من أجداده الابطال والحكماء واهل العلم

عن قلبهِ كلُّ مافي النهار من الضوء ولا يجـد النورَ الا في الإقرار والندم فيسكن اليها. وتبيّنتهُ فرأيته ساكناً سكونَ الاستهزاء كأنهُ على ثقة مما خفي عنهُ تشبه ثقته بما وَضَح لهُ ، أو هو لتماستهِ أخفق اكثر مما فاز ؛ والانسان متى كثر إخفاقهُ صارت الخيبةُ في الأعمال هي الخطة التي يبنى عليها ؛ أو لا هـذه ولا تلك ولكنها الشجاعة تجعل المطمئن الى غاية الحياة لايبالى بكل وسائل هـذه الغاية المحتومة

وقيل إنهُ بعد أن غَمس يدهُ في الدم طار على وجهه تَلْفِظُه الأرض من جهة الى جهة حتى أسلمته يدُ النقمة الى يد العدل

« * »

ترى لو سألنا الوحشَ حين يفترس انساناً : ماذا وقع في نفسك منهُ حتى ثُرتَ به وعدوتَ عليهِ ؟ أكان يقول ـ لو أنطقهُ الله — إلاّ أنه أبصر فى هذا المخلوق وحشاً ماكراً خبيثاً إن يكن في دِقة ناب الثعبان فهو في خطَر سمّه ؛ وانه

لو رأى عليهِ سَمتَ إنسان وأبصر له نظرةَ انسانٍ وأحس منهُ قلبَ انسانٍ لَلَجأَ من وحشيته الى الانسانية التي فيهِ إذ الإنسانية هي حَرَمُ الأمن الالهيّ الذي توضع عندهُ كل الاسلحة حتى أسلحة الوحوش ، وإذ الانسان هو محرابُها الذي تضرع عندهُ كل القوى حتى قوى الطبيعة

كأنما كَبُرت الانسانيةُ حتى عن أن تكون شيئاً انسانيًّا فما هي فيمن ترى من حَشْوُ جلودهم ناسٌ وحشوُ نفوسهم بهائم .... انما الانسانيـة هناك بعد أن تخرج بنفسك من حدود الشهوات الارضية وترفعها فوق هذه الطبيعة ، وبعد أن تُعانيَ في شَقِّ طبقات النفس الحريصة طَبَقاً عن طبَق مثلَ الذي يعانيهِ من يحفر في أصلب أحجار الارض الى غَوْر بعيد. فهناك لا تجد الاشياءَ بل معانيَها وأسرارَها ، ولا الحوادثَ بل أسبابها وأقدارَها ، ولا نيرانَ النفس بل أضواءَها وأنوارَها ؛ فترجع من ثَمَّ وفيك الناموسُ الذي يُنبِتُ الخُضْرة من العود المغْبَرّ [1] ، ويُخرج النارَ

(١) الجاف من الشدة

من الشجر المخضرّ ، ويجعلك لبحر هذا الأزل كأنك مكانٌ من البر

« * »

كان السجين في بَهْو المحكمة فصعد به الجند الى غرفة « قاضي الإحالة » (١) ووَقَفوهُ ساعة على مَطَلٍّ بين يديهِ فِناء واسع أسفلَ منهُ . فتحوّل الناس الى هذا الفناء وتحولتُ معهم وكان البطل يلوح كطرف المِئْذَنة فما هو الا أن أدار عينيه في الناس حتى استقرَّ بهما على ناحية فنظرتُ حيث نظر فاذا داء قلبه وقلبِ كل من رأى ستٌ نساء وفتًى وطفلان ورضيع ؛ فأما واحدة منهن فأمه وأما الثانية فزوجُهُ والباقيات أخواته والفتى فرعُ أبيهِ (٢) ثم الطفلان والرضيع أولادهُ وقد جاءوا يودّعونه ويستودعونه وحسبوا أن ليس بين رجلهم و بين الموت الا هذا القاضي الذي مثَلَ ببابهِ فطرح الموتُ ظلَّ فكره على وجوههم

(١) هو القاضي الذي يسمع القضية فان رأي البراءة حكم بها والا أحال المجرم على محكمة الجنايات لتقضي في أمره

(٢) أخوه وهي كناية

وأخذ الرعبُ مأخذَهُ فيهم فما كانوا الا كما يجتمع أهل الميت حول الميت

رأيتُ أمه المفجوعةَ جالسة لا تحملها رجلاها وعلى صدرها ذلك الرضيعُ تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت اليهِ ، وتشدُّ عليهِ بيديها شَدَّةَ الجزَع والحنان كما لو كانت تحسبهُ صِلةً بينها وبين ابنها تنقل هذه الشدة بعينها اليه كما تنقل الكهرباء حركةَ المتحرك ، وقد انطلقت دموعها وفى كل نظرة الى نكبة وحيدها مادةٌ جديدة للبكاء

وهي تنحني على قلبها حتى يدانيَ وجهُها الأرضَ كأنها شعرت بهِ ينكسر فمالت ليلتئم صدعٌ منهُ على صدَع ؛ ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشقّ قلبها فتضغطه بانحناءةٍ اخرى وهي فى كل ذلك مرسِلةٌ عينيها تمطر مطراً . وكانت حين تنكُفُ دمعَها (١) وتُنَحِّيهِ عن خديها يتساقط من فروج أصابعها كأنه عددُ أيام شقائها

وَحسِبَ الرضيع أن هذه الحركة هَدْهَدَةٌ (٢) من

(١) النكف أخذ الدمع عن الخد بالاصابع
(٢) هدهدت الام ابنها حركته لينام

أمهِ لينام فنام هنيئاً على صدرها وأدفأهُ غليانُ هذا الصدر فضاعف لذةَ أحلامهِ . وانما هو طفل سماوي لايزال مَسُّ يدِ الله على جلده الرطب فلو زَفرت حولهُ جهنم فأحرقته لكفنتهُ نسمة من نَسمات الجنة ، وياسعادةَ من يستطيع بطبيعتهِ ان ينقطع من وسائل نفسه الى وسائل الله (١)

وأما زوجة الرجل وهي شابَّةٌ جزلة الخَلْق ناضرةُ الصِّبا تركها الحزنُ كالمرآة المهمَلة تدل أنوارُ بريقها على مواضع الصدأ منها — فكانت واقفة تحمل على رأسها بُرْمةً أعدت فيها ماتعرف ان سيدها يشتهيهِ من طعامه ، كأنها تريد ان تجعل من هذا الطعام الذي يحبهُ رسالةً من الحب بين نفسها و نفسهِ ترسلها اليه في سجنهِ . ولما استقرت عينهُ عليها أرسلت كل عواطفها في مجاري دمعها ، وقد أيقنت أنه قُطع بها دون عِمادِها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذهبي الذي لاتملك غيره ؛ فكانت تبكى لكل معنى من هذه المعاني بكاءً بعينه ، وتبكي على قدر وفائها

(١) والعجيب أنه لايستطيع ذلك الا اصغر من في الانسانية من أطفالها وأعظم من فيها من أنبيائها

الذي لاحدّ لهُ وحبها الذي لاصبرَ معهُ ومصيبتها التي لا سبب فيها من أسباب العَزاء، وكل نظراتها كانت تقول لزوجها : لكَ ما أبكي(١)

وأحاط بها أخَواته الاربع صُفرَ الوجوه ساهماتِ الخدود ذابلاتِ الأعين كأنما تدلّين الى الارض من مشنقة. والبنت فُطِمة من أمها ولكنها في الحزن على أبيها أو أخيها بعدة أمهات ، فهل تُراها لا تستوفي في بطن أمها الاّ نصفَ حياتها كيأنها في الدنيا ٠٠٠٠٠ ويبقى النصفُ الآخر في أخيها فان مرض خامَرَها نصفُ الداء وان مات وقع عليها نصف الموت ولا يكون حزنها عليهِ الا هدّة في حياتها لا يمكن أن تُبنى ؟

أما أخو السجين فوقف ناحيةً عن النساء وجعل يبكي ويَعْصِر عينيه ولا أدري ان كانت الفِطرةُ هي التي أبعدته عنهن حتى لا يشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقا كهذه الخيوط من الدمع . أم هو انتَحى جانبا كيلا تتصل بهِ

(١) أي ابكي لك وحدك لا لخاصة نفسي

عَدوى الضعف وليستطيع أن يبكي على أعين الرجال بكاء رجل في دمعه شيء من القوة . أم هو انتَبَذَ مكانَه ليتكلم مع آلامهِ فان الآلام تتكلم ولكن بإحساسنا، وكان لهُ مع أوجاعِ قلبه حديث طويل ؟

وأما الولَدان فرَبَضَ أحدهما في الأرض ووقف الآخر لانه أكبر منهُ قليلا وكلاهما ضامرُ الوجه مُتَقَبِّضٌ منكسرٌ من هَوْل ما يرى . وكانت عيونهما الحائرةُ تدل على أنهما بإزاء حالة غير مفهومة فأبوهما حي لم يمت وعيونُهما مكتحلة بعينيه وليس بينهما وبينهُ إلا ارتفاعُ شجرة .... فلِمَ لا يصلان اليه أو يصل اليهما وعلامَ هذه المَنَاحةُ ولا ميت وفيمَ هذا الجمعُ ولا معركة ؟ أخذا يدرسان الدنيا كلها في مُعْضِلتها الاولى من حيث لا يفهمان شيئاً وبدأ العدل الانسانيُّ الرحيم يُخَشِّن صدرَهما ليعلما ذاتَ يوم معنى الظلم الذي يكون مرة باعثاً على العدل ويكون مرة هو إياه

ألا ويحكِ أيتها الانسانية ظالمةً أو مظلومة ، ان أمامك من هذين الطفلين الموتورين آتي تصوير قد نقلتا

هذه الصورةَ وستحفظانها الى يوم ما ......

صورة بَشِعة على تلوينها إذ لا سـوادَ فيها الا من الحظوظ ولا بياضَ الا من الدموع ولا صُفرة الا من الوجوه ولا حُمرة الا من لهب القلب. وسيمضي كل شيء لسبيلهِ فيُنْسى ولا تُنسى لانها مادة عـامية مصوَّرة كرسم تعليميّ في جغرافيا الجريمة

هي اليوم صورة طفل فهي للحفظ، وغـداً صورة شابّ فهي للعلم، وبعد غد صورةُ رجل فهي .... للعمل

« * »

كان السجين كالميت تراهُ تحت أعين أهله وهو في عالَم آخر، وبين أيديهم وكأنهُ حسرةٌ بعد أمل ضاع. وكان كلاًّ منهم سَمْعَ أذنيهِ[1] ولكنه من معنى ما يحب على بعد ما بينهُ وبين المستحيل. ابتلاهُ الله بالجريمة ثم ابتلاهُ بالقصاص ثم تم عليهما بمصيبة في مقدار عذابهما معاً وهي رؤيةُ أهله جميعاً في حالة لايملك فيها قدرةً ولا صبرا

(١) أي يصل الى سمعه فيتميز

إنما يُمسك الانسانَ قوتان : قدرة يمضي بها فيدركه فيطمئن ، أو صبر يقعد به فيعجز فيطمئن . ولكنه متى امتُحِنَ بشيء لا يقدر عليه وهو مع ذلك لا يصبر عنه فقد وضعه الله من ثَمّ في حالة لا إنسانية ولا وحشية ولا دونهما ولا فوقهما إذ يسلّط عليه كل القُوى التي في داخله تدفعه بأشد العنف الى القوى المحيطة به ، ويُغرى المحيطةَ بهِ ترميه الى التي في داخله فما إن يزال مرتطِماً بين هـذه وتلك وكأنه لشدة وقعهما يُحطَّم تحطيماً بين مِطْرقتين

وهذه البليةُ من العذاب لاتتفق الا في أشد مايكره الانسان حين لايجد منه مَفرًّا ولا يُطيق عليه مَقرًّا ؛ وفي أشد ما يحب حين لايقدر الى حد اليأس ولا يصبر الى حد الجنون . وأحسبُ ما في الارض منتحرٌ قطّ أزهق روحه — ان لم يكن مجنوناً — الا وهو في احدى هاتين الحالتين . فان وجدتَ من يُثَبِّته الله على حالة منهما وجدته كالبقية من الحريق إن لم تكن احترقت وذهبت فقد

احترقت وبقيت

« ٥ »

أَجرم السجين فأُخِذ بذنبه فما ذنوبُ هؤلاء جميعاً ؟
أهي احدى الحقائق العُليا الغامضة التي من أجل غموضها واستبهام حكمتها يقول الحائرون كلّ شيءٍ هو كل شيء ؟ ويقول المنكِرون لاشيءَ في كل شيءٍ ؛ ويقول المؤمنون كل شيء فيه شيء ؟

أم هي الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها وإن أصبح الناس لا يفهمونها اذ لا تحتاج الى فهم وانما هم موكَّلون بما خفي ودقّ كدَأْبِ هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر في دقيق المباحث وعويص التراكيب ثم لا ينتهون من نتائجها إلا الى النواميس المكشوفة انكشافَ النور لكل ذي عين تبصر . أهي الحقيقة السهلة التي تجزأت من أجلها آية الله فيقول المنكرون لا علم ؛ ويقول الحائرون لا علم لنا ؛ ويقول المؤمنون لا علم لنا إلاَّ ما علَّمْتَنا (١)

(١) في القرآن الكريم عن لسان الملائكة يخاطبون الله عز وجل « قالوا

ألا أيها القلبُ الانسانيُّ المعجز . ان أيامك كلَّها مُضِيٌّ في سبيل الموت الأُول كما هي مضي في سبيل الحياة الأخرى فأنت تسير في طريقين معاً وهذه هي معجزتك التي لا تُفهم (١)

ونحن من ظلام الدنيا ومن بحثنا عن الحكمة الالهية الصريحة بوسائلنا الانسانية العاجزة كالذى يبغي أن تَطلُعَ عليه الشمس في ليلهِ ويبقَى لهُ مع ذلك ظلام الليل . يريد مستحيلين لا مستحيلاً واحداً . وهذا هو عقلنا الذي لا يُعقَل

لو أراد الله بك خيراً أيها القلب المسكين لما جعل شقاءكَ يُربِّي فيك تربيةً كما تربي أنت في الانسان وكما تُربي الانسان في الحياة . فالحب والرحمة والشفقة والصداقة وكل المعاني التي هي روابطُ الانسانية في اشتباكها ؛ هذه كلها هي وسائل مَسَرَّتك في حالة ، وهي بأعيانها

لاعلم لنا الا ما علمتنا » وهو قول الملائكة فكيف بالناس ؟

(١) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها ولهذه الحياة الدنيا واجباتها وأعمالها وقلما أشبهت واحدة واحدة والانسان يعمل لهما معا ويريدهما معا

أسبابُ عذابك فى حالة اخرى

جذورٌ استسَرَّ بها الغيب (١) وفى أيدينا فروعُها وأوراقُها وثمَراتها . تلك هي شجرةُ الحياة فاذا حلوها ومرُّها وما يَفِيءُ من ظلها وما ينْحَسِر، وتُشذَّب (٢) منها فتنمو وتزيد وتُغير من أشكالها ونلوي أو نكسر من فروعها ما شئنا ونترك من ثمرها ما ينضج الى أن ينضج أو نتناولهُ فجًّا لا يُساغ ولا يُطعَم . أما أن نجعل مرها حلواً ونرسل المادة الحلوة بأيدينا فى جذور الفروع المرة التي لا تؤتي ثمرَها إلا عِلَلاً ومصائبَ ونكبَاتٍ وموتاً، فهذا ما لا سبيل اليهِ ولا يُغْني فيه غنَاء ولا تبلغ منهُ حيلة الاَّ اذا استطعنا أن نُطفيء الفرعَ الأحمر من النار فيتحولَ في أيدينا الى شيء آخر غير الفرع الأسود من الفحم

تأتي النعمة فتُدنِى الاقدار من يدك فرعَ الثمر الحلو وأنت لا ترى جذره ولا تملكهُ . ثم تتحول فاذا يدُك على فرع الثمر المر وأنت كذلك لا ترى ولا تملك ، ألا فاعلم

(١) خفيت فيه (٢) تشذيب الشجر تقطيع فروعه لينمو

أن الايمان هو الثقة بان الفرعين كليهما يَصلانِك بالله ؛ فالحلو فرعُ عبادته بالحمد والشكر وهو الأحلى عندك حين تذوقهُ بالحِس ، والمرُّ فرعُ عبادته بالصبر والرضا وهو الأحلى حين تذوقهُ بالروح

القلبُ الانسانى ميدان تقتتل فيه القُوى الأرضية والسماوية فلا بد فى النصر والانخذال جميعاً من الدم يذهب كلّهُ أو بعضهُ ؛ والجِراح تبرأ أو لا تبرأ ؛ والآلام تُنسى أو لا تنسى

لا بدَّ ؛ لا بدَّ ؛ لا بدّ

« * »

وجاءت حافلة السجن فركبها السجين ومضت تجرها البغالُ طائعةً منقادةً كما تنقاد اذا هي جرت مركبةَ ملك وذهبت وما تحفلُ بشيءٍ من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها ما تحفلُ بهذا السوط الدقيق المسلَّط على ظهورها .... أما أهلُ الرجل فتهالكوا وراء العربة ، فالشاب يَخْطِفُ في عَدوِه خطفاً مُنكَراً كأن قربهُ منها يوصِّل بعضَ أنفاس

الحرية الى أخيهِ ؛ والنسوة يَهْتِكْنَ في جريهنّ وكلما أبعدت الحافلة علا صُراخُهن ليبلغ السجينَ منهن شيء ما؛ أما الطفلان وجدّتهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ولكن نظرات الجدة ارتمت الى العربة فلما غابت عنها ارتمت الى السماء

وأما الرضيعُ، هذا اليتيمُ في حياة ابيهِ، هذا المسكينُ الذي ابتدأ تاريخه بجريمة لا يدَ له فيها، هذا الضعيف الذي لا يزال جلدُه أرقّ ديباجةً من ورق الزّهر ومع ذلك تُدق فيهِ منذ الآن مساميرُ الفقر واليُتم والضياع. أما الرضيعُ اليتيمُ المسكينُ الضعيفُ فكان وحدَهُ بين هذه المصائب الماحقةِ دليلا على الأمل الانساني في رحمة الله إذ فتح عينيهِ للنور وابتسم

« ٥ »

نَزَتْ كَبِدي (١) لما رأيتُ الحب الهالك يَسْتَنْفِضُ امرأةَ السجين ويسوقها جامحةً في عِنَان الغيظ تترامى على وجهها. كانت المرأة غريقة في يأسها وكان شاطىء

(١) اضطربت في مكانها من الاشفاق ونحوه

الأَمل يفرُّ أمام عينيها فراراً لأن بينها وبينه موجةَ دمعها

وقد صدَع الحب في قلبها صَدْعاليغرزَ فيه الشوكةَ المُستَجِدَّةَ من ألم الفراق لمن تحبه ؛ تلك الشوكةالتي مانفذتْ قلباً فاستقرت فيه إلا جعلت الحياة كلَّها معانيَ شائكة حتى تُحطَمَ أو تُنْتَزَع

امرأةوالهَة فيها نفسُهاالمعذَّبةُ وفي نفسهارجلُها المعذَّب وبين هذين طفلُها اليتيم الذي يقتضيها أن تظلَّحانيةً عليه حنوَّأبوين ؛ فهي تجمع على قلبها عذابَ ثلاثة قلوب وتتألم بنفسها الواحدة ألمَ الرثاء لزوجها الذي نزَلَتْ به العقوبةُ في جسمه وروحه ؛ وألمَ الإشفاق على مجدها الذي نُصِبَ على أعين الشامتين في موضع الذِّلة ؛ وألمَ الرحمة لطفلها الذي بلغ سنّ الهم وهو لايزالُ في الثَّدي (١) وألمَ اللَّوعة لحياتها التي لم تعد الأيام تناجيها بغيرلغة الدمع ، وألمَ الأسى على شبابها الذي تساقطت آمالُه كما تَحُط الشجرةُ الخضراء وراقَها لتَجِفّ

(١) أي الرضيع وتقول مات في الثدي اذا مات رضيعا

ألا يا ماءَ البحر ما أَنت على أرض من المِلْح ؛ فبماذا أصبحتَ زُعَاقاً (١) لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماءَ البحر ذابت فيك الحكمةُ المِلْحة .....

« * »

ما الفراقُ الا أن تشعر الأَرواح المفارقةُ أُحبتَها بمسّ الفناء لان أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففي الموت يُمَس وجودُنا ليتحطم ، وفي الفراق يُمس ليلتوي . وكأن الذي يقبض الروحَ في كفه حين موتها ، هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه

وإنما الحبيبُ وجودُ حبيبه لأن فيه عواطفَه ، فعند الفراق تُنْتَزَع قطعةٌ من وجودنا فنرجع باكين ونجلس في كل مكان محزونين كأن في القلوب معنىً من المَنَاحة على معنىً من الموت

وكل ما فيه الحبُّ فهو وحده الحياةُ ولوكان صغيراً

(١) الزعاق الماء المر لايطاق شربه وتأتيه المرارة من شدة الملوحة

لا خَطرَ له ولو كان خسيساً لا قيمةَ له ، كان الحبيب يتخذ في وجودنا صورةً معنوية من القلب ؛ والقلبُ على صغره يخرج منه كلُّ الدم ويعود اليه كل الدم

في الحب يتعلم القلب كيف يتألم بالمعاني التي يُجَرِدها من أشخاصها المحبوبة وكانت كامنةً فيهم ، وبالفراق يتعلم القلب كيف يتوجع بالمعاني التي يجردها هو من نفسه وكانت كامنةً فيه . فترى العمر يَتَسَلَّلُ يوما فيوما ولا نَشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم نَبَّه القلبُ فينا بغتةً معنى الزمن الراحل فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطاير عدة سنينَ من الحياة . وترى العمر يمتلىء شيئا فشيئا ولا نُحس الزيادةَ كيف تزيد ؛ فاذا فارقَنا من نحبهم نبَّه القلب فينا معنى الفراغ فكان من الفراق على أكبادنا ظمأ كظمأ السِّقَاءِ الذي فرغ ماؤه فجفّ وكان الفِراقُ جَفَاءا

ألاَ ياطائر الحب إن لك اذا طرتَ جناحين فما أقرب من هو على جَناح الفراق ممن هو على جَناح الهجر

الفصل الرابع

﴿ الرَّبيطَة [1] ﴾

واطَّلَعَ في سحابي هـذا الشيطانُ الذي تتلألأ على وجهه مَسْحَةُ مَلَك [2] فهو أخبث الشياطين لأنه يسوق الى الهلاكِ في نُزْهَةَ على شاطيء نهر الحياة

هي فلانة : كانت امرأة فرنسية ربيطةً لرجل عرفتُه قديما لأعرفها منه فأكتب عنها رأيَ العين وأكونَ أفهمَ بها وأدنى الى حقيقتها كما يريد عالم الطبيعة أن يكتب عن بُركان يتَأَجَّجُ فهو يَدْأَفُ اليه [3] يَطَأُ على أرض كأن ترابها حَريق يتنفَّس آخر أنفاسه

ما ساح رجل في العُمران ولا ضرَبَ في مَجْهَلٍ من الأرض ولا ضَلَّ في تِيهٍ منها ولا كشف للناس غَمْضاً من

(١) هي المرأة التي ترتبط بأجر أو بعقد مدني ... في بيت رجل فتنزل منزلة الزوجة على أنها مدبرة بيته ، وتكون ساقطة المعنى شريفة الاسم « Maitresse » وهذا الجنس من النساء طاعون الزواج في هـذا العصر

(٢) كناية من روعة الجمال (٣) يمشي في بطء فوق الدبيب

غُموضها [1] ولا تطوّح في بحر من بحارها الا وأنت واجدٌ من مثل ذلك معانيَ في نفوس النساء ؛ كأن هذه المرأة تمثال مصغر خُلق بمعانيه في مقابلة الأرض بمعانيها ؛ فهي في روح إمّا الرجل الخِصْبُ أو الجدب ، وهي له في الحياة إما المِلْحُ أو العَذْب ، وهي منه العامرُ والخرابُ ولكن في القلب

(*)

كان صاحبنا فتى نَاعِمُ عليه غُرّةُ الشَّباب وقد رقّ حتى كاد يخالط حدّ الانوثة ، ولان حتى قارَبَ أنْ يفوت معنى الرجولة ، وظَرُفَ حتى أوشك أن يكون إنسانا تتفتح في روحه معاني الزهر ؛ ولكنك اذا كنت رجلا صحيحاً أمْرَرْتَه على عينيك كما تمرّ كتابا لا تريد أن تقرأه : فقد تمدن في أوربا ولبثَ عن قومه ما شاء الله [2] ثم رجع اليهم كأن أمه لم تلده وكأن أباه جدّه الأعلى ... فبينه وبين أبيه هذا بضعة أجداد منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو

(١) الغمض المكان المجهول من الارض (٢) أي غاب عنهم تقول لبث عن أهله كذا ثم أتاهم

الهر ... وأصبح يُحس أن كل شيء في هـذا الاجتماع الشرقى مسلَّط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغِلْظة والجفاء والعنَت والأذى كأنه رحمه الله .... ابنُ الضبّاب فلما برز الى هذه الشمس وضَحَا في أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخّر ...

وكان من هؤلاء الفتيان الذين اذا تعلموا في اوربا نَفَوْا جهلهم بالعلم ثم نَفَوا علمهم بجهل آخر ... ثم جاؤنا كحرفَي النفي ما ولا ... فليس منهم الا التكذيب والإنكار والشك ؛ وتراهم أظرفَ وأجمل وأزهى من فَراشة الربيع لايريدون الحياة الا أزهاراً ولا يُطيقونها الا ربيعا ، وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم الا نُقَط من الألوان وأصوات من الطنين ... وأجسامٌ ليس فيها رجالها

«*»

سألت هذا الفتى مرة : أنت مصري ؟ قال ووطني صميم . قلت أفترى انك تصلح في علمك وتهذيبك أن تكون مثالا يتأسّى بك نَشْء بلادك ؟ قال اني لأرجو

ذلك . قلت وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية ومساواتها بالرجل في الحرية المطلقة وبعثها من هذه القبور التي تسمى المنازل ؟ قال ذلك مذهبي . قلت فكيف ترى اذا اقتدى بك المصريون فأصهروا الى الاوربيين وخلطوا الشمل بالشمل ؟ قال لعل ذلك خير الطب لبلادنا فلا معدل عنه في رأيي إذ يأتيها بالدم الجديد ويُدمج في طباعها النظام والدقة ويبني البيوت من داخلها . قلت أحسنتَ بارك الله عليك ؛ فكيف ترى اذا سألناك التسوية وقلنا لك دع أختك تَصبُ الى رجل أوروبي وتتزوج منه إجارةً ... وتأتي به الى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك ثم لتفعل كل امرأة مصرية فعلها فيكون لكم أوربيات ويقوم عليهن أوربيون ... قال أعوذ بالله . قلت فعل الله بك وفعل ، أفيبلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنةَ الله الا اذا رأيتها ملء مملكة ، ولا تعرف حقّ وطنك فيك الا حين تراه غريباً منقطعاً لا حق له في واحد من أهله ، ولا تدرك واجب التضحية بلذتك وشهوات نفسك

الا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت في مثل حال الذَّبيحة تَدْحَصُ برجلها تحت سكين الذابح ؟

قال فما أنا وأمثالي الا شذوذٌ من القاعدة التي يجب أن تبقى أبداً قاعدة . . قلتُ فعليكم غضبُ القاعدة ومَقْتُها وسَخْطُها ، والله لأَن تُفْجَعَ البلاد فيكم جميعاً وتسترکم بالقبور رُمَّةً بعد رُمَّة ، خيرٌ من أن تتقلد منكم بَلِيَّةَ الحياة في اختلاط الأَنساب وارتداد الأَسماء العربية عن دينها (١) وكساد النساء الشرقيات وتخنث الرجال الشرقيين وتدسُّس هذه العُروق الفاحشة الأثيمة في ذرية الوطن .

قال فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها . قلت وكم من امرأة افرنجية هي كَيَّةٌ على قفا صاحبها (٢) . . .

قال فماذا نصنع ونساؤنا جاهلات لا صبر عليهن ؟ قلت أفتُزهِق روحك اذا مرضت أم تطِبُّ لمرضك في أناة وصبر ؛ وهل تفر من وطنك اذا ابتلاك بتضحية أم تثبت

(١) يسمون أولادهم أسماء ينكرها الدين والوطن معاً

(٢) هذه كناية عن المرأة يسكت الناس عنها أمام زوجها فاذا ولى عنهم قالوا في ظهره ما قالوا و . . وكووا قفاه

وتتجلد . ثم ماذا أفدنا من علومكم اذا لم يحمل كل عالم منكم جاهلةً منهن فيعلمها ويثقفها ويُخلِصها إخلاصَ الذهب الصافي ويربح ثواب الوطن فيها . واذا كنتم تهملون نساء بلادكم لانهن جاهلات فحدثني أفلا يزيدهن ذلك جهلا وضياعاً ويضاعف مصيبة البلاد فيهن وفيكم ويكون تركهن الذي قد يُستَصلَح سبباً لما وراءه من الفساد الذي لا اصلاح له . وهل ترون المرأة الوطنية منكم الا كالزهرة نضرتها في غصونها وأوراقها فاذا طرحتها غصونها عمل مَنْبِتُها الاجتماعي فيها وهو التراب حين تتصل به عكسَ ما كان يعمل حين لم يكن يصل اليها الا من فروعها وأوراقها غذاءً يحمل روح الماء وروح الشمس ؟

أما والله إنكم فئةٌ لا تُعد الا في مصائب وطنها وانكم لكالأجنبي مادام احدكم لا يَصِلُ أُمومةَ أولاده بتاريخ أُمه ، وانكم لكالغاصب مادمتم تغصبون حقَّ نساء الوطن في رجال الوطن ، وانكم لكالعدوّ ما دام كل واحد منكم حرباً على بلدته . ألا فدعونا من الجاهلين فقد يكون

من بعض عذرهم الجهل، ومن المتلصصين فمن عذرهم الحاجة، ومن المفسدين فمن عذرهم سوء التربية، ومن الساقطين فعذرهم ضعفُ النفس، ومن الخاملين فعذرهم الترك والاهمال، ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى فكلها مُسَوَّغَةٌ أعذارَها المحمولةَ على محاملها وكلها أقربُ الى الدهماء منها الى المتمايز والى أخلاط الناس منها الى الخاصة والى السفلةِ منها الى العِليَةِ. ولكن ما عذركم أنتم عن شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشهوات واستهتاركم في هذه الأثرة: يعجزُ أحدكم أن يكسِر جِمَاحَ نفسه فيجني على نفس من نساء وطنه هي التي زهد فيها واستبدل منها، وعلى نفوس من أبناء وطنه هم الذين سيعقُبُهم من ذريته ويأتي بهم للبلاد أجساماً غابت قلوبها ونفوساً بردت دماؤها، يَنزِعُهمُ العِرْقُ الاجنبي من أمهاتهم اللائي وَلَدْنَهم اذا حَمِيَ دمُ البلاد لبعض أغراضها، ويكونون في أمراضها من أسباب موتها وفي صحتها من أسباب أمراضها

ما لكم تُنزلون أنفسكم منزلةَ الطفل البِكْر من أهله

ليس له الا حظوظه وشهواته مسوّغا كلّ ما يقترحه عليهم لأنه هو كان اقتراحهم على الله ، محمولا على قلوبهم لانه بعض قلوبهم، يُفسد المتاعَ ويحطم الآنيةَ وتنزو به النعمة نَزْوتَها فتجعل نصف عقله جنونا ونصف أدبه حمقاً ونصف المنفعة به ضرراً ونصف ظَرفه عنَتاً ونصف لينه مشقّة ويكون خيره نصف الخير أما شره فشر اثنين. فهلاّ كنتم من أهل بلادكم كالأب من أولاده يرى حقّ ضعفهم أكبر من الحق الذى لقوته وواجبَ مرضهم فوق الواجب لصحته ، فهو يبذل سعَةَ نفسه في ضيق أنفسهم ويحملهم صغاراً ليجعلهم كباراً ويصبر عليهم حمقى ليجعلهم عقلاء ويرى عمره كأنه من بعض أرزاقهم وهو لا يستخلف من العمر شيئاً ، وحواسّه كأنها من بعض خدمهم وما له غير حواسه ، ويراهم كأنما جاؤا اليه من السماء بعد أن اشتروه من الله وباعه الله منهم بتلك النقطة الشّابكة فيهم من دمه ؟

ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بعجاريث ، بدلا من هذه المواريث ؛ وجئتم بالسّماد ، بدلا من هذا

الوِساد [١]؛ وبالبهائم للسَّواني ، لا بالحلائل والغواني [٢]؛
وببضائع الحوانيت ، لا ببضائع أنطوانيت . . . وليتكم
اذ كنتم رجالَنا لم تغلبكم نساؤهم ، واذ كنتم سيوفَنا لم تأْسِرْكم
دماؤهم ؛ ويا ليتكم لم تتنعموا وتتأنثوا ، فكانت البلاد تجد
منكم أهلَ البأس ، ولم تتعلموا وتتخنثوا ، فكانت الأرض
على الاقل تعرف منكم أهلَ الفأس . . .

« * »

ذلك هو الرجل . أما صاحبته فامرأة فرنسية جميلة الوجه
في طلعة الصبح ، شابة الجسم شبابَ الضُّحى ، مُتلهِّبةُ
الأنوثة كشعاع الظهيرة ، رقيقة الطبع رقة الاصيل ، زاهية
المنظر في مثل شَفَق المغرب من تأنقها ؛ ثم هي تنتهي من
كل ذلك الى مَخْبرٍ أشدَّ ظلمةً من سواد الليل . . . . ومن أين
اعتبرتَها ألفيتها رذيلةً مهذّبة يترقرق فيها ماء العلم ويجول في
حسنها شعاع الفلسفة كأنها عينٌ فاتنة تدور فيها دمعةُ دلال

(١) الوساد كناية عن الزوجة نفسها والمواريث كناية عنهن أيضا
(٢) الحلائل الزوجات والسواني جمع سانية وهي السواقي تدور فيها البهائم

ولم أكد أراها حتى أخذني جمالها فان لها عينين ركّبتا تركيباً يجرّ المصائبَ على القلب ؛ تُلقيان أشعةً ضاحكة أو عابسة يُخلق منها للقلوب حوادث وتواريخ؛ وترمي بنظرات تُبرِيء الصدورَ أو تُمرِضها؛ وتبسم بوجهها كله نوعاً من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية في وجهها قُبلات ؛ أما افترارُ شفتيها فهو جمال على حِدَة يشبهُ نقلَ معاني الخمر من فمٍ الى فم . . . امرأة ساحرة لا أدري ان كانت بُنِيت على السحر أو على الحب ، ولا ان كان هذا الحب قد خُلق لعنةً عليها أم هي خلقت لعنة عليه ؛ والحب دائماً بَرَكةُ امرأة ولعنةُ امرأة ؛ والتي تزرعه في كل مكان هي التي لا تحصد منه شيئاً فان نالها شيء منه كان تعباً عليها رَوْحاً لسواها. وأشد ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة اجتماعُ شهواتها في صوتها النّدِيّ المستَطْرب المتحزّن (1) الذي لا يخلو أبدا من حرفٍ تسمع فيه هَمْسَ قُبلة من قُبلاتها يبدأني مع كل ذلك استعصمتُ بفلسفتي وحكمتي

(1) فيه نبرات الطرب ونبرات الحزن

فلم أرها الا في مثل حريرة التفاحة إذا أفرط عليها النّضْج فابيضّت واحمرت وفاحت ولمعت وإنّ العَفَن لبادٍ من تحتها يحذّر منها وينذِر ، وفي مثل فروة الدب استرسلت ولانت في نعومتها ولكن لا منفعة منها الا بقتل لابسها وإزهاق الحيوان كله في سبيل الجمال الظاهر من جلده ؛ ونظرتُ اليها نظرة تخطّت بها الشبابَ وأيامه فاذا هي بائسة أملقَ الدهرُ حسنَها [1] وكان ذهباً على جسمها وفضّةً ، واذا هي عَجوزٌ هالكةٌ قد انحنت تحت لعنات ماضيها وتركتها دنياها كالسجن المتهدّم لا يُذكَر مع انتقاضه الا بلصوصه ومجرميه وعقابهم وآثامهم ، وتَشْقى بمعانيه بعد الخراب حتى حجارتُه وحتى ترابه . وأبصرت في هذه الحسناء اللّعوب التي تستوقدها الضحكةُ بعد الضحكة تلك الهامدةَ المريضة التي تطفئها الحسرةُ بعد الحسرة ، وسقطت الشجرة الخضراء النامية فاذا في مكانها جِذْعٌ خشبيٌّ مُلقىً زَهِدَ فيه نور السماء وطين الأرض معا . وتمثلت لي هذه المتكِّئةُ على

(١) أفناه وأفقرها منه كالاملاق من المال

طِرازها وأرائكها تتبرّج في سُندُسِها وحريرها فرأيتها ممدودةً في حفرتها مسجّاةً بأكفانها قد هِيلَ عليها ترابها ولم يرحمها راحم ولا النسيانُ يستر رذائلها عند من عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها من دود الناس ... عشاق آخرون من دود الأرض ؛ ويفني جسمها حين يفنى ويبقى ضميرها الروحي الى الأبد ضميرَ مُومِس

فلما وضعتُ أمرها على ما خُيّل اليّ من عاقبتها اذا هي تَفور كما يفور النبع القذِر بالحمأة التي فيه (١) ، واذا هي كالخشبة المتقدة في حريقها من فوقها ظُلَلٌ من النار ومن تحتها ظُلَل (٢) ؛ وإذا جمالها قد استحال في عينيّ وانفصل منها فأظهرها وظهر معها في بريق الزجاجة من الخمر بجانب السكير المتحطم تتساقط نفسه مرضاً وسكرا فكل ما كان فيها (٣) جمالا فهو فيه أقبح القبح

ورثيت لها أشد رثاء وأبلغه في الرحمة والرقة حتى

(١) الحمأة طين أسود منتن ، والاخلاق السافلة هي حمأة الطينة الانسانية
(٢) قطع كقطع السحاب (٣) أي الزجاجة

عادت نظراتها تَقطر على نفسي دموعا سخينة كدموع الذل .
ويا حرّةَ قلبي من الاشفاق عليها وأنا أرى في احمرار جمرتها
سوادَ فحمها ، وفي أسباب سرورها أسباب همّها ؛ ويالهفي
عليها إذ أرى هذه الجميلة التي لم تنظر أكثرَ ما نظرت الا
الى خطيئة ، ترفع نظرها أحيانا الى السماء بقوة في داخلها
كأنها تقول لمن يفهم عنها إن هنا القَدَر وهناك المقدِّر .
ويا بؤسها حين لم تعد تظهر في روحي الا كما يَتخايَلُ ظل
القمر في الماء ، أنظر فيه الصورة من غير معنى والضوء
من غير قَبَس وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر

«*»

وأَلمَّت بما في نفسي وكانت تقرأ في وجهي قراءة
فأنه ليس ذو عينين ينكشف لعينيه سرُّ العاطفة الذي
يَتَرَقْرَق في الدم الا من خالط القلوبَ وغلب عليها بخير
ما في الخير أو شر ما في الشر ، فهو يَتَدسَّسُ اليها مع
ملائكتها أو مع شياطينها ؛ وانما خلقت هذه المرأة وأمثالها
في هذا الجمال وهذا الظَّرف وهذا الفساد لتستطيع أَن تمزج

الشيطان بقلب من تَغَتَرَه[١] مزجَ المادة والمادة بواسطة بينهما من قوة ثالثة متهيئة لهما معاً، فهي بجوهرها مسلَّطة على القلب غالبة على أمره كتسليط السرور والكآبة وغلبتهما طبعاً بما فطر الانسان عليه. وقلَّما لَصِق الشيطانُ بقلبٍ ما لم تكن في هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة فكلتاهما كيمياء الخطيئة والمعصية والشك. ولَربَّ عابدٍ زاهدٍ طاحت به كآبته فقذفته الى النار كما تقذف بالفاجر لذاته فيلتقيان منها في غَمْرة واحدة[٢] وإن كانا في العمل على طريقين مُتَدَابِرَيْن[٣] وما أشبه إسرافَ اللذة أن يكون الرجاءَ اليائس، فالمُسْتَهْتَر بهذه اللذة يَغْلو في استمتاعه غلوَّ من ظلم نفسه لا يَتَحرَّجُ ولا يتورَّع[٤]. وما أشبه إعناتَ الكآبة[٥] أن يكون اليأسَ الراجي فالمبتلَى بالكآبة يَجفو عما عداها جفاءَ من ظلم نفسه لا يتسمَّح ولا

(١) تطلب غرته وغفلته لتغلبه على فضيلته وعفته (٢) الغمرة موضعاً كثر النار (٣) أي مختلفين متناقضين (٤) لا يمتنع من حرج أو ورع ولا يرعى قانونا ولا دينا (٥) ارهاقها وشدتها على النفس

يترخّص [١] والنفسُ الغالية التي جاوزت قدرها كالنفس الجافية التي انحطت عن قدرها كلتاهما على طَرَف يمين الشر وشماله

« * »

ونظرت اليَّ تلك المرأة نظرة حزّت في قلبي لأنها لا تسألني المدحَ وكذلك لا تريد مني الذم ، وبعد أن رضيتْ ان تسمع لي كأنها تقرأ كلامي في كتاب ووافقتني على أن تعتبرني مخاطبا فكرها دون شخصها وعُاوروا فلسفتها دون تاريخها قالت : أحسبك لست كغيرك من الناس. قلت ولا أنا كالملائكة . قالت فتعرف الخطيئة الانسانية وتقدرها قدرها ؟ قلت وأعوذ بالله منها وأحامها . قالت وتعرف ضعفَ الطبيعة ؟ قلت ومعاندتَها وصلابتَها أيضا . قالت فكيف تراني ألستُ نصف المسئلة السماوية على الأرض ؟ وهل أنا الامعنى متجسم من معاني القدَر، وهل خرجتُ من

(١) لا يتساهل فيما لا بد منه لنفسه وفي الحديث الشريف « ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه » اى المباح والمفروض معا

سُلافي الا كما خرجت الخمرة من عناقيدها وهل خلقت جميلةً غالية كالدينار الا لتُشْتَرَى بي بعض أوقات السعادة ؟ قلت أما المسئلة السماوية فأن كنتِ تصفها فقد كان الشيطان نصفها كذلك . وأما القدر المتجسّم فلعل الحريق في بيتٍ من نُكِبَ به أجملُ وأخف احتمالا وهو مع ألوانه الفنيّة . . . حريق ولا يسمّى أبدا الا حريقا . وأما الخمر فهل هي الا عُفونة أسكرت لانها عفونة . وأما الدينار الذي تشترى به أوقاتُ السعادة فهو نفسه الذي يُغْرِي اللصوص ويوجدهم ، وإذا كانت هذه السعادة كما تصفينها في نَشوة الخمر فهل تُشترى الخمر الا وفيها سُكرها ومرضُها وجنونُها ؟

قالت حدّثني لِمَ كان الحب إذن ، وهل خلق الا للاستمتاع به من حيث يتفق وعلى أحسن ما يتفق ؟ فقلت انما خلق الحب قوةً ليقيّد بقيوده كسائر القوى الطبيعية ؛ فأنتِ تصدعين عنه كل قيوده وتتخذينه تجارة في النفوس فلا تردّين يدَ لامسٍ ولا تمتنعين على دعوى فيها ثمنها .... وبذلك تجرين مجرى القوة المدمِّرة ؛ ومن ههنا كان لك في

الاجتماع الانساني شأنٌ ليس كشأن المرأة بل كشأن المادة ، وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منكِ منزلة المطافيء المعدّة للحرائق، وبعضُها بمنزلة السجون المرْصَدة للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيّأ للتاريخ السيء . وما ظلمكِ الاجتماع فى شيء لأنك أنتِ فى نفسك ظلم له ، وان الدواء الذى يُبرىء من المرض لا يُعدُّ مرضا للمرض وأهْونْ بذلك اذا عُدّ ما دام يُبرىء من العلة، فان دَرْءَ المفاسد قبل جلْب المنافع ودرءُ المفسدة هو في نفسه منفعة.

قالت فكأنك تذهبُ الى القول بأن مَثلي مَثَلُ العقرب والحيـة وغيرهما مما لَدَغ أو نهشَ أو سمَّ وأن دَأْبي في الاجتماع كدأْبها فليس لها الا القتلُ حيث وُجدت ، ومَثَلُ الأَوبئة والحمّيات وما قَتَل وما أعدى فليس الا مُدافعتُها أو الفرارُ منها فراراً بالحياة لا بشيء دونها، وكأني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة بل كحيوان للأذى والمقْت والخوف؟

قلت بل مخلوقة مثل كلّ امرأة كانت وكلّ امرأة تكون أو هي كائنة ، ولكن فيكِ من الزيادة عليها زيادة ماء السّيْل على

ماء النهر وزيادةَ الحِدّة على الطَّبْع الرزين وزيادة الطيش على العقل . أفاذا طغى النهر فأفسدَ وخرّب ، وفارت النفس بحُمقَتْ واعتدت، وطاش العقل فزلَّ وأخطأ ؛ نهض ذلك عندكِ عذراً في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ وتسويغِها ووجب من ثَمّ أن تعتدل هذه الصفاتُ الجائرة على قلوب الناس وأن يطمئنوا اليها ويرضوها مُذْعِنين فلا يقيموا على النهر العاتي جبالا من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجنا من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم إن كان عندك الفرار فعندنا القيود ... ؟ قالت كلاّ ما تبلغ بي الغفلة هذا المبلغ ولقد درستُ وبحثت وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظنّ غيرَه ، ولكنى إن أجن لا اجْنِ إلا على نفسي وهي لي وحدى وأنا حرّة كيف أتولاها ، أفأنتَ رادّي الى العبودية ؟ قلت أنت حرة ما شئتِ وما وسعتك الأرض إذا كنت لنفسك وإذا كنت لا تتصلين بأحد من الناس اتصالَ العلة المهلكة أو المعجزة أو المذهلة أو اتصالَ الرذيلة السامّة بالدم النقي

قالت فانى لا أتصل بأحد ولكنهم يُغرَمون بى ويتنافسون عليَّ فأجد في تنافسهم لذة من أمتع لذاتى .
قلت وكذلك نرْدِمُ الحفرة إذا اعترضت طريق السابلة وقايةً لمن عساه يغفل فيعثر بها، فان بلغتْ أن تكون هاويةً طبيعية لا حيلة فيها ومَرَدَتْ بها طبيعتُها المنخسفة ، ميّزْناها بالعلامات وضبطناها بالحدود وسميناها بالأسماء وجعلناها آية التحذير من الهلاك حتى لا تَزِلّ أحد فيتردّى فيها ؛ وإذا كان من لذَّتكِ أن تشهدى اقتتالهم عليك فهذا حسْبُكِ فى أنَّ من تعاستهم أن يقتتلوا ، وكنتِ ولا جَرَمَ فى لغة الاجتماع من بعض معانى الشقاء والتعاسة . ثُمَّ إن في تلك اللذة منك دليلا حيوانيا على أن فى طبعكِ من إناث البهائم الشاردة التي تقفُ ليتناحَرَ عليها ذكورُها وقوف المملكة المباحة تنتظر المنتصر ، فتقتل بإباحتها كل النفوس التي زَهقَتْ حولها، ولو هي لم تكن كذلك لم يكن شيء من ذلك . فكنتِ ولا جرَم في لغة الاجتماع من بعض معاني البهيمة . ثم ان هذا وذلك فيكِ نَذِيرٌ بانقلاب

الانسانية ونزولها دون حدها وتواجعها في سبيل الجاهلية الأولى واتصالها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأنْ لم يكن علم ولا دين ولا تهذيب فكنتِ ولا جرَم في لغة الاجتماع من بعض معاني الرذيلة والسقوط

قالت هم لا يتناحرون عليَّ بأنيابهم ولا مخالبهم ولا قرونهم . . . وانما يفعلون ذلك بأموالهم . قلت فلا جرَم كنتِ بهذا في لغة الاجتماع معنى من معاني السفَه والفقر والخراب

قالت ولكن كم من رجل أحبني فرأى فيَّ آيةَ الإبداع الالهي فكان لا يناني الا كما ينال المؤمنُ لذةَ قلبه . قلت فهذا أبدع الاصنام وسلطها على الهوى ثم سلطها بالهوى على كهنتها وعابديها فما يرون الحجر المعبود حجرًا الا لأن عليه بناءَ ملكوت السموات . . . ولا البقرةَ المؤلَّهة بقرةً الا لأنها تجر محراثَ الوجود . . . ولا الحشرةَ المقدسة حشرةً تدِبُّ دبيبَها البطيء الا لأنها تحمل الخليقة . . . لا جرَم كنتِ بذلك في لغة الاجتماع

معنى من معاني الضلالة

قالت أتحسب أنك أعييتني في مأخذ الحجج واستنباط البراهين ؟ قلت فماذا ؟ قالت إني أعدُّ الزواج أسرا واستعبادا وقد بلغت من العلم مبلغا لا أرى فيه أن تكون حريتي محدودة بساطة رجل بين كلمتي لا ونعم ، فآثرت أن اتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه وعرفته لأتقيه على نفسي واتقيته لأبتليَ به ولأصرِّفه في منافعي ؛ فليس لي في الاجتماع زوج ولكن لي الحب ، وليس لي فيه أهل ولكن لي الجمال . قلت أفلا يتسلّط على حريتك الدينار والدرهم ... واذا أنتِ بقيتِ للجمال فهل الجمال سيبقى لك واذا كانت لك مُدةٌ في الحب فهل هو خالد عليك ؟ ألا ترين أنك تزرعين في أيام الحب بذورَ أيام الحسرة وأنك متى كَبِرتِ عن سِنِّ المرآة ... [1] فستنتهين لا محالةَ الى أمد من العمر يخيِّم عليك في مُظلِمة كالقبر لا نهار فيه ولا ليل .

(١) سن المرآة كناية عن زمن الجمال اذ هو العهد الذى تتخذ له المرآة حتى لا غنى لجميلة عنها

وهل أنتِ من المجتَمع الانساني الا مقَامَ الصبي من أهله إذ لا مَذْهبَ لك من دونه ولا غَنَاءَ في نفسك الا به ؛ أفترين للصبي أن يتفلّت من نظام أهله ويتحلّل من آدابهم ثم لا تكون وسيلتُه الى ذلك إلا أن ينقلب لصًّا بيته بيوتُ الناس جميعا فليس له في الاجتماع مال ولكن له السرقة .... وليس له فيه أهل ولكن له الحيلة .... بذلك ولا جَرَم كنتِ في لغة هذا الاجتماع معنًى من معاني السُّخْرِيَة والمَقْت

قالت فأنا في الاجتماع تعاسة وبَهيمةٌ ورذيلة وفقر وضلالة وسُخْرِيَة . ولكن ألستَ ترى هذه الصفات بعينها في كل الناس على بعض التفاوت في مقاديرها والتنوع في أشكالها والاختلاف في أسبابها ، وهل الرجلُ الفاجر الا كالمرأة الفاجرة ؟ قلت لقد فَجَر من الرجال من لا تحصيهم الملايين فهل علمت أن فاجرا منهم حمل تسعة أشهر ووضع .... ألا ترين أن الطبيعة جعلت لكلٍّ حكماً وهيأت لكل موضعاً ؛ وهل سواءٌ في طبيعة الألم وخَطره

وعاقبته على الحياة أن يكون الدمل على ظاهر الجلد حيث يتلذع على نفسه ويرى ويُحَدّ وأن يكون في باطن الجوف حيث يخشى منه على غيره أكثر مما يُخاف على موضعه ؟
قالت فكأن الرجل عندك أطهر فجورا .... من المرأة.
قلت بل هو وهي في اللعنة والسقوط والنعل أخت النعل .. واثنتاهما على طِراقٍ واحد[1] ولكنه إن يكن أعقلَ من المرأة بفكره فهي أعقل منه بحواسها ؛ وان يكن أقدرَ في قوّته فهي أقدر في عواطفها ؛ وان يكن في البَلِيَّة عودَ الثِّقاب[2] .... فهي بعدُ الحريقُ كله . ولذا كان من الطبيعي أن تُحاط المرأة في الاعتبار بالمعاني الاجتماعية الكبرى إذ كانت هي الغَرضَ الذي تَمتَثِله تلك القِسيّ الرامية[3] . فهي في معنى الكمال الأصل لأنها الأمومة ؛ وهي في العفّة الأصل لأنها الزوجية ؛ وهي في الحياء الأصل لأنها العِرْضُ ؛ وكذلك هي الأصل في المعركة

(١) أى قطع واحد يقطع جلد احداهما على قدر الاخرى (٢) عود الكبريت وهو قدحة من الحريق (٣) اى ترميه وتستهدفه وتسدد اليه

الجنسية لأنها المقاومة والمدافعة للرجل ؛ والاصل في الفضيلة الانسانية لانها المَنشأ والمَربى للطفل ؛ والاصل في الشرف الاجتماعي لانها المثال الأدبي للجميع .
ومن ثَمَّ كان سقوطها سقوطا لهذه المعاني كلها فهو تهدّم الأساس لا الحائط وفساد الجِذع لا الفرع وعلة نفس الاجتماع لاعلة جسمه

هيهات هيهات فلن تشعر المرأة الساقطة الا شعور من فقدت نفسها التي كانت نفسها وبُدّلت اخرى لاتلائمها ، فهي أبدا هائمة وراء نفسها الاولى تبحث عنها ولاتنساها لأن ذلك الأصل الطبيعي لا يزال يُناجيها في قلبها بلغة الأمومة والزوجية والحياء والفضيلة ؛ وما نفسها الشريفة الا جوابُ هذه اللغة وهي ليست فيها فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم في جريمة ، هي أشقى النساء ترى في ذات عقلها البرهانَ العقلي على انها امرأة ساقطة

«*»

فتَغَرْغرتْ عيناها بندًى رقيق من الدمع وقالت

لما كنتُ فتاة . . فقطعتُ عليها الكلام وقلت : في تلك الفتاة كل البراهين فسليها ، انها هي نفسك الهاربة منك ؛ فوَجَمَتْ هُنَيهةً لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهمالا وجاءها الدمع الطاهر يجرى من أقصى الطفولة ؛ فَخَالطني بثها وحزنُها كأن دموعها تسقط على مواقعَ من نفسي ؛

فقلت أتأذنين في كلمة ؟ قالت بل أسألك أن تتكلم فان مدامعي هذه عرضت لي كالمطرة السارحة في حَميم القَيْظ من صَميم الصيف على أرض مُغْبَرّة مقشعِرّة تثور سُخْطاً على كل قدم تطأها ، وان فكري ليكلمني الساعةَ بلسانك كما يَدْوي الناقوس بصوته العالي الرنّان بعد أن كان هذا الناقوس مختنقاً في بما يُطيف به من الضغط فكان لا يدقّ الا دقاتٍ مُصْمَتَةً لا رنين فيها كأنه ناقوس من الخشب

آه لقد كنتُ كالغدير الصافي لا يعرف ماؤه الا وجهَ السماء وضوءَ القمرين وأخيلةَ النجوم وظلالَ الشجر والنبات فأصبحتُ كالماء الذى كثُرَتْ واردَتُه من البهائم

فهي تخْتبطه بأرجلها وتُضيف الى وحوله وحولَها ولا تستَعذِبُهُ الا أن تُغشِّيَ أعلاه بطبقة من أسفله [1] وكلما تراءت صورها في كُدُورة الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيميَّة ولا تعلم أنه يلْعنُها باظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تعي

أيحسبون أن قلب المرأة حين يُشترى بالمال يكون أطهرَ من خِرْقة قَذِرة تتناولها يدٌ أقذرمنها ، أو أثمنَ من فُتَاتِ مائدة يترك لحيوان أعجم ؟ ألا إن قلب المرأة لا يباع أبداً وإنما هي حين تبيعهم تبيعهم مَعِدَتها باسم القلب . . . إنك إن لم تأخذ القلب هبةً ممن تحبها فما أنت من حبها في (خُذْ) ولكن في هَاتِ وأَخواتها . . . . . .

يحسب النـاس أنه لا تُفَرِّط امرأة في الحب ما تفرّط المرأة الساقطة وما علموا أنها لا تجد الرجلَ فتجد الحب . إنما الرجل في عين هذه المرأة رجالٌ مَصنُوعون فهي معهم امرأة مصنوعة يملك كلُّ رجل إغْضَابها لأن

(١) كذلك تفعل البهائم في الماء الصافي اذا وردته فتخبطه بأرجلها

صناعتها إرضاءُ كلِّ رجل ؛ ولعل هذا من رحمة الله بها فان أكبر شقائها أن تجمع الاقدار بينها وبين رجل تحبه وتستهيم به إذ تألمُ لذلك ألماً خاصا فيه تهكّم الرذيلة والفضيلة معاً . إن هذا الرجل هو البَطَلُ الفَذُّ الذي يكون في قدرته أن يرجع لها ذلك العالَم الذي اطّرَحها ونبذها فهو عندها يَغْمُرُ الناسَ أجمعين (١) ولكنها قلّما وجدته الا اتعرف به حقيقةَ عارها ؛ وإذا قُدِّرَ للأعمى أن يُبصر ساعة واحدة ثم يرتدّ الى ظلامه فما أبْصَر ولكن تَضاعف له العمى

المرأة الساقطة يأسةٌ من البُعُولة (٢) وذلك عقابُ حياتها ، ثم هي لاتندفع الا في الطريق التي تكرهها وذلك عقاب نفسها ؛ فالله أرحم من أن يزيدها بلاءَ الحب الذي هو عقاب شرفها وفضيلتها ؛ فان ابتليتْ به فقليلا ما يتفق ذلك حتى إن الساقطة العاشقةَ عشقاً صحيحا وتبقى ساقطةً أندرُ وجوداً من البغيّ التائبة توبةً صحيحة وتبقى بَغِيًّا

«*»

(١) يكون فوقهم ويغطيهم فى نظرها واعتبارها (٢) الزواج

ياعجباً لضمير المرأة يَضِلُّ في ليل دامس من ذُنُوبها ثم تلمع له دَمْعَةٌ طاهرة في عينيها فتكون كنَجمة القطب يعرف بها كيف يتجه وكيف يهتدي وكيف كان ضلالُه .
وكأَنَّ الله ماسلط الدموعَ على النساء وجعلها طبيعيةً فيهن الا لتكون هذه الدموعُ ذريعة من ذرائع الحياة الانسانية تَحفظ الرقَّة في مثل الرقة ، كما جعل البحار في الارض وسيلة من وسائل الحياة عليها [1] تحفظ الرَّوح والنشاط لها
ثم قلت كانت المرأة نصفَ الانسانية فصارت ربعَها قالت وكيف ؟   قلت ألا ترينها انقسمت في هذه المدنية الى قسمين متناقضين · الزوجةُ وال . . . قالت حسبُك خذ في غير هذا فقد أَبْثَثتك ذاتَ نفسي ومايَنفعك ولا ينفعني أن تَنْقضَ السّورَ الذي أقمته حول حقيقتي فان كل قوى الكون عاجزة عن ارجاع ورقة واحدة انتثرت من زهرتها
ثم وثبت الى البِيانة [2] فصدحت عليها بلحن من

(١) لولا الماء الملح في هذه البحار على الارض لتعفن جوها (٢) هي (البيانو) وقد استعمل بعضهم في ترجمة هذه الكلمة المزهر (بكسر الميم) وانما هو العود واستعمل بعضهم (المضراب) وانما هو مايضرب به كمضراب

ألحانها كان صرخةً من ضميرها صاعدةً الى عرش الله في صوت الانسانية الباكي

ثم ابتسمت وسلَّمَتْ ، فانصرفتُ وكأني ما تكلمتُ ولا تكلمتْ ، وبقيتْ الأَقدارُ مكانَها فما تأخَّرَتْ ولا تقدَّمتْ

« * »

ليس على الهاوية أرضٌ تغطيها فهل تغطِّيها الفلسفة ؟ وقد خَسَفَ بها قلبُها في الارض (١) فهل تُسَوِّيها الحججُ والمعاذير؟ ولو كانت الحصْبَاءُ فيها بين لؤلؤة وزمردة وياقوتة فهل من يدقّ عنقَهُ في الهاوية ليموت على أرض من الجوهر ؟ الهاوية في الطبيعة والساقطة في الانسانية ، كلتاهما أرض كالمرأة وامرأة كالأَرض

وكذلك يخلق الطيبُ والخبيث « ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيِّب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض »

العود وجعلها بعضهم البيان (بكسر الباء) وليس فيها تماسك . والبيانة في رأينا أخفها وأصحها وافصحها

(١) خسف المكان اي ذهب في الارض

الفصل الخامس

﴿ المنافق ﴾

وهذا فلانٌ المنافق لا يرى فى الحب أكثرَ من باء تُنافق الحاء فهي تنزل عن تقدمها وتتأخر المتأخر(١) كما ينحطُّ الرجل العاشق عن رُتبته ويقدِّم على نفسه المرأة .

وعنده أن هذا برهان طبيعى على أن الحب من غير نفاق هو حبٌّ من غير حب . فالنفاق هو الأصل وحسبُكَ به

أعرف هذا الرجل كالحائط المُبْهَم(٢) من أين جئته استغلَقَ عليك ورأيتَه رَدْماً واحداً فلا مَنْفَذ لك فيه إلا أن تكون قنبلةً آدميَّةً فى القوة والشر لأنه رجل المادة لاغيرها ، وهو كالمرأة الغادرة حبُّها الرجالَ كلمة على طَرَف لسانها ولسانُها عملٌ فى طريق منفعتها ؛ وهو كاللص حبُّه المالَ حاسةٌ فى يده ويدُه على ما يملك الناس

لونُه فى الحوادث ألوان ، ودينه في المنافع أديان ،

(١) تقع الباء في ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء (٢) الذي ليس فيه باب ولا نافذة

ونفسه من الناس حشرةٌ في إنسان ، واذا عرفته نظرتَ اليه كما ينظر المهمومُ لما جرَّ عليه الهمّ ، وإذا جهلته كان كالدواء المغشوش ذهب منه صوابُ العلاج ووقع فيه خطأُ السمّ

والمنافق هو سياسيُّ الحب والصداقة ؛ يضع المنفعةَ بين عينيه ثم توزّع على جوارحه كلَّ أساليب الكلام والحركة والعاطفة ، فلا تخرجَ لك من عقدته إلا أن يعقدَ هو بأسلوب وتحلّ أنت بأسلوب آخر . وترى صداقته تنتهي أكثر ماتنتهي الى مثل المقاطعة الحربية بين فراعنةِ السياسة وشياطينها ؛ يرمي الداهيةُ منهم داهيةً آخر « بانذار نهائي » حاسمٍ يحمل الزلازل في كلماته وينصب للحساب ميزان الهوان والهلاك ، ثم يقول له في آخره : « وإني أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم احترامي الفائق »! ...

ولن تجد شراً من هذا الاسلوب ينتحله رجل إلا الاسلوبَ عينَه تنتحله امرأة . . . .

« * »

واللهِ الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالمنافق رجلا الا ذلك الواقفَ يُدير وجهَهُ بين مَرائيَ عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجهٌ ويتعدد الرجل وهو شيء واحد

يخلق الله كلَّ شيء ليكون شيئاً على الأصل البيّن الذي خُلق عليه ، وللأمر اليسَّر الذي خُلق له ، وهو صريح واضح من جهتيه . فالأشياء في الطبيعة هي ماظهرت به مشيئة الله ، تضر لأنها ضارة وتنفع لأنها نافعة . ولكن المنافق كأنما خفيت مشيئة الله فيه ، فهو من ناحية الانسانية مخلوق للنفع فضرّ ، ومن الجهة الحيوانية خُلق للضرّ فنفع ؛ وفي الرذيلة خلق تلويناً للرذيلة ، وعند نفسه خلق لانه خُلق . فأنت تعرفه من جهة على قدر ما تنكره من الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين . فهو دائماً في نفاقه مختلف على السرّ والعلانية ، وعلى المذهب والغاية ، وعلى المدخل والمخرج ، وعلى القول والعمل . ومختلفٌ حتى في كونه مختلفاً أو مستقيما

ولو مددتَ عينيك فى عينيه لرأيتَه يتخاوَصُ لك بإحداهما[1] كأنك أبيض من شعاع الشمس وان كنتَ قد خرجت من مصنع التجليد الالهي فى جلد أسود ؛ إذ تأبى احدى عينيه على كل حالة إلا أن تُنافق ليظهر النفاق عليها . وهو من الذين يَعكرون السيئات[2] لينتهوا منها الى حسناتهم ، ويُقاربُون الذمَّ ليخلصوا منه الى الحمد ، ويَسفُلون ليرتفعوا كما يبتدىء المِقلاعُ دوْرَته من الأسفل ليرمى بحجره رميةً عالية ؛ ومهما انتحلوا من العِلَل واختلقوا من المعاذير ، وقولهم إن ذلك سياسة ومُخالَقَة[3] وظرف وأدب من الذوق ؛ فهم لا يأتون كل ذلك الا لأن كل ذلك — علِمَ الله — هو النفاق

ويا ليت علم الأخلاق كعلم الجغرافيا ، إذن لكان له من وجوه المنافقين مصوَّرات ملونة ... ولاضطرّ العلماء أن يجمعوا من بعض السادة الكبراء مجاميعَ ويقيموا لهم

---

(١) يقال هو يخاوص ويتخاوص اذا غض من بصره شيئا وهو مع ذلك يحدق النظر او اذا نظر كما ينظر في عين الشمس

(٢) يتحرون الافعال السيئة ويقصدونها (٣) مجاراة كل انسان على اخلاقه

معارض . وتلك حقيقة لم يفطن لها علاّمةُ القرود الفيلسوف (دارون)، ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعة أقبحُ ما فيها وجوهُ عظماء الناس... ؟

***

إن المنافقين من العامّة وأشباه العامة بجانب المنافقين من الخاصة وأشباه الخاصة لكالشرر يتطاير عن الجمر، إن هو لَذَعَ لم يُحرِق وإن لم يلذع انطفأ ؛ فان خبثت منه شرارة جهنمية وتلذَّعَتْ ووقعت فيما تستوقده وردَّته حريقاً، فما يجيء ذلك من كونها شرارةً كبيرة بل من كونها جمرةً صغيرة . فالشأن إذن في هذا الجمر الذي يتلَظّى بمادته لان له مادةً استفادها من عناصر الأرض واجتمع منها غذاء النار فيه كما يُفيد أُولئك من المال والجاه والعلم والأدب وما اليها . وإن شر النفاق ما داخلَتْه أسبابُ الفضيلة وشر المنافقين قوم لم يستطيعوا أن يكونوا فضلاء بالحق فصاروا فضلاء بشيء جعلوه يشبه الحق

ولعلّ هـذا النفاق هو أصغرُ رذائل الصغار واكبر رذائل الكبار، لأن للحاجة في أولئك شرعة ومنهاجاً وللضرورة أحكاماً وقانوناً. فالعاميّ حين ينافق لكبير من العظماء ويتخضعُ له: إنما يوازن بين مايعرفه في ذات نفسه من الصغار والضعة وبين ما يتوهّم في صاحبه من الغلبة والقهر، فهو يترقّى اليه ليدنوَ منه أو يترقى إلى خديعته[1] لينالَه أو يترقى الى كبريائه ليأمنه، ثم هو في كل ذلك نازلٌ على حكم الحاجة والضرورة. ولو اعتبرتَ الرجلين على الحقيقة ووزنتهما في ميزان الأسباب لرأيتَ المنافقَ منهما من لم ينافق ... لأن ما يُخاض اليه إلا في الوحل لاسبيل اليه إلا من الوحل، وذلك العظيم رجل بناه النفاق فجعل بابَ نفسه عند قدميه فإذا أردت مفتاح هذا الباب فاخفض رأسك ما من ذلك بُدّ. غير ان نفاق الكبار للكبار شيءأ كبر من النفاق في نفسه وإنما سُمّيَ به تسامحاً وتجوُّزاً أو لأن اللغة تنافق هي أيضاً ... وإلا فنفاقهم إن كان

(١) يتسبب لما يخدعه من شيء الى شيء

صدقاً فأكبرُ فضيلته الكذب، وإن كان حقيقةً فأعظم أدلتها الوهم، وإن كان علماً فأكبر شرفه الجهل، وهو التّخشّع ينقلب ضَرْباً من العبادة، وهو الوصف المزوَّرُ يَرْجِع نوعاً من الخلق الذى لم يخلقه الله. ثم هم طبقات ولكلٍّ نفاقُها، ولا تدري أعلاها أسفلُها أم أسفلها الأعلى ولكن الشر دائماً بالجملة وهم فى الجملة يتخلّقون ويتصنّعون بما نعرف ومالا نعرف. والكبراء هم موضعُ الفصل والوصل في بلاغة الاجتماع. وكل رأس منهم فهو كرأس الشارع لا بدّ لك أن تلتوي أو تنحرفَ إذا أنت بلغتَه وإما أرسلك فى طريق خير أو شر، واذا كان هذا فان كل واحد من كبار المنافقين ومنافقي الكبار هو على التحقيق نقطةُ انقلابٍ في أخلاق من حوله من الناس

« * »

إن مادة حوادث التاريخ هم أولئك العظماء فانك لتجد الرجلَ العظيم في أخلاقه العالية وسجاياه الكريمة وفي تأثير هذه الاخلاق والسّجايا على الناس أشبهَ بالفتح

التاريخي المُبين وبالنصر القويّ العزيز ، ويكون الرجل انساناً ولكنه تاريخ ، وتجد الى جانبه المنافق العظيم . . . في أخلاقه السيئة وطباعه الاثيمة وفي تأثير هذه الأخلاق والطباع على الناس أشبهَ بتاريخ ضَرْبة من ضَرَبات الله (١) أو مَجْزَرَة من مَجازر الحروب ، ويكون إنسانا ولكنه على ذلك تاريخ

ولا أعلم في هذه الدنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر إذ الموجودات كلها مبنية على التحليل والتركيب ؛ وهذا النفاق في أصله مبني على الكذب السافل فاذا خرج منه شيء خرج منه الكذب العالي . . . فترى السياسي يبالغ في النفاق ويزعم أنه يتكلم بلسان المستقبل ؛ وينافق الأديب فيقال زُخْرُفٌ من القول ومبالغة في البلاغة ، ونفاق ذي السلطة تَواضُعٌ ، والنفاق من العالِم مَسلك من دقائق علم النفس ، ومن الغنيّ مالٌ يجذب مالاً ، ومن السفيه اللئيم شرٌ يطلب خيراً ؛ فان هو كان من امرأةٍ قيل

(١) ضربات الله الاحداث الكبرى في الناس كالطوفان والاوبئة وغيرها

حبّ أو من طفل قيل تحبّب. وكما تُردّ المركّبات كلها الى أجزائها المفردة فان نفاق أهل الأرض جميعاً يرجع إلى الطفل الصغير كما ينبثق النهر العظيم على مدّ مجراه من المنبع، وينتهي إلى مصبّه وقد جمع من أقذار طريقه على طول ما تمتد. فنفاق الطفل يكون فى أصله مكافأةً عن محبةِ أهله وذويه ثم يكبر فيصبح تودّداً اليهم ثم يعظم فينقلب حيلةً يحتالها العقل الصغير ليخضع بها العقلَ الكبير لهِنَاته وهَيِّنَاته، ثم لا تزال تُداخله بعد ذلك الأهواء والشهوات حتى يَنحصر نفاقاً فاذا هو ما هو

بَيْدَ أن ما يكون من نفس الطفل يكون مَعفُوًّا عنه فى الأغلب كأنه ليس من نفس أوكان هؤلاء الأطفال حين يتواثبون ويقفزون فى اللعب واللهو، يقفزون كذلك من حدود الشرائع ... فللرجل من كل قاعدة حدٌّ محدود ليس وراءه اذا هو تخطاه وتعمّد مجاوزته الا حائط من السجن أو حائط من اللعنة أو حائط من جهنم؛ ولكن الطفل يتخطى ذلك الحد وثباً ويكون قد وثب على السجن وجهنمَ بطبقاتها

السبع ولا يقع فى واحدة منها . فهما نافق الصغير فهو ذكيّ خبيث ولكن نفاقه ينتهي بقبلة على خدية أو لطمة ...

لا الصغارُ فى منازل العمر من الأطفال ولا الصغار في مَراتب العُمران من العامة يصلحون أن يقوم بهم النفاق لأنهم جميعاً ينسحبون على أصل واحـد في الطبيعة وهو صِغَرُ النفس وانصرافُها الى معاني الجسم دون معاني العقل، فلو أنك رأيتَ طفلا ينافق لطفل مثله أو شهدتَ عاميًّا من الناس يصانع رجلا من قياسه المنطقي .. لرأيت فى ذَيْنك نوعاً من الضحك الساكت وفى هـذين ضرباً من الوَقار الذى يُضحَك منـه . ان عَظَمة النفاق هي نفسها فى عظمة أهله الكبراء ، وكل شيء قد يصلح موضعا للبحث والنظر والجدال الا ما يعتقد الرجل العظيم أنه عظيم به . وهنـا موضعُ التألّه الذي شرِع من أجله سجود النفاق وركوعه وتهليله وتسبيحهُ ؛ فصغار العظماء كأنهم فى حاجة الى النفاق لان فيهم شيئا عاليا لا يظهر حدُّ علوّه إلا إذا قيس من نقطـة سافلة . فاذا أنت عرضتَ لهم على

شرطهم فنافقتَ واستخذَيتَ ونزلتَ عن كرامتك ، وأنك مع ذلك منافقا عند نفسك فقط ؛ واحتجتَ بعد كل هذا الى ضُروب أخرى من العَنَت الشاقّ على النفس حتى يعرفوا بعد أن يجهدك النفاقُ أَنك منافق ؛ فلا تبلغ اليهم رذيلتك الا وقد صرت في جملتك مجموعةً من الرذائل

« * »

وإني لأَحسب أن النفاق هو بقية ما وَقَرَ في النفوس الجاهلة من عهدها الأول عهدِ التعبُّد لكل ما يضر أو يُتوهم فيه الضرر ، والتقديسِ لكلّ ما ينفع أو يُظن فيه النفع ؛ وتكون أرواح الأصنام والأوثان والعُجول والبقر والحشرات والعواصف والصواعق وغيرها مما كان يُخَص بالعبادة قديمًا ، هي بأعيانها ما تتمثل فيه أرواحُ أولئك السادة الكبراء الذين يثقل ظلهم على الروح ثقلَ الضَّباب ، ويتراكم على القلب تَراكُمَ السحاب ، ولا يرضون بابا من النفاق الا أن يُفضِيَ الى باب . ثم تكون أعمال المنافقين في دِهانهم ومصانعتهم وما تتروّح به أرواحُهم ، هي في ذاتها

بقايا تلك الرِّعْدة والفزع والضَّراعة وتمريغ الوجوه والتمسُّح وما إليها مما صَغُرَت به أحلامٍ لتكبر أوهام ، وكان عبادةَ أجسام لأرواح فصار عبادة أرواح لأجسام

والعظيم الذي تنافق له ولا يُنكِر عليك ولا يَردُّك ثم لا يرضاك ولا تُرضيه الا على هـذا النحو ،هو في رأيي رجل خُرافي من المعبودات الأُولى يحتاج الى نبيّ يمحوه ، فان لم يكن نبيٌّ فرجلٌ حكيم يكشف للنـاس عن وجه الخُرافة فيه ، فان لم يكن فذو عزيمة يصولُ به أو يستطيل عليه ، فان لم يكن فذو دين وتقوى يريه وجهَ السماء من دينه وزُهده ، فان لم يكن فذو علم يقنعه أنه كان ترابًا وسـيكون عظاما ورُفاتا . فان خلا قومه من كل أولئك فقد زيّن لهم (الشيطان) اعمالَهم وقد رفع اللّه عنهم يدَه فلا يبالى في أيِّ وجه هلكوا

« * »

أَمَا إنه لا ينافق إلا الخبيثُ الذي يحاول أن يَقتحِم النفوسَ وهي غافلة عن أبوابها ومَنافذها ، فنفاقُه من التلصُّص؛ وإلا

الضعيف الذي يريد أن يقوى بضعفه فهو يحتال على أن يأخذ القويَّ من أضعف مكان فيه ، و نفاقه من المكر والخداع. وإلا الغاصبُ الذي يطمع أن يكون الشيء له وليس له و نفاقه من الظلم ؛ وإلا القويُّ متى أراد أن يسوق بقوته مَسَاقَ الضعف لينال بها من غير أن يؤذي ، فنفاقه من الكبرياء ؛ والخامسةُ أن روعة الحب في عاشق تنافق لروعة الحسن في معشوق ...

وكذلك لا يرضى عن النفاق ولا يقِرُّه إلا جاهل اكتفى من العلم قبل أن يعلم ما هو العلم ، أو مُستَكبِر عُمِّيت نفسُه عما حولها وعما فوقها ؛ أو غبيٌّ يعرف عقله في وهمه ووهمَه في عقله ولا يعرف عقولَ الناس ؛ أو ذو سلطان دَنَتْ مِحْنته وأظلَّتْ ملكَه النِّقمةُ فهي تسلك اليه سُبلا مختلفة منها فسادُ الناس ومنها النفاق . والخامسةُ أن يمتلئ نظر الجميلة رضا وسحراً حين يمتلئ فم المحب نفاقا في هواها ...

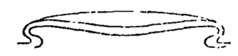
وأنت فكيف اعتبرتَ النفاق رأيته كذبا وخداعًا

ثم مكراً ومُصانَعةً في الحق ، فان هو فشا في طائفة من الناس ألفيتهم في الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على أن لا يصدقوا ولا يَنصحوا ولا يأنَفُوا ولا يُقارِبوا الحق . فاذا كثر هذا السّوادُ في شعب رأيته لا يحسنُ من الحياة الا الاسبابَ التي يقتل بها نفسه إن كان قويا ، ولا يهتدي لغير طرق الفقر إن كان غنيًّا ، ولا ينفع الا أعداءه إن كان شعبا ذكيًّا ، ولا يعمل الا على السُّخْرة لغيره إن كان عاملا فَتِيًّا

« * »

وكل منافق وصاحبُه الذى ينافق له رجلان لا يَفهم أحدهما الآخر ، أو تكون بلادة الحسّ قد بلغت من أحدهما أن يتظاهر بأنه لا يَفهم وبلغت الغِلْظة من صاحبه أن يظهر كأنه غير مفهوم . وكلاهما غطاءٌ مُكْفأٌ على حقيقته ولكن الحقائق المغطَّاة بأغطية الكذب موضوعةٌ أبداً على نار تتقد من عزائم المصلحين ونفوسِ الحكماء وقلوبِ الأحرار فلا تزال تغلي كلما طال بها العهد حتى تنفجر من أغطيتها فاذا الزُّورُ قد طاح به ما انكفأ

عليه وكان ذلك من سنّة الله في إصلاح الناس ، وكان من سنة الله كذلك أن تجد الناس ينافقون جميعا الا مُصلِحاً أو حكيما أو رجلاً حرَّ النفس



*

الفصل السادس

﴿ الصغيران ﴾

والآن أرى السحاب رقيقاً مُهَلْهَلاً كأنه في سَرَقَةٍ من حرير أحمر [1] يشرق إشراق الروح في الطفل الصغير الذي كَفَلتهُ رحمة الله فتركته إذا ضحك استوضحتْ له من الضحك معانٍ لا نهاية لها ولا يعرفها الناس فما ينفكّ من شيء يُضحكه أو يسرُّه ؛ واذا بكى لم يجد للبكاء الا معنى واحداً من تلك المعاني الكثيرة التي يعرفها الناس فهم لا ينفكون من البكاء أو معانيه في هموم الحياة

تقوم الطفولة في روحها وعهدها وحوادثها على عقيدة واحدة هي أن كل ما كان فسيكون غيرُه ، وهي تعرف ذلك يقيناً جَزْماً لاشك فيه وحكماً فصلاً لا مَعْدِل عنه . فالصغار على أيّ أحوالهم هم كبار الناس في هذا المعنى

إنك لتعرف الرجلَ لا بأس بعقله ثم تراه فيما ينزل

(١) سرقة الحرير هي القطعة من النوع الجيد منه فتكون رقيقة مشرقة

به من الحوادث فاذا هو من النَّفرة والهم والقلق صورةٌ كاملة من اضطراب فكره في حكمة ما ابتُلي به ؛ فاذا نظرت الى الطفل في مثل ذلك رأيته صورة أخرى من نفس حزينة راضية مستسلمة قد أقَرَّتْ فيها رحمة الله بحكمة الله فالحزنُ فيها سببُ الهمّ ولكنه كذلك سببُ الأَمَل

« * »

جلستُ ليلةً مع صُحْبة من الأُدباء في نَدِيٍّ (١) على عُنُق شارِع كذا بالقاهرة ، وكنا في الوقت الذي يُقبِل فيه الليل على أعماقه قبل أن ينتصف بمنزلة واحدة (٢) تلك الساعة التي هي أوّل عهد الليل بالتنفس تحت الأجنحة السماوية (٣) تنزل لِتَخْتِمَ على أعمال الأرض في يومها الغابر ثم تأخذُ في تهيئة الجمال السماوي البديع الذى سيُخْلَق منه الفجر

وكان الى جانبي أديب سِكّير نسميه « دِمْياطَ الحانة » . . . . لأن فرعاً من نهر الخمر ينصبُّ فيه كما

(١) قهوة (٢) أي ساعة (٣) كناية عن الملائكة

ينصب فرع النيل عند (دمياط) . وقد عوّدته الكأس أن يتخذَ الليلَ نهاراً والنهار ليلاً فما ينصرفُ الى بيته الا في فروع الصبح [1] ولا ينامُ إلا والعالم كله متيقظ . ويزعم أنه لا يهتدي الى عقله إلا اذا أضاعه ساعةً أو ساعتين [2] ؛ ولا يُحسن تصفيةَ الكلام وترقيقَ المعاني الا اذا نضَحَ جوفَه بماء الشِّعر [3] . وكان في تلك الساعة قد حطَّ عليه الساقي حتى انتهى في سماواته الوهمية الى الأُفق الزجاجي فعاد كلامُه رنيناً وطنطنةً لا يفهمه إلا صاحب الحانة وحده ... فلما دهته الداهيةُ من كَرْب الخمر تخطّى حدَّ إنسانيته الى البهيمية السائمة ؛ وما كاد يرتفع الستارُ الانسانيُّ عن مسرح أخلاقه حتى رأيتُني في رواية عجيبة يمثلها أربعة أجتمعت أرواحها في شخص واحد : سفيهٌ ومعتوهٌ وأحمقُ وأديب ....

وجعلتُ أتأمل على يقين الخِبْرَة وأشهد على حَقِّ النظر عجيبةَ هذا العقل الانساني الذى يسبح في الأفلاك

(١) أوائله وأعاليه (٢) كناية عن السكر (٣) كناية عن الخمر

ويتطوح من شاطيء المجهول الى شاطيء المعلوم بوثبةٍ أسرعَ من ضربة الجناح ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة خمر، وصرتُ أرى كيف يتحول النبوغُ العقلي في بعض ساعاته الى صناعة خسيسة هي صناعةُ الأديب نفسهُ الشريفةَ بهيمةً من البهائم، وعلمت عِلْمَ هؤلاء الادباء الذين يحسبون الخمر توحي اليهم وما في مِلْء الدّنّ منها ما يعدل فائدة نقطة واحدة من قوة الارادة

لقد رأيتُ وعلمتُ وشهدتُ بعيني رأسي كيف يَبُوء هؤلاء بالمأْثَم والمَغْرَم جميعا [1] وتالله إنه لأَيسَرُ على الباحث أن يجدَ السرابَ الذي يغترفُ منه الظمآنُ بكفيه ماءً زُلالاً من أن يعثر على الكأس التي يقتبس منها السكير فضيلةً أو فائدةً

ولو رجع الأَمر اليَّ لما جعلتُ عقوبةَ الخمر الا تحطيمَ الزجاجات على رؤس شاربيها، وهب أن رأس الأديب

(١) المأثم الاثم والذنب والمغرم ما يغرم عليه من المال ، قاتلهم الله يشترون بأموالهم « تذاكر الدخول الى جهنم » ....

السكير هو رأس أرسطو علمًا وذكاءً ، فذلك أدعى لتحطيمه لأنه لن يكون في عربدته وسكره وانحطاطه وسقوط همته إلا رذيلةً يدافع العلم والذكاء عن وجودها فينصبها الشيطانُ مثلا للتقليد ويتخذها الأغرار والضعفاء قاعدةً للباطل المتبع يعملون على احتذائها ويتحولون عن فضيلتهم بحُجّتها فيصبح هـذا الرأس الواحد كالمطبعة متى حبَّرها الطابعُ نقلت ما فيها « بحروفه » إلى كل الصحف البيضاء التي تلامسها

« * »

وفي تلك الساعة كانت الأرض قـد عَرِيَتْ إلا من أواخر الناس وطَوَارِقِ الليل وبقيَّةٍ من يَقظَةِ النهار تحبو في الطرق ذاهبةً الى مَضَاجعها . فبينَا أمدُّ عينيَّ وأديرها في مُفتَتَح الطريق ومُنقَطَعِه إذ انتفضتُ انتفاضةَ الذُّعر ووثبتْ رَجَّةُ القلب بجسمي كله كما تثب اللّسعةُ بملسوعها ؛ ذلك حين أبصرتُ الطفلين

صغيران ضَلاَّ من أهلهما في هذا الليل يمشيان على

حَيْدِ الطريق [1] في ذلّة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء والتخاذل لا تمشي بل تتزحزح قليلاً قليلا فكأنهما واقفان أكبرهما طفلة تعد عمرها على خمس أصابعها والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات ؛ ينحدران في أمواج الليل وقد نزل بهما من الهمّ في البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تُطوّحُ به الأقدار إذا ركب البحرَ المظلم ليكشف عن أرض جديدة

تتبيّن الخوفَ في عيونهما الصغيرة وتراه يفيض منها على ما حولهما حتى ليحسب كلاهما أن المنازل عن يمينه وشماله أطفالٌ مذعورة ويتلفتان كما تتلفت الشاةُ الضالة من قطيعها لا يتحرك في دمها بالغريزة الا خوفُ الذئب ويتسحّبان معاً وراء الأشعة المنبثة في الطرق كأن أضواء

(١) هو التلتوار أي جانب الطريق . عن ابن سيده : « حيد الجبل شاخص يخرج منه وجبل ذو حيود وأحياد اذا كانت له حروف ناتئة في أعراضه » . قلنا وهذه صفة التلتوار الا أنه غلظ في جانب الطريق لا في جانب الجبل . وبعضهم يترجم التلتوار بالافريز وهي كلمة مشتركة أكثر ما تستعمل في النقوش البارزة . وبعضهم يستعمل (الطوار) بفتح الطاء ولكنه للدار مايمتد معها من فنائها . وبعضهم يستعمل البرزوق وهي ثقيلة نافرة . ولا أفصح وأخف من الحيد . تقول حيد الطريق ، وللشارع حيدان ، وحيود الطرق وأحيادها وهلم جرا

المصابيح هي طريقُ قلبَيهما الصغيرين .

منقطعان في ظلام الليل وليس على الأرض أهنأ من ليل الطفل النائم فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع ؟ نامت أحلامهما واستيقظت أعينُهما للحقائق المظلمة الفظيعة ؛ وضاعا من البيت ويحسبان أن البيت هو الضائع منهما . طفلان في وزن مثقالين من الإنسانية ولكنهما يحملان وزنَ قناطيرَ من الرُّعب

يا من لا إله الا هو . من سواك لهاتين النملتين في جُنْح هذا الليل الذي يشبه نقطةً من غضبك . لقد أخرجتهما في هذا الضَّياع مخرجَ أصغر موعظة للعين تنبِّهُ اكبرَ حقيقة في القلب ، وعرضتَ منهما اللانسانية صورةً لو وُفِّقَ مخلوق عبقريٌّ فرسمها لجذب اليها كلَّ أحزان النفس

صورة الحب يمشي مُتساندِاً الى صدر الرحمة في طريق المصادفة المجهول من أوله الى آخره ، وعليهما ذلُّ اليتمِ من الأهل ، ومَسْكَنَةُ الضياع بين الناس ، وظلامُ الطبيعة وكآبتُها

رأيت الطفلة وقد تَنَبَّهت فيها لأخيها الصغير غريزةُ أمّ كاملة ، فهي تشدّ على يده بيديها معًا كأنها مذ علمت أنها ضائمة تحاول أن يطمئن أخوها الى أنه معها ولن يضيع وإنه معها [1] . فيالرحمة الله . وقد أسندت مَنْكِبَه الى صدرها وهي تمشي فلا أدرى إن كان ذلك لتحمل عنه بعضَ همه فلا يَتساقَط ، أو ليكون بها أكبرَ من جسمه الضئيل فلا يخاف . أو لأنها حين لم تستطع أن تُفهِمه ما في قلبها بلغة اللسان أفاضته على جسمه بلغة اللمس ، أو لا هذا ولا ذاك إنما هي تستمدّ من رُجولته الصغيرة حمايةً لأُنوثتها بوحي الطبيعة التي رسخت فيها

أما الطفل فمُستَذِلٌّ خاشع لو تُرجمت نظراته لكانت هذه عِبارتها : اللهمَّ إن هذا العمر يومٌ بعد يوم فأنقذنا من بلاء يومنا . ولما وقفا بإزائنا كان هذا الصغير يقلّب في وجوه الناس نظَراتٍ يتيمةً ترتدُّ على قلبه آلامًا لا رحمةَ فيها إذ يشهدُ وجوها كثيرة ليس لها ذلك الشكلُ

(١) حالة أنه معها وهو تركيب من أبدع الكلام

الانسانيّ المحبوب الذى لا يعرفه الطفلُ من كل خَلق الله
إلا في اثنين : أمّه وأبيه

وما أسرعَ ما تَناهض الناسُ وأطافوا بهما، وما أسرعَ
ما لاذَ المسكين بأخته واستمسك بها كأن وسائلَ الرحمة
تُخيف كما تخفيف أسلحة « الجرّاح[1] » أو كأن الاصل
في هذا الانسان هو العُدْوان على أخيه وظلمُه واجتياحه
فكل حركة إنسانية مشكوكٌ فيها حتى يقع أثرُها لأن
الانسان نفسه يستار منسَدِلٌ على نيته ، وهذه النية آلة
للأطماع فلا تزال في يد الكذب دائما لا يدعها للصدق
إلا فيما لا « ينفع » ....

وكان الطفلُ المسكين في جملة النظر اليه خَلْقا من الحب
المؤلم الذى يُلْهِبُ الدم . يرسل من عينيه الدّعجاوَيْن
سحرَ المذَلّةِ الفاتنة . تلك المذلة التي أعرفها أقوى ما في
الحب إذا تذللت الحبيبةُ في نظرة ضارعة توسلها لحبها

(١) الجراح كلمة محدثة وصوابها الجراحي في اللغة القديمة ولكن الاولى
أفصح ولا بأس بها لغة

المفتون فلا تُبقي في رأسه رأيا ولا في قلبه نية ، وتذلّ له ليَذلّ هو لا غير كأن أحبَّ العزّ في أحبّ الذل

ونظر إليّ أنا أولَ رَمْقةٍ فذكرت أطفالي فزَلْزَلَ قلبي وأحسست أن دمي استحال الى بارود وقع فيه الشرر

وهؤلاء الاطفال الصغار هم إنسانية على حِدَة ، فكل أب هو أبو هذه الانسانية كلها ، ولن يُطيق من كان له طفل أن يرى صغيراً ضائعاً في الطريق يستهدي الناس الى أهله ويبكي عليهم ، أو طفلاً جائعاً يعرض على الناس وَجهَهُ المنكسرَ ويستعطفهم بصوته المريض أن يُطعموه ، أو طفلا يتيما قد ثَكِلَ أهلَه وضاق بقسوة أوليائه فانطرح في ناحية يبكي ويتفجع ويسأل من يعرفون الموت : أين أبي ، أين أمي

هؤلاء جميعاً ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات حِجاب اذ ليس فيهم من الناس الا اضطرارُهم الى الناس ، فهم الانسانية الرضيعة التي خُلق من أجلها القلبُ الانساني في شكل ثَدي

« * »

واطمأن ذلك الطفل الى صدر أخته ومال برأسه عليها ثم أطلق عينيه فينا جميعاً فما حسبتُه أراد ألا أَن يَخْبَأَ في قلبها أفكاره الصغيرة ثم ينظر الى هؤلاء الناس نظراتٍ مجردةً بَلْهاءَ كما ينظرون هم اليه ؛ اذ لم ير فيهم من فتح له ذراعيه ولا من حمله ولا من تَحَنَّى عليه ولا من ضحك له ولا من أعطاه شيئاً يأكله

ألا إنما الناس صُوَرُ الفكر أو صورُ القلب ؛ فمن لم نر فيه صورةً من أفكارنا التي نلتمسُها أو من أهوائنا التي نحبها فذلك ليس منا ولسنا منه وإن سُمي أخاً في لغة النفاق وإن دُعِي حبيباً في لغة المجاملة ؛ بل هو مخلوق ليكون النموذجَ الذي نتعلم عليه البغض إن كان متصلاً بنا ، أو التسامحَ إن كان بعيداً عنا ولم تتصل بنا ولا أخبارُه ...

وكم بين الناس من اسمٍ تعرفه على صاحبه كهذا النور الأحمر الذى يضعونه في الطرق فيضيئونه من الليل فوق الحُفَرِ ... ليُنْذِرِ الناسَ ما وراءه ويقولَ لهم بصوت

النور : هٰهنا ما ينبغي أن تحذروه ، هٰهنا حفرة ......

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فهم منقسمون حين يولدون أسباطا أسباطاً باختلاف الدم فى كل أسرة ، وهم متفرقون حين ينشأون أفواجاً أفواجاً باختلاف الصحبة فى كل فئة ، وهم متباينون حين يتدفعون أحزاباً أحزاباً باختلاف الهوى فى كل طائفة ، وهم متناكرون حين يتنازعون أمماً أمماً باختلاف المنفعة فى كل أمة . فتلك أربعةُ وجوه تلابسها الانسانية فيهم ؛ ومن ثَمَّ قُضِيَ على هذه الانسانية المسكينة في الأرض أن تكون ثلاثةُ أرباعها عداوةً كالأرض نفسها ثلاثة أرباعها ماءٌ مِلح لا يُساغ ولا يُشرب وإنما منفعته للكون كله في الجملة . ولعل شيخاً من الشيوخ لو تدبَّر حياته وأحصى أقدارَها وميّز أنواع حوادثها وما أتى عليه فيها من أولها الى آخرها لرأى ثلاثة أرباعها ملحاً أيضا ...

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فليس يَأْتي للوالدين أن يربوا من أولادهم ناسا بل أهواءً ومطامعَ

يناقِض بعضُها بعضا . مطامعُ تتبع أسبابها وأهواء ترجع إلى غرائزها فلو أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظاهرَ دنياهم حتى يكون سواءً لا يخالف شيء منه على شيء، لبقيَ الانتقاضُ والاختلال في باطن الانسان حتى لكأَن بعض الدم يُخلق غالباً على بعض الدم . وإنه لا شيء في هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده فاذا استقامت الأمور فلمن تكون الأَضداد لَعَمْرِي ؟

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فدنيا كل إنسان في شيئين : ما يَنْزِعُ إليه بفكره وما يميل اليه بقلبه، والانسان من كل إنسان أحد اثنين : من تُرْجَى به المنفعة ومن تكون فيه المحبة . والانسانية من كل إنسان في منزلتين : أدنى الحب وتلك منزلة الصداقة ، وأعلى الصداقة وهي منزلة الحب . فأما ما وراء ذلك فصحراءُ الانسانية الكبرى المقفرةُ من قلب الشخص وفكره . ولو لا الأديان لخربت الدنيا فان هذه الاديان قد عمَرَت هذه الصحراء بعنصرين جليلين أنبتا فيها القلبَ والفكر وهما

خوفُ الله فى خلقه ومحبةُ الله فيهم. فحيثُ وُجِد هذا الخوفُ وهذه المحبة وُجدت الانسانية ، وعلى ذلك فالانسانية العامة الحقيقية هى الايمان ، والانسان العامُّ الصحيح هو المؤمن ، والسلام العامُّ الكامل هو الله جلَّ جلالُه

ولكن ياشَقاء الانسان التَّعِس . إنَّ أعجب ما فى الشر أن اختلاف الناس في فهم هذه الثلاثة هو أصل الشر

«*»

وسألوا الطفلين أسئلة سياسية . . ما وطنهما وما جنسُهما ؛ أى من أى شارعٍ ومن أى والد . ألا ضلَّ ضلالُكم أيها الناس ، فلو أنهما يعرفان من أى شارع ومن أي والد لما كان منهما ما ترون . على أن الطفلة لَجْلجتْ فى بعض كلمات تشبه اضطرابَ قلبها ، وكان الصوابُ كله ماثلا لعينيها مجتمعاً فى ذهنها ، فالبيت والشارع والأَبُ والأُم كل ذلك واضح فى خيالها ؛ ولكن الذي استْبهم عليها هو تحديدُ نسبته الى هذا الوجود الذي تراه كلّه بيوتاً وشوارع

ورجالاً ونساءً . وإنما تحديد الشيء هو تعبير الطبيعة عنه وإنما تعيينُ نسبته من غيره هو تعبير الشيء نفسِه عن خصائصه ، فاذا أنت عرفتَ نسبتك من سواك وحصرت هذه النسبةَ في حدودها وأسوارها فقد أمنتَ الخطأَ في سعادة نفسك وأصبحت بتلك المعرفة أسعد إنسان .

ولكن مَن لك بهذه المعرفة وبهذا التحديد وقلوبُ الناس كافةً كأمواج البحر في البحر، تظهر كل واحدة قائمةً بنفسها في رأي العين وهي راجعة في جميعها الى أصل واحد هو هذا السيّال المتحرك الذي يتضرب بعضه في بعض ليوجد الأمواج ويفنيها

ما أراني أعرف بعد طول الفكر سبباً للشقاء الانساني يجمع كلّ ضُرو به إلا سبباً واحداً ، هو أننا مُعَدُّون لكل الحالات المختلفة التي تَطرأ على الحياة بقلب من نوع واحد ، فاذا استطعنا أن نجعل ظواهرنا موضعَ الترتيب فان بواطننا أبداً موضع الاختلاط والألم والنكد

((*))

ولما رأيتُ حيرة الطفلين ضممتهما إليَّ وألهيتهما عن كآبة القلب بسرور البطن فدفنتُ كل آلامهما في بعض قطع من الحلواء؛ فطعما واستضحكا وتطعَّما الحياةَ جديدة آمنة

والطفل لا يعرف مستقبلا ولا ماضيا وما هو إلا حاضرُه، فان عَييتَ بأمره فأوْجِدْه ما يلهو به فهذه هي سعادة الطفولة. واقد سرهما من الأديب السكير الذي كان الى جاني أضعافُ ما سرهما من الحلواء بل هو كان زيادةً في حلاوتها فحسباه يتعمد بسطهما وإيناسهما بحركاته وبكلامه الذى يطنُّ في السموات الزجاجية؛ فكانا يضحكان منه وكلما تكلم أو أشار أو تحرك أو أنكر عليهما استخرج بذلك منهما مثل تغريد العصافير؛ فكانت كل الفائدة من سقوطه وضياع عقله أنه أضحك طفلين ....

وقدَّرت في نفسي أنهما من هذا الشارع الذى نحن فيه أو من فَصيلته في الطرق التي تخالطه أو تقاربه، وقلت إن أهلهما على أثرهما فجعلت أستأْنِي وأنتظر. وبينما نحن على ذلك إذ ارتفع سواد مقبل كأنه روح ليلة مظلمة تَغشَى

الطريقَ، فتبينتُ فاذا امرأة تهفو كذات الجناحين وكأنها تنساق بقوة تحترق في داخلها، ثم أخذتنا عيناها فاذا هي أمُّ الطفلين تبدو من لهفتها واستطارتها لولديها كأنما تحاول أن تختطفهما من بعيد بقوة قلبها وما عرفت أنها هي إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها ملموسةً في نظراتها الى الصغيرين؛ وكانت لها هيأةٌ هيأةَ أم[1] وُضعت الجنةُ تحت قدميها فترى في وجهها معانيَ ليست من هذا العالم وليست من الجنة نفسها إذ تزيد على كل مسرات الدنيا هناءةَ الاطمئنان السعيد المفاجئ الذى لا يكون في الحياة إلا هُنَيهة ثم ينقطع، وتزيد على ما هناك هذه اللهفةَ اللذيذة التي لا توجد إلا هنا على الارض حينما تفجأ السعادةُ بعد شقاء لا يُحتمل. إن من لم يرَ أمًّا أشفى طفلها على الموت في حادثة أخذته بغتةً ثم نهض سليما معافى، أو ضلَّ عنها مدة حتى يَئِستْ منه ثم اهتدت إليه، لا يكون قد رأى

(١) هذا من تراكيبهم البليغة وهو تكرار يستعمل في اثارة النفس وتنبيهها فيقع منها اي موقع. والكلمة الثانية تنصب اذا أريد بها الحدوث

شيئاً من سعادة الانسانية العالية النادرة التي لا تكون إلا في الأمهات خاصة ولا يشهدها الناس الا في ساعة حرجة تلمس فيها يدُ الله قلبَ الام

« * »

وهَلَّ الطفلان (١) لما أبصرا أمهما ونفضا أيديهما نفضَ الأجنحة ثم أكبَّت هي عليهما بجسمها ومدامعها وقبلاتها ، والتحَمَا بها التحامَ الجزء بكلّه واشتبكت الأذرعُ في الأذرع حتى لا تفرق بين ثلاثتهم في معاني الحب الا بالكبر والصغر ؛ ورجعتْ معهما طفلةً كأن تاريخها ابتدأ جديداً في ساعة من الساعات الفاصلة التي يتحول عندها التاريخ

واذا كانت القلوب بين إصبَعَين من أصابع الرحمن يقلّبها فلقد كانت هذه القلوب الثلاثة في تلك اللحظة تنطق وجوهها بانها في يد الله يهزُّها هزاً. ولكم وددتُ لو أستطيع أن أخلط بها قلبي المسكين في لَمسةٍ واحدة

(١) صاحا صيحة الفرح

ليشعر ولو لحظةً في هذه الحياة أنه سما بروحه فوق العالم كله

لو أصابك الهمُّ لحبيبك إذ تراه مهموما متألماً لذقتَ أحلى أنواع الآلام السعيدة ، فكيف بك لو تبدَّل همُّه بغتةً فأقبلت عليك قبلاتُه وضحكاته تزحزح عن قلبك ناموس الكآبة ! الحبُّ ما الحبُّ إلا لهفةٌ تهدر هديرَها في الدم ، وما خلقت لهفة الحب أولَ ما خلقت الا في قلب الأُم على طفلها ترأمُه وتحنو عليه ولن يحفظها للعالم إلا هذا القلبُ نفسه . ولقد يكون عمرُ الطفل يومين ولكن لهفة أمه عليه وحفظَها إياه حفظَ عينيها تجعل له من الحب عمراً متطاولاً ولا يقاومُ به الأقدار العادية عليه في مَسارحها ؛

ولولا ذلك لحطَمَتْه هذه الأقدار كما تحطم كل طفل أهله ذوو عِنَايتِه [١] . فلهفة الام على طفلها كأنها قوة سِنينَ عَدَداً في جسم هذا الطفل . ومن ثَمَّ لم يكن الحب الصحيح في أسمى مظاهره الا حبّ المرأة لبني بطنها [٢] ؛ وانما يسمى غرامُ العاشقين حبًّا لأن في العاشق دائما

(١) أهله والذين يعنون بأمره (٢) أولادها

مع حبيبته أكبرَ معانى الطفولة وفى العاشقة دائمًا مع حبيبها أصغر معانى الأمومة

وما كان هذا الغرام ليُسمّى حبًّا لولا ذلك ولولا أن في اللغات لصوصًا من الألفاظ تَسرق معاني غيرها....

حب الأم في التسمية كالشجرة تُغرس من عود ضعيف ثم لا تزال بها الفصول وآثارُها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرةً بعد أن تُفني عِدادَ أوراقها ليالِيَ وأيامًا . وحب العاشقين كالثمرة ما أسرعَ ماتنبت وما أسرع ما تنضج وما أسرع ما تُقطف؛ ولكنها تُنسِي الشفاه التي تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الارض والشمس والماء في الشجرة القائمة

لا لذة في الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهي المُنتجة . ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هي الحلوةُ وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها

وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بثمرة فنسي الله حيناً، ويُغويه الحب فى الأرض بثمرة اخرى

فينسى معها الآلام أحيانا

«*»

وذهبت المرأة بالصغيرين بعد أن شهدتُ منها ومنهما مواقعَ رحمة الله في القُوى المسكينة التي لم تجئها المسكنة إلا من كونها أطهر القوى وألطفها . وانفجر قلبي آلاماً وسروراً ورحمة في ساعة واحدة ثم كاد ينفجر آخر الأمر من الضحك .. حين أراد الطفلان أخذَ الأديب السكير معهما لأنه مضحك ....



الفصل السابع

﴿ الشيخ علي ﴾

وكأنما أَنظر الآن فى قلب رجل لافى وجهه إذ تهلَّلَ على السحاب وجهُ « الشيخ علي » شيخِ المساكين (١) .
أراه كما كنتُ أعرفه ضاحكاً غير الضحِك الذى يلْبَس وجوهَ الناس فلا يضحك لشيء إنساني بل ماهو الا أن تراه قد تهلَّل فرفع وجهه الى السماء وأرسل من فمه مثلَ نور التّسبيح في إشراقٍ جميل،حتّى لقد كان يُخيَّل اليَّ حين أُبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ولكن قلبه يرتعشُ بعَضَلاَت وجهه

لو أراد الله بالناس خيرا لوضع في أبصارهم أشعةً تَنْبَثُّ في أطواءِ القلوب فتعرف ألوانَ العواطف وتُميِّزها لوناً

(١) وضعنا كتاب المساكين على لسان هذا الرجل ليتمزى به أهل البؤس وأحلاف الهموم، وقد أفردنا لوصفه بابا في ذلك الكتاب وحسبه اكثر القراء رجلا مخترعا كرجال الروايات ولكنه كان رجلا أشبه فى حياته برواية . وقد توفى فى سنة ١٩١٩ وظهرت بموته كرامات عجيبة شهدها الناس بأعينهم ولم ينعه أحد ولا كان احد يحفل به ومع ذلك كانت له جنازة لم يعرف مثلها فى بلده وأحوازها كأنما خرجت الحياة نفسها تشيع أصغر حي لتجعله أكبر ميت

من لون، ولكنه جعل الوجه غطاءً على معاني القلب ثم سلّط الفكر على معاني الوجه ومَعارِفِه يصوّر فيهما ما شاء مما له أصلٌ في الحِسّ وما لا أصلَ له حتى ليَختبئ الإنسان عن الانسان وهو مكشوف لعينيه .... واذا كان الله سبحانه قد أوجد الخيرَ والشر صريحين فقد أوجد الانسانَ ثالثًا لهما وهو تلبيسُ أحدهما بالآخر، وأراد الخالق ذلك ويسّره للانسان فجعل فيه آلةً واحدة للصدق وهي القلب وآلتين للكذب: وجهَهُ ولسانَه

« * »

كان « الشيخ علي » يُشبه إنسانيةً قائمةً بغير إنسانها على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته [1] وكانت الدنيا كأنما نسيتْ أنه فيها فتركت له روحَه صافية منطلقة تتطَعَّمُ الحياةَ غيرَ مُستَقِرَّة في شيء كما يتطعمُ النسيمُ رائحتَه من ورق الزهر وهو يَتَسَحَّب عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر

(١) أكثر من ترى من الناس لهم حظوظ الانسان ولا انسانية فيهم والشيخ علي لم يكن له من حظ الانسان الا الجرم والاقمة وغمضة العين

وما زالت روحُ هذا الرجل مني منذ عرفتهُ كأنها نَضَّاحَةُ عِطر [١] تَمُجُّ رَشَاشَهَا على حياتي رَوْحاً وعبيراً وندًى ؛ وكان الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتساماً وطفولةً ورقَّة ، ولو أن أحداً خُلق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو (الشيخ علي) رحمه الله ؛ على أنه كان رجلاً من سُوسِهِ القوةُ معصوباً مُتَكَدِّساً [٢] يملأ جِلدَه كأنه جِذْلٌ من أجذال الشجر [٣]

((*))

وانقبضت نفسي انقباضةً شديدة إذ تغير الرجل في خيالي فنظر الي نظرة ينقدح منها شررُ الغيظ ، فلو أبصرت عيناك طائراً ضعيفاً أراعَه نسرٌ فاستطردَه في نواحي الجو هكذا وهكذا [٤] ثم أهوى له بمخالبه ثم سدّد اليه نظرةً

(١) رشاشة العطر وهي ترجمة الكلمة Vaporisateur ويسميها العامة « بخيخة العطر »

(٢) المتكدس الممتلىء عضلا والمعصوب الشديد طي الجسم بعضه على بعض ومن سوسه أي من أصله وطينته أو كما يقول العامة (من عوده)

(٣) ما عظم من أصولها

(٤) اي هنا وهناك

غَرَزت هذه المخالبَ وانفجرت بآلام لحمه ودمه ، فاعلم ان
تلك هي كنظرة الشيخ اليَّ ولقد تبعثرَتْ لها شياطينُ
نفسي فانطلقت يحاول كل شيطان منها مهرَباً وكانت
تُوسوِس في صدري أن أستمدَّ من روح الشيخ قولةً
في الحب ، هذا الحب الذي مهما اعتبرتَه لم تجده إلا كإحياء
الخيالات بقتل حقائقها . ثم ما لبث أن استضحك
وأطلق لى نفسي وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة
فقلت ويحكِ يانفس ؛ إن عين الشيخ ترى من الجمال
غير ما نرى ثم تعلم علمَها ممـا نظرَتْ فيه ثم تُقدِّره على
حساب ما تعلم منه فما يُدريك لعلّ هذا الرجل الروحاني
لا يرى إلا ما وراء تلك البَشَرَة الجميلة التي تكسو وجوهَ
النساء الجميلات كما نُبصر نحن من وجوه الموتى وقد
تأكلَ جلدُها وتناثر لحمها وبرزت عَظْماً كسائر العظم من كل
حيوان ؛ فلا موضعُ قُبلة ولا سحر نظرة ولا إشراقُ
بَسْمة وما هو إلا تركيب من العظم صنع هذه الصنعةَ
تيسيراً لما خُلق له . ولعله يانفسُ لو حشر الله لعينيك

أجملَ الجميلات في صَعيد واحد وحشر معهن إناثَ البهائم صِنفاً صنفاً ثم نزع عن تلك الوجوه كلها ذلك الطِّرازَ من الجلد وما وراءه من اللحم مُزْعةً بعد مزعة[1] حتى لا يبقى إلا الوضعُ في بناء العظام وهندستها، فما يدريك لعلّ أجمل الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذٍ إلا أقبح القبح هناك ؟ . أفمِن جلدة على وجه امرأة يجيء الشعر والجنون معاً ويجتمعان في هذا الخيال الذي يسمى الحب ويستنزلان معانيَ التقديس من أعلى السموات الى عين تَلْحظ لحظةً وشفةٍ تبسم بسمة ؟

إنه القلم الالهيّ المبدع الحكيم هو الذى صوّر ولوّن وافتَنَّ ما شاء ؛ فان رُزقت امرأة جلدةً جميلة مُشرقةً كأنما تجري فيها الشمسُ، وأُلبسَتْ أخرى جلدةً قبيحةً سَفْعاء[2] تجول فيها رهبةُ الظلمة ؛ فكلتاهما صورة من صنع الله وكلتاهما تُظهر لوناً من ألوان الحكمة وكلتاهما جاءت لمعنًى وكلتاهما بعدُ غِشاء زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه

(١) هي القطعة من اللحم (٢) السفع سواد مشرب بحمرة والمراد به هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

ولا في تلك ، وضع الحقيقة الجسمية التي تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة. والحياة لا تعرف البشرةَ الا غطاءً على ما وراءها اسودَ أوابيض، وكان من لون المرمر أومن هيئة الطين

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خُلق دميما نافراً على أبشع ما نتصوره من القبح لكان كلُّ نساء الدنيا جميلاتٍ إذ يألف الطبع الانساني تلك الصورة الواحدة ويتقررُ بها الذوقُ في الجمال وتستمرُّ بها العادة فلا يستبين وجهٌ من وجه آخر في صفة ولا يخالف مذهبٌ مذهباً في حالة

ولكن هذا الانسان كُتب عليه الشقاء نُخلق وخُلق معه ما يُطغيه وما يَستفِزّه وما يُخرجه عن طوْقه ؛ كما خُلق له ما يُزهِّده وما يطمئن به وما يحصره في انسانيته . فالجميلات والقبيحات كلهن سواء في أنهن نساء هذه الانسانية لا تقصّر في ذلك واحدة عن واحدة وإنما يتفاوتْن في أسباب الشقاء الأنساني الذي يَبتلي الرجل بالمرأة ويمتحن المرأةَ بالرجل ولو سما عقل الرجل الى

الغاية العُليا من كماله لرأى المرأة الجميلة الفاتنةَ في نصف جمال المرأة القبيحة ، ولبانت الواحدةُ عنده من الأخرى بأن الدميمة مهيأةٌ في نفسها لمعالى الأخلاق والجميلة مهيأةَ لسَفْسَافِها [1] ، ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونَزَغَاتها شراً مما تقدَّم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من اكثر طباعها وصفاتها خيراً مما قَصُر بها من حسن صورتها

بَيْدَ أن من شقوة الطبع الانساني أنه سخط القبحَ فأحاله فساداً وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر إذ كان في نفْرته وحبه لا يعتبر المنافع والحقائق ولكن الأهواء والشهوات ، والمنفعة والحقيقة كلتاهما لا تكون إلا في قيودها أما الأهواء والشهوات فهي دائماً لاتقع إلا مُتخَطِيةً حدودَ العقل إما الى النقص وإما الى الزيادة ولا تُغرَى بشيء الا أوقعت به السوء إذ لا يستَوِى في القَصْد ماخرج عن الحقيقة ـ وما هو مقيَّد بالحقيقة

« * »

(١) السفساف الدنيء وأصله مايتطاير من الغبار اذا أثير ومن الدقيق اذا نخل لانه أهونهما ولا فائدة منه

كان هذا وحيَ (الشيخ علي) في نفسي غير أني رددته عليه وأزَّني شيطانُ الحب مرة أخرى فقلت : أفترى الشوهاءَ على مابها ممارَكع للدهر وسَجَد[١] ثم تلك المرأة التي سَمُجَ تركيبُها فتحامتْها العيون، ثم الأخرى التي قمِعَتْ في بيتها تختبىء فيه من القبح[٢] فصارت سرّاً في صدر الحيطان ثم تلك التي تلوح في النساء كالسطر المضروب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولة التي أدبر جسمُها[٣] وتقبّضت أعضاؤها وأصبحت جلدةً تمشي وتتكلم . أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة في ألوان الثياب كأنما تلبس بدنَها الجميل بدناً معنويًّا يدلّ على معانيه ، أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتّان عاطلةً من كل حلْيَة ومع ذلك ترفُّ على حسنها روحُ الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من البريق والشعاع ، أو المطوَّية الممشوقة المسترسِلَة كأنها في

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه ويقال ركع للدهر وسجد اذا كان فقيراً ساقطا ليس وراء ما به من الذل (٢) هي القمعة (بوزن ملكة) وجمعها قمعات (كملكات) من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة
(٣) كاد يفنيها الهزال وتسمى الممصوصة

قَوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرته ، أو الحسناء اللّعُوب المَزّاحة كأنما اجتمعت طباعُها من نور القمر أَطلّ في ليلة من ليالي الربيع يُداعِبُ أوراق الورد النائمة ، أو ... أو تلك ياشيخ علي ...؟

(قال الشيخ على) فياويلك ، إنى واللهِ بك مِن رجل لخبير [1] أفمِن أجل واحدة ...؟ أمَا إنه لعل الذى جعلها حقًّا عندك هو الذى يجعلها باطلاً عند سواك ولعله ماحسّنَها في عينك إلا أن طبعا من الجدّ فيك استملح طبعاً من الهزل فيها كما ترى معنًى مَكدُودا في إنسان يَستَرْوِحُ الى نقيضه في انسان آخر . ولعل مِن أمتع اللذات وأبهجها للقلب المهموم أن يتصوّر في هذه من يعرفه طروباً فَرِحاً وان كان كلا الرجلين لايسكُن لعِشْرة الآخر لو تعاشرا واختلطا . وهذه القلوبُ لا تُؤْتَى من مأْتًى هو أدقّ وأخفى من توهُّم مافيه اللذةُ فإن النفس ترجع عند ذلك بكل حقائقها الى نوع واحد من الوهم ينصرف بها الى تمثل هـذه اللذة

(١) أي خبير بك وبما تبطن وتخفى

التي استشرفَتْ لها وطمعت فيها ، فاذا طعمُها في الدم يَهيج لها سُعَارَ [1] الجوع العصبي . وما هي السرقةُ مثلا إلا أن يضع اللص عينَه على المال أو المتاع ويتذوّقَ طعمَ اليُسْر والفائدة فتُجَنَّ أعصابُه جنون الحاجة فلا يَرْعَوِي الى شيء من الرأي يزجره أو يمنعه أو يكفّه ويكون في الحقيقة سارقا من قبل أن يسرق . وكذلك يكون الفاسق متى نظر الى المرأة واشتهاها ونبّه معانيها في نفسه ؛ وقُل مثل هذا في كل من طار قلبه أو طار صوابه

أُلْهُ عن وهمك يا بُنَيَّ وضع الأمرَ على قاعدته وسدّد نظرك الى حقيقته ودعني من حبْل الباطل الذي تجرّ فيه شيطانَ هواك أو يجرك هو فيه . وما نتكلم عن اثنين من الخليقة أنت وهي ، ولو أن الأمر قد انحصر فيكما وفَنِيتَ بالحب فيها لكانت هي الكونَ كله ولو فنيتْ هي فيك لكنت أنت ذلك الكون . وهذا حرسك الله موضع النقص في النفوس العاشقة إذ تنقطع إحدى نفسين من العالم

(١) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون وحالة الاعصاب متى اهتاجت لامر لاتكون الا هكذا وبخاصة ان كان هذا الامر من الحب

إلى نفسها الأخرى. وهو نقص أشبه بجنون المجانين بل هو مُتمّم له ، فانما ذهابُ العقل في المجنون المُختَبَل هو نصف الجنون الانساني أما النصف الآخر فهو تجرّدُ العقل في العاشق المتَدَلّه . نصف الجنون في العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحَبَ ، ونصفه في المَعْتوه الذى يتجرد من الزمن إلا الحاضر. إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ ولا مستقبَل إذ لا يأمل هذا ولا يذكُرُ ذاك . وكل سعادة نفسه في هذا النسيان الذى طَمَسَ عليها وتركها كأنما تعيش في غير عمرها بل في كل أعمار الانسانية بل بغير عُمرٍ؛ وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخصٌ آخر ممن مضى وممن يأتي مادام الحب نافذاً ، فالحبيبُ هو الحبيب وكل الناس بعده أدوات . وشخص واحد هو الألِف واللام والحاء والباء ، والناس جميعاً نقطة صغيرة مُلقاة تحت الباء فقط .....

(قال الشيخ علي) ثم يَبْرَء المجنون وَيَثُوبُ اليه عقلُه فيعرف أنه كان مجنوناً ، ويُبغِض المحبُّ أو يسلو ويبرأ من

وهمه في تلك المرأة فلا يرى الا أنه كان بها مجنونا . أفلا يكفي هذا ويحك في الدّلالة على أن الحب والجنون من أمّ واحدة وان اختلف أبَواهما .... وأن رأيَ العاشق في كل النساء كرأي المجنون في كل الناس لا يجوز أن نأخذ بواحد منهما الا اذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل إذ كلاهما حاصلٌ من حالة التي تغيرت فانقلبت اعترف صاحبها عليها بالجنون وان كانت احدى الحالتين في طبيعتها ووصفها غير الأخرى : وَيْلُمِّهِ وصفاً من العاشق لو كان مع صاحبه رأي[1] ويلمّه رأيا من المجنون لو كان مع صاحبه عقل

« * »

(قال الشيخ علي : سئل الحلاج[2] وهو مصلوب يعاني

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الامر فتشعر بأنه لا يريده وأصلها ويل أمه والعامة يستثقلون الهمزة ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم كلمتين اذا أمن الخطأ فيها

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي المشهور اختلف العلماء فيه اختلافا كبيرا ورمي بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصوف كالحقيقة فيهما هي موضع المعرفة وموضع الجهل معاً . ومن أبدع ما قرأناه في ذلك ان أصحاب الشيخ عثمان القرشي من أكبر علماء مصر في علوم الحقيقة والشريعة قالوا له يوما : مالك لا تحدثنا بشيء من

غصّةَ الموت : ما التصوف ؛ فقال لسائله أهونُه ما ترى ...
فهذا رجل يموت في سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماويّ
العجيب ؛ وعلى أنها قد دقّت المساميرَ في أطرافه وجمعت
لموته آلامَ الحياة كلها وأنبتت في كبده من وَخزات الجوع
شجرةً من الشوك وأطلقت في عروقه من لَذَعات العطش
ضيباً من النار ، وتركته على صليبه ممدوداً تتساقط نفسه
كما يَنْشَر الثوبُ الذي بَلِيَ وانسحق فهو يتمزّق من كل
نواحيه — على هذا البلاء كله لم تتغير الحقيقة في رأي الرجل
ولا فقدت موضعَها في نفسه ، ولا رأى ما يكرهه الناس من
الآلام مكروهاً في ذاته فيميلَ عنه ولا ما يحبونه من اللذة
محبوباً فيميلَ إليه ، ولا تَسَحَّبَ فيه حركةٌ واحدة في

أخذ ثوبي . فسألهم كم أصحابي اليوم : قالوا ستمائة فقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم
وقال اختاروا من هؤلاء عشرين فاختاروهم فقال استخلصوا من العشرين
أربعة فكان من الأربعة أئمة الجماعة ابن القسطلاني وأبا الطاهر وابن الصابوني
وأبا عبد الله القرطبي . قالوا فلما انتهى الأمر على ذلك قال الشيخ رحمه الله :
لو تقدمت بكلمة من الحقائق على رؤوس الأشهاد لكان أول من يفتي بقتلي
هؤلاء الأربعة . فتأمل غور هذا البحر فما أبعده غورا ، وتوفي المرشي سنة
٥٦٤ .

السخط على الحكمة الالهية فانتقصها برأى أو اغتمز فيها بكلمة؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحدّ الانساني المنتهي فيه، الى ما يبدأ عنده الحدّ الإلهي الذى لا ينتهى، ورجع آخره الى أوله فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نزل به: اللهمّ إنك بدأتني طفلاً غِرّاً جعله فقدانُ العقل لا يملك مع أحد الا صياحه فخذني اليك طفلا عاقلاً جعله العقل لا يملك مع أحد ولا صياحه

واذكر الطفلَ يا بنيَّ فرُبَّ معضلة من أمور هذه الدنيا يحار الناس فى آخرها وهي محلولة من أولها، وما هؤلاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا، غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نَصلُح ويأخذون عنا فيَفْسُدون. أفرأيت ولد الشوهاء تعرف عيناه فى كل ما طلعت عليه الشمس أجملَ من وجه أمه أو يرى طائلاً في وجه سواها أو يحنّ الى غير طلعتها أو يسكنْ الى صدر غير صدرها حتى كأن الله لم يخلق وجهَ حبيب لقُبلات محبه الا وجهها هي لقبلاته؟

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحيةُ صفائه هو فان القلب إذا لم يكن بهيميًّا منعكسا أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى إلا خيراً ، ولَبِست المَرْئيّ صِفَةُ الرائى فلا ينظر إلا جمالا ، واتصل الشعور الطيّب الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذاتِ النفس كما يصل الشعاع الذى يلقَى على حائط من المصباح - بين هذا الحائط وبين المصباح فيُغَشِّيه النورَ وان كان الحائط نفسُه من الطين . فاذا كان القلب بهيميًّا زائغا عن الانسانية الى حيوانيته استفاضَت ظلمتُه وشهواته على ما حوله فلن يشهدَ من صفات الجمال شيئًا بل يرى في كل شيء من صفات نفسه هو ، حتى ليكون الوجود كله في عين بعض الناس كما يكون الطعام كله في فم المريض . ومثل هذا يعشق أجملَ النساء فلا يرى فيها جمالاً ألبتّة وإن هو خدع نفسَه في ذلك واختدع الناسَ ، وانما يرى شهواتٍ ؛ شهواتٍ جميلةً ليس غير

أما القلب البهيمىّ غيرُ المنعكس وهو ذاك الذي

تحمله البهائم، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتشد فيه خيال وما هو الا أن ينصب الحيوان به على محض المنفعة لأنه عامل في الطبيعة يعدّ من عمالها لا من شعرائها ... فليس عنده جمال يقع في ظاهر الروح وآخر يقع في باطنها وثالث متوهم لا يقع ولا يمتنع أن يقع[1]؛ وليس يعرف من معنى القبح الا أن تكون الانثى قد طاش بها المرض فما تستقل إعياءً وضعفاً. وبذلك سلمت إناث البهائم من شر كثير علاقة الحياة النسائية بمعانيه وتجمعه كلمتان: الجمال والقبح

والناحية الأخرى التي ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشوهاء ناحية الصفات الالهية فإن الحب الصحيح الذي يمكن أن يسمى حباً لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق وغيرها مما يظهر البشرية على أتمها أحسنها في الشخص المحبوب كما يظن الناس خطأ؛ بل هو في عكس ذلك أي فيما يخفي البشرية بمحاسنها وعيوبها

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهي: ان الجمال اذا وقع في ظاهر الروح كان صباحة واذا وقع في باطنها كان فصاحة. فزدنا عليها ما ندعو توهمها مما لا يعرف الا بالتخيل ولا حقيقة له في الواقع

جميعاً ويُظهر في أمكنتها خصائصَ الروح المحبوبة وحدَها. فمن ثمّ يبدو لك شخص المحبوب على أيّ أشكاله وهيآته كأنه تمثال سماويّ وُضع لروحك خاصةً فهو مجبولٌ من مادة واحدة هي مادة الفتنة ولو كان في أعين الناس كافةً تمثالَ الأرض السُّفلى يُصوِّر كل ما اشتمَلت فيها من القبح

فاذا لم تظهر لك خصائصُ روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلّ شيء فيها ذا معنى منه وكل معنىً منه ذا معنىً فيك فما أنت من حبها في شيء ولو ذهبَتْ من جمالها بعقول الناس ولا هي عندك من الجمال في شيء ولو كانت في النساء كليلة البدر في الليالي. ومن أجل ذلك لا يخلو الحب من بعض معاني الوحي ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية[1] في النفس التي تعشقها ، وهل مَلَكُ الوحي الا قوة المزج السماويّ في نفوس الأنبياء ، وهل روحُ الحبيبة إلا شيء قدر من مثل هذه القوة في نفس

(١) نسبنا الى الجمع للخفة وفرقا بين هذه وبين النسبة الى الملك (بكسر اللام) فانها ملكية (بفتح اللام)

محبها؟. ولعل هذا يفسر لك سراً من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي تيَّمها الحب فان تلك القوة المزجيَّة متى أفرطت على نفس رقيقة حسَّاسة أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكلَ النار للهشيم وتركتها تحترق أسرعَ ما تحترق لتنطفىء أسرعَ ما تنطفيء

«*»

(قال الشيخ علي) تلك هي الحقيقةُ يابنيّ فلن يأتي لكائن مَن كان أن يقسم النساء الى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى في ذلك معنى القسمة الى شهوات جميلة وشهوات قبيحة. ومتى انتهينا الى هذا فقد خرجنا الى المخاطبة بلغة لا هي من لغة البهائم ولا هي من لغة الانسانية.

أفرأيت قط ألفاظَ الجمال والقبح تشيع في أمة من الامم وتعلو بالاعين عن النساء وتنزل وتعتدّ[1] بها وتنقبض إلا أن تكون أمة ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها أو ضعيفة الدين قد اختلت أرواحها؟

(١) يقال علت العين عن كذا أي نبت عنه نفورا فلم تلصق به فاستعملنا منها نزلت كما ترى

انكشف القمر ذاتَ ليلة لرجل اسمه « من عباد الله المقرَّبين (١) » فاذا البدر أسودُ كالحبر واذا مكتوبٌ في وسطه بالنور « أنا وحدي »؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كل ضياء الشمس عليه أن يسودّ فى عين الرجل الكامل الذى ينظر لروحه ، فما الذى يمنع من ينظر لروحه وخصائصها أن المرأة تصير القبيحة فى عينه كالقمر الأزهر ؟

« * »

فى البدر ظهرت كلمة الألوهية « أنا وحدى »
وفى وجه الحسناء تقرأُ كلمةَ الالوهية « أنا وحدى »
فهل يمكن ان تقعَ الدميمةَ من الحسناء أقبح مايقعُ

(١) هذا تهكم من الشيخ على يريد به طائشة فتياننا وفتياتنا ممن يرون الدين شيئا قديما فى لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم . فاجبناهم البلاء الجديد الذى حل من أنفسهم محل الدين فجعل الرجل بلاءاً على المرأة ان تزوج بها او اهملها والمرأة بلاءاً على الرجل ان كانت له أو لنفسها والوطن بينهما يقول ما تقول جهنم لأهلها « لاتدعُوا اليومَ ثبوراً واحداً وادْعُوا ثبوراً كثيرا »

ظلام القمر من نوره فلا تكون فى وجهها هي أيضاً كلمةُ الالوهية « أنا وحدى » ؟

« * »

لم يبق فى البدر مع الحكمة العليا شيء يسمَّى الجمال ولا المرأةُ الحسناء يكون فيها شيء أجملُ من القمر ؛ فهى مثله ليس فيها مع تلك الحكمة شيءٌ اسمه الجمال ؛ أفيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها فى وجه القبيحة شيءٌ اسمه القبح ؟

« * »

القمرُ طالعٌ مُشرِقٌ كما كان
والجميلة الحسناءُ لاتزال فاتنة
والدَّميمة ظاهرةٌ كما هي
لم ينقص الكونَ من ثلاثتها شيء
ولكن أين عينُ الرجل الكامل ؟

الفصل الثامن

﴿ الشيخ احمد ﴾ (١)

والساعةَ أرى سحابى أصفَى ما تمثَّل لى وأرقَّه كالسماء فى صَبيحَةِ ساريَةٍ (٢) إذا غسلَها الليل وأصبحت لابسة حريرَها من شفَق الصبح الأحمر ؛ وأرانى أنظر اليه وأهتِف له وأستَشرِقُ فى ضوئه كالطائر لايسعُه جِلده مرَحاً وتقلباً وحنيناً متى أصبح من الليلة الممْطِرة إصباحَ الشمس بعد أن أبانَهُ المطر بيتَه كأنها فى عشِّ السحاب .

وأشرق عليه صديقى هذا ؛ ولا ومصرِّفِ القلوب (٣) إن ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذنى من الحنين اليه مالا يكون مثله لصديقٍ ميت بل لحبيب هاجر يُشعِرك موتَ الأيام كيف يكون . كانت صحْبته إياي من أطراف الطفولة الى

(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ احمد الرافعى ابن عم الكاتب وصديق نشأته ورفيق شبابه ، والكاتب خال أولاده . ذهب رحمه الله يقضى فريضة الحج فأفضى الى ربه من هناك ودفن بمكة

(٢) صبح ليلة فيها مطر والسارية السحابة تمطر ليلا

(٣) هذا قسم وكان اكثر ما يقسم به النبي صلي الله عليه وسلم

آخر الشباب الى تُخوم الكهولة وهي أيام شِبَع العمر لا يَطْعَمَ فيها من شيء إلا طَعِمَ من لذة وما بعدها من تقاصُر الحياة واختلالِها إلا كأيام سوء الهضم ....

إذا كان في امرىءٍ من الناس باقٍ بعد شبابه فما أشبه هذا الباقيَ في جانب ماقبله بنواة الثمرة الحلوة من لبابها ؛ تنتهي فيما تأكل الى النواة ولكن بعد أن يكون أطيبُ مافي الثمرة قد انتهى ، وتُفْضي مما ينعصر في الريق حلاوةً ويسيل في الحلق لذةً الى بقية من الخشب رَطْبه أو يابسِه ؛ فلو كانت النواةُ من الذهب مارجَعَتْ لك من ثمرتها رَجْعة(١) .

يا أيام الشباب أنت وحدك نور الحياة لانك منذُ الفجر ، وأنت وحدك نهارُ العمر لأنك الى أن تَصفَرَّ الشمس ، وليس وراءك إلا كآبةُ الليل تتقدم ليلَها باسمة في شفق المغرب .

يا أيام الصِّبى أنت وحدك الحبُّ لان فيك مافي عيون الحبيبات أشخاصاً روحية ظاهرة بمعانيها الفتانة فهي تلق

(١) الرجعة ما تسترده مما فات

أشعة الجمال على كل ماتنظر إليه .

يا أيام الأُرجولة الأولى إن فى زمنك وحده تحل السعادة في العقل إذ يكون العقلُ في عهدك ما يكون الطفلُ في عهده ؛ لغته تجري من معاني الدموع والابتسام والضحك ولا يَستدير به إلا الأفواه الحبيبةُ التى تقبّله أكثر مما تَزجره ؛ وحتى لو ضُرب لكان الضرب سببا من أسباب تقبيله فيما بعد . . .

يا أيام الشباب أنت وحدك العمر، ومن بعدِ الشبابِ كلُّ شيء يكون ففيه من الماضي فِعلٌ مستتر تقديرهُ كان

« * »

يرحمك الله ياصديق الكريم ؛ تركتَنا مُصعِدا الى الله فى سُلَّم كانت الأولى من درجاتها عَتَبةَ هذا البيت فى مصر ، وكانت الأخرى تلك العتبةَ الطاهرةَ من بيت الله في مكّة

وذهبتَ عنا وما علمنا أنك طائر يُغَطّى تحت ريشه سرُّ الجاذبية العُليا

واستودعتَنا اللهَ واستودعناك فاشتبكتْ دموعٌ في

دموع وما حسبنا أن أرواحنا تقيم من ذلك مَنا حتَها قبـل الفراق الأبدى

وخاطبناك عند البَيْن وخاطبتَنا وما عرفنا أن السماء كانت وقتئذٍ تكلّم الأرضَ من شفتيك بألفاظٍ لهاما بعدَها

ونظرتَ الينا طويلاً تلك النظرةَ التى لاتكون إلا ممن يَعرف حتى لا ينكِر شيئا ، أوممن ينكِر حتى لا يعرف شيئا ، فاذا أنت تنظر من أعماق الأزَل فى تراب هذا العالم ونحن لاندرى

وسألنا الله أن يردَّك علينا أيها العزيز فأثبت لنا أنك من أعز مافى الحياة حتى سقط دونك الأمل فلا يتمثّلك الا الفكر وحده

« * »

وذهبتَ الى بيت الله متجرداً من الدنيا ليس لك منها إلا جسمُك لتَخِفَّ الى محبته ورضاه ، فلما شاهدتَ التجلّيَ الأعلى تجردتَ من جسمك أيضا واتصلتَ بنوره سبحانه وتعالى . فلقد خلعتَ الدنيا مرتين ومات بعضك في

مصر وباقيك في الحجاز ، وخلصَتْ روحُك الى ربها كما تخلُص الجوهرة صافيةً متلألئة بعد استخراجها من معدنها مرةً وصقلها للرَّونق مرةً أخرى

وأَبى الله لروحك الطيبة الا أن تمرَّ في بيته قبل أن تمر اليه فتَسبح في نور الملائكة وتتنسَّم ناحيةَ مَهَبِّها وهي تصعد أَو تنزل بالرحمة على الحَجيج [1] وتستضيء بتلك الشُّعلة القُدسية التي أضاءت في الكعبة من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم من سَرائر أصحابه الطيبين ولا يزالُ ضَوءها هناك كضوء الكوكب مُلتَمِعًا في سواد الحجر الأسود

(*)

واختار الله لك بعد إذ انغمستَ في نوره أن تصعد اليه فلا ترجع من ذلك النور الأَزليِّ الى ظلام الدنيا ، ولا تعود من النَّبْع السماويّ الى حَمْأة الأرض ولا تحلّ في بيت من بيوت الخَلق بعد بيته هو عزَّ وجَلّ

(١) هم الحجاج

واختار لك ما عنده على ما عندنا فما في أيام هذه الحياة الا غبارٌ يَثُور على غبار ، ولا في الناس إلا أحجارٌ تتحطم على أحجار ، ولا في أخلاقهم إلا أقذار تنصبُّ على أقذار ، ولا بين الحوادث والناس الا كما بين الرياح والقِفار ، ولا بين الإخوان والإخوان إلا كما تُجمع الأصفارُ من الأصفار . . . .

واختارك الله إذ اختار لك فما تركت يرحمك الله الا عَلانيَةً مشهودة ، وسَريرةً محمودة ، وآثارا في الصالحات ممدودة ، وأفراخاً في شجرة الحياة كصِغار الطير اذا رأت أباها فارَقَ عُودَه

يرحمك الله إن أول ما يشهدُ لك عند الله كعبتُه إذ كانت آخرَ ما عرفتَ من الدنيا ؛ وإن الذي يدخل السماءَ من باب الكعبة لَحقيقٌ أن تضعَ له الملائكةُ أجنحتَها سلاما وتحية . فهنيئاً لك إذ فتحتَ بابَ السماء بتلك القُبلة الزكية التي وضعتها على أستار الكعبة ؛ وهنيئاً لك إذ ذهبتَ لتقول لَبَّيك اللهمّ لبيك فانطلقتْ روحك الطاهرة

فيها وكانت أول كلماتك في السماء . وهنيئاً لك ثم هنيئاً إذ قطعت البحرَ والبرَّ الى خير بِقاع الدنيا لتقول لله من هناك : هأنا يا إلهي

«*»

ان الحقيقة لا تَسأل كيف يحيا الحي ؟ ولكن كيف يموت ؛ ولا تَتَعَرّفُ ما قُدرتُه على الإقامة ؟ ولكن ما قدرتُه على الرحيل ؛ ولا تبالي ما قوّتُه على الرسوخ كالجبل ؟ ولكن ما قوته على الوثوب كالطائر . فهناك بين حدود الدنيا وحدود الآخرة موضعٌ هاوٍ لا يتخطاه الا ذو جناحين قد اشتدّ كل منهما ووفى[1] . وهناك متى انتهى الانسان وجد عقله وضميره قد امتدّا من جانبيه كالجناحين ورأى كلَّ عمل من أعمالهما في السيئة والحسنة — إما ريشةً قد نَسَلَها من جَناحه وإما ريشةً قد أنبتها فيه

القدرةُ على جو السماء فى جناح الطائر وفي ريش هذا الجناح وفى قوة هذا الريش ؛ والقدرة على السماء نفسها فى

(١) طال ريشه

عمل الانسان وقيمةِ هذا العمل وصحةِ هذه القيمة

«*»

لسنا نبكي عليك أيُّها العزيز وانما نبكى على أنفسنا فان ما أمامنا لا يمكن أن يكون دنياً غير الدنيا يُفتَح لها تاريخ غيرُ التاريخ. والحقيقة التي ضمَّتها ملايينُ «المجلدات» المحفوظةِ في القبور (١) هى هى بعينها ان تتغير وان تتبدَّل. فاذا بكينا الميتَ فما بكينا ذهابه عنا ولكننا نبكي لبقائنا بدونه، كما اجتمع نفر من الغُرباء في البلد النائى؛ فيُختَرَمُ أحدُهم (٢) فما يَرَوْنه الا معنى من أنسهم قد زال، وركناً من قوَّتهم قد مال، وجانباً من نظامهم قد أفسده الاختلال. وما دام في الارض باكٍ على ميت فالأَرض دارُ الغربة لكل من عليها، وهى لن تكون وطناً لمن سيفارقها الا إذا عُدَّ بطنُ الأُم وطناً لابنها

من وطن الأشهر المعدودة ينحدر الانسان الى وطن السنين المعدودة. أما الأَزَل والخلود والوطن الانسانى

(١) كناية عن الناس (٢) يهلك بجائحة من الجوائح

الـكبير فهناك . هناك حيث لا تساوى كرةُ الأَرض بما فيها أكثر مما تساويه ذَرَّةٌ من التراب تَصعَدُ أو تهبط

وهذا الذى نكرهه عقلاً من أمر الدنيا هو الذي نرانا مضطرِين الى أن نعقله كرهاً شِئنا أو أبَيْنا

فابكي أيتها الأعينُ الانسانية وتهيَّئي للبكاء ما دمت باقية . إن تيار هذا البحر الذي تنصبُّ فيه الأحزان لا يَعُبُّ من دموعنا (١) التي نبكى بها لمكابدَة الموت ولكن من دموعنا في مُنَازَعة البقاء

« * »

لَهْفى لذكراه صديقاً كانت نفسه العالية كالنجمة وُهبت قوةَ النزول الى الأرض ، وحبيباً لو انقسمت روحى فى جسمين لكان جسمَها الثانى . .

كان دائماً كالذى يشعر أنه لابدَّ ميتٌ وتاركٌ ميراثَ مودَّته فلا أعرف أني رأيت منه الا أحسنَ مافيه ، وكأنما كان يضاعفُ حياتى بحياته ويجعلنى معه إنسانين

(١) أي لا يتدفق

وكان له دِينٌ غَضٌّ كعهد الدين بأيام الوحي لا تزال تحته رِقّةُ قلب المؤمن وفوقه رَفّةُ جناح الملك يخالط نورُه القلوب

وكان حَيِيًّا صريح الحق ترى صدقَ نيته في وجهه كما يريك الحق صدق فكره في لسانه. ساميًا في مروءته ليس لها أرض (١) تَسفُلُ عندها وإنما هي الى وجه الله فلا تزال ترتفع . وَدُودًا لا يعرف البغض محبًّا لا يتّسع للحِقْدِ ألوفا لا يسِرُّ المَوْجِدَةَ على أحد

وكان رَحيبَ الصدر كأن الله زاد فيه سَعة الأعوام التي سينتقصها من حياته ففي قلبه قوة عُمرين . وكان طيّبَ النفس فكأن الله لم يمُدَّ في عمره طويلاً لأنه نفى منه الأيام الهالكة التي يكون فيها الانسانُ الانسان معنىً من معانى الموت (٢)

« * »

(١) كناية عن انه لا ينحط فيها ولا ينزل سفلا (٢) كأيام القطيعة والعداوة والكيد ونحوها مما يجعل أعمار الناس أقصر مما هي

آه لو عرف الحقَّ أحدٌ لما عرف كيف ينطق بكلمة نسيء ، ولو عرف الحبَّ أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة تَسُرّ ، ولن يكون الصديقُ صديقاً إلا اذا عرف لك الحقّ وعرف لك الحب

لا أريد بالصديق ذلك القَرِينَ الذى يصحبك كما يصحبك الشيطان لا خيرَ لك إلا فى معاداته ومخالفته ... ولا ذلك الرفيقَ الذي يتصنَّع لك ويُماسِحك متى كان فيكَ طعمُ العسل لأن فيه رُوحَ ذُبابة .... ولا ذلك الحبيب الذي يكون لكَ فى همّ الحب كأنه وطن جديد وقد نُفيتَ إليه نفىَ المُبْعَدين .... ولا ذلك الصاحبَ الذي يكون كجلدة الوجه تحمرّ وتصفرّ لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها . فكل أولئك الاصدقاء لا تراهم أبدأ الا على أطراف مصائبك كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدىء المصيبة لا من أين تبتدىء الصداقة . ولكن الصديق هو ذلك الذي اذا حضر رأيتَ كيف تظهر لك نفسُك لتتأملَ فيها ، واذا غاب أحسستَ أن جزءاً منك ليس فيك

فسائرك يَحِنُّ اليه . فاذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك، وإذا تحوَّل عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود ؛ واذا مات ؟ يومئذ لا تقول إنه مات لك ميّت بل مات فيك ميّت ؛ ذلك هو الصديق

« * »

وكنا ذاتَ يوم على شاطيء النيل وبَزَغَ الهلالُ كأنه إصبعُ مَلَك من الملائكة خرقت ستار السماء لتُحدِث فيه ثقباً تنظر منه الى نجمة ستهوى . فقلت له هذا الهلالُ ما انفكَّ يتلقّى نورَ الشمس منذ خُلق وهو في نفسه مظلم أبداً ولكنه من صحبته للنَّيّر قد أنار وصار مع الشمس شمساً بيضاء ، فما أكرمَ الصداقةَ من نعمة لو أصابها المرء على حقها فيمن خُلق لها . كان أهل الكيمياء القديمة يسمونها « علم زراعة الذهب » وأنا أسمي كيمياء الشمس في هذا القمر « زراعةَ الفِضّة » فماذا تسمي أنت كيمياء الصداقة في معادن القلوب ؟ قال أُسميها « زراعةَ الخير » . قلت فان لم يُنبت وأكله لؤمُ أرضه ...؟ قال ذاك الى الله لا الينا

فان في هذا الوجود قانوناً دقيقاً للخَيبة لا يتسامح في شيء وما يعرف منه الناس إلا حكمه ُ حين يقضي فينفذ قضاؤه بدَرْك الشقاء . ألاَ إنه ما من الخيبة في الحياة ُبدّ فأنها ردُّ الأقدار علينا حين تقول « لا » ؛ وهذه الخيبة هي العلم الذى موضوعه أن يعلم هذا الانسان المغرور أنه شيء في الحياة لا كلُّ شيء فيها . فاذا كذَبكَ صديقُك مما قِبَله وغمّك بكثرة خطأه وزَلله فلا تزرعْه مَقتاً وبغضاً بعد أن زرعتَه خيراً وحباً، ولا تقطعْه بل انتظر فيأَتَه[1] فان فِتنْة الصدر غامضة ولقد يكون أشدُّ البغض من أشد الحب وليس لنا مع سُفن القلوب اذا اختلفت رياُحها وهبّتْ عواصفها الاّن نطوي الشراع ولكن الى وقت .

فاذا جَهَدَك البلاء من صاحبك وبلغ منك اليأس فما يسوغ ُلك أن تكون معه إلا كالذى حفر الُحفْرَة ثم طَمّها بترابها[2] ألقى فيها ما كان فيها من قبل ومضى كأن لم يكشفها قلت آه . فاذا كانت الحفرة من شرها فى عمق البئر

(١) الفيأة الرجعة كما يدور الظل ثم يرجع الى مكانه (٢) ردمها وغطاها

ذاهبةً الى الأغوار البعيدة أفأفضي شَطْرَ العمر أردم فيها بعد أن قضيتُ شطره أحتفرُ منها ؟ قال فمن ذا جعلها بئرا سواك. قلت ولِمَ لا أدعها بئرا خَسِيفَةً[1] يلعنها عمقها الغائرُ فيها بأنها فارغة مظلمة ويلعنها ترابها القائم عليها بأنها متروكة مُهْمَلة ؟ قال سبيلُ الفضيلة غيرُ هذا فكن مع الناس في حال تُشبه محلَّ نفسك لا محلَّ أنفسهم ؛ وما أنكر أن من الناس من يوقعون في نفسك الظِّنَّةَ[2] بكَيْتَ وكيتَ من سوء خُلقهم وكذا وكذا من قبح أعمالهم حتى لتكون صداقةُ أحدهم كأنها نصفُ معركة حربية... ولكنَّ الهزيمةَ عن صديقك وأنت صديق خيرٌ من النُّصْرة عليه وأنت عدوّ. فتحصَّنْ من كيد هؤلاء وأشباههم بالانهزام عنهم لا بمدافعتهم فذلك إن لم يُقعِدهم عنك لم يُلحقهم بك ثم إن ردك اليهم رادٌّ بعدُ كنت الأكرم

واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان : الصبرُ على

---

(١) أي منخسفة عن الارض

(٢) الظنة التهمة تجد من أخلاقهم وأعمالهم ماتتهم صداقتهم به...

الصديق حين يغلبه طبعُه فيسيء اليك ، ثم صبرُكَ على هذا الصبر حين تغالب طبعَك لـكيلا تسيء اليه

وأنت لا تصادق من الملائكة فاعرف للطبيعة الانسانية مكانَها فانها مبنية على ما تكره كما هي مبنية على ما تحب ، فان تجاوزتَ لها عن بعض ما لا ترضاه ضاعفتْ لك ما ترضاه فوَفَتْ زيادتُها بنقصها وسَلِمَ رأسُ مالك الذى تُعامل الصديقَ عليه

« * »

قلت فانى لا أعنى ذلك الذي أضع « رأس » المال بيني وبينه ولكن شخصاً آخر وضعت « قلب » المال بيني وبينه . . . . قال فههنا إذن ؟ ومن هنا صارت الحفرة بئرا . . . . ولكن أفتِني فانى لا أعرف هذا الذى تسميه الحب فهل هو بين النفسين شيء غير الصداقة ! قلت هو هى إلا فرقاً واحداً . قال إن كان واحداً فلقد هان فما هو ! قلت الفرق بينهما أنك ترضى أن يكون الصديقُ لنفسه أكثرَ مما هو لك ولكنك لا ترضى إلا أن يكون

الحبيب لك أكثرَ مما هو لنفسه . قال فذاك رِقٌّ لا حب .
قلت وهذا هو الذى يجعل الحفرة بئراً ، فالصداقة فى المودّة
تجذب الطبع من الطبع ليتفقا ولكنها فى الحب تجذب الطبعين
ليكونا دائماً عند النقطة التى يتناقضان منها . وأعظم
ما يسوءك من الصديق لا يزيد على أن يردك الى نفسك
وحَسْبُ ، ولكن أيسر ما يغضبك من الحبيب يسلّط
نفسَكَ عليك بسوء التحكم والإعنات والآراء الفاسدة حتى
يترك دمَكَ وكأنه تيار من الغيظ ، فاذا حبيبُ نفسك أعدى
أعدائها واذا هو قد أصبح العدوّ لانه لا يزال الحبيب .

قال أمَا إن هذا تعقيدٌ على النفس وهو العلة في أن
المحب المَغيظَ لا يسكن غيظه ولا يهدأ فَوْرُه لانه يحل
العقدةَ الواحدة بطريقة تجعلها عقدتين . ولكن أو ليس
خيراً لك اذا أنت دُفِعت الى المداوة في الحب أن تستشعر
بكرم الملَك الذى في نفسك لؤمَ الحيوان الذى في صاحبك
فترجعَ بنفسك أنت الى مَلَكيتها وتردّه هو الى حيوانيته
أما إنى أعرف لاهل الحب دواءً ما يَعرض بعده رجل

من امرأة أساءت اليه. أيها العاشق أما صَدَمتك بهيمةٌ من البهائم او رَمَحَتْك [١] او جَمحتْ بك فأوجعتْك بلا غيظ وأساءت اليك بلا حِقد وكسرتْك بلا انتقام ولم يتعاظمك من أمرها شيء في الوهم ولا في الحقيقة؟ ألا ويحك ألبِسْها جلدَها وحوافرَها [٢] . . . ولا تتمثلْها في مخيلتك الا وجهاً جميلا على جسم حيوان؛ فانك إن تفعلْ ذلك وتأخذ نفسك به تطمسْ عليها في محبتك طمساً ولا تجد لها في قلبك الا النفرةَ والاشمئزاز وتُعجز فيها الشيطان لا يدرى من أين يأتيك ولا كيف يتدسَّسُ بها الى دواهيك مادام لها عندك الجلْدُ والحافر . . .

ولعل الناس لم يعتادوا فيما بينهم أن يتنابزوا ويتسابُّوا في عبارات السقوط والتحقير بأسماء من أسماء البهائم كالكلب والخنزير والحمار الا على هذا الأصل الذى بينتُهُ لك تُوحي به غريزة الكراهة والسقوط من حيث يدرون أو لا يدرون

(١) رمحت الدابة رفست (٢) نحسب هذه العبارة ستجري بين المحبين مجرى الامثال فاذا شكا اليك محب يريد السلو ولا يطيقه فاختصر علم النفس كله في قولك « ألبسها جلدها وحوافرها »

الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصداقة وأسفلها .
ألا ترى أنه ما دام الحبيبان على أسباب الرضا فكلاهما أو أحدُهما يتمثّل الآخر كما يتمثّل ملَكا من الملائكة بل ويسميه الملَك الحارس أو الملك المُوحي أو الملَك المقدس .

فاذا صارا الى الخلاف واستحكم بينهما لم يُغْن طلبُ المعاذير تتعزّى بها الصداقة ولا طلبُ العَثَرات تشتدُّ بها العداوة ، وليس للمَغيظ منهما شيء دون أن يعمدَ الى تلك الصداقة فيجعلَ عاليَها سافلَها . فلم يبق حينئذ إلا أن يكون صوابُ الحب فى هذه الحالة قائما على عكس الحالة الاولى . فما كان في صورة مَلَكية ليثبت عليه الحبُّ وجَب أن ينقلب في صورة حيوانية ليزولَ عنه الحب

«*»

يامن أسكره الغرامُ . إن عَرْبَد حبُّك فاحطم كأْسه وأرِقْ خمرها ولا ترها الا سمًّا فان أكبر البلاء على السكّير أن يُلبس الحقائقَ المهلكةَ أثوابَ زينتها ؛ فيزعم بينه وبين نفسه أنه لا يشرب الخمر ولكنه ينقَعُ غُلّة أحزانه بكأس

من ماء السرور، ولا يَتوحّل في السكر ولكنه يَستمطِر على خموله سحابةَ النشاط ، ولا يتجرّعُ الجنون ولكنه يُذيبُ همومَه في جرعة من النسيان ....

ألا ما أصدقَ الخمرَ في السكير وهي صامتة ، وأكذبَ السّكيرَ على الخمر وهو يتكلم .....



الفصل التاسع

﴿ الشيخ محمد عبده ﴾

وشفَّ سحابي عن جلال رائع يضطرب القلب له
أذكرني روعةَ السحابة التي كان يهبط فيها مَلَك الوحي
ليست في نفسها آية ولكن الآية فيها

وظهر لي وجه الشيخ وما أدراك من الشيخُ ثم ما أدراك من هو[1]. رجل كان في تركيب العالم الاسلاميّ أشبهَ بالجبهة من جسم المؤمن؛ هي مَجْلَى نور الإيمان وأعلى ما يرتفع للأعين ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من هذا الجسم كله

خلق فصيحاً مُبِين اللهجة لأن لسانه أُعدّ لتفسير معجزة الدنيا في هذه اللغة فكان لسانه ولا غروَ معجزة في

(١) قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن (وما أدراك) فقد عقب ببيانه نحو «وما أدراك ماهيه، نار حاميه» وكل موضع ذكر فيه وما يدريك لم يعقبه بذلك نحو «وما يدريك لعل الساعة قريب». قلنا وهذا من أدق معاني الاعجاز فان «ادراك» صيغة الماضي والماضي مكشوف معروف لانه وقع ولكن يدريك صيغة المستقبل والمستقبل محجوب فتأمل وكرر النظر فان المقام لا يتسع هنا

الألسنة ، وكان له بيانٌ ينبَثُّ من طبعه المصقول كالشعاع الذي تُوامِضُكَ به المرآةُ اذا انقدحت جَمْرةُ الفَلَكِ عليها (١)

وكان له عقلٌ لو وُزِنَ في رُجحانه لعُدَّ بين العقول من مَوازين التاريخ ، وقلبٌ إن يكن في جنبيه كالقلوب التي وضِعَتْ على مُنحدَرِ المعاني الأرضية فانه كان دون القلوب على مَهْبَط السموات (٢)

رجلٌ لم يُخلق من قبل زمنه لأن الأقدار المُصَرِّفَة ذَخَرَته للقرن الرابعَ عشرَ تجعله وأصحابَه النهضةَ الثالثة في الإسلام (٣) وكتبت له أن يكون الكنزَ الثمين الذى يُفجأُ العالمُ بانكشافه ليعود القديمُ المُبْدَعُ الذى كاد يُنسى فيتمكّنَ في الأرض بأسلوب جديد. وما يُدريك لعل هذا الحكيم الفذّ في علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون التمثالَ العقليّ المُشرِف على الأجيال ، يفصل في تاريخ

(١) كناية عن الشمس وتوامض تبرق (٢) ليس همه الا المعالي ومصالح الخلق (٣) نهضة الاخلاق زمن الصحابة والتابعين ، ثم نهضة العلم من بعدهم ، ثم نهضة العقل الاسلامي التي كان يدعو اليها الشيخ رحمه الله

الإسلام بين ثلاثة عشرَ قرناً مضت وثلاثةَ عشرَ قرناً تأتي ؟

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده على بُعد عصره من فجر الإسلام ؛ فكان يحمل في رأسه ذهناً كالآلة اللاسلكيّ تهبط عليه من أقاصي الدهر شرارةُ النبوّة ، فاذا تكلم في آيةٍ رأيتَ كأنما تتكلمُ الآية نفسُها على مَلاٍ العقل بين مَشارق الأرض ومَغاربها

ولست أدرى على أيِّ روح نبَتَ هذا الرجل ولكنَّ الذي أعرفه أنه حين أثمر فنضجَ فَحلاَ أذاقَ الناسَ من ثمره طعمَ مُعجزة الفكر العربي

« * »

نظرتُ الى عينيه ذات مرة مُخيِّلَ إليَّ أن فيهما رهبةَ الأسد حين يُجاَّي بنظرة كبريائه (١) ليدلَّ على أنه الأسدُ لاغيرُه، فدَدتُ النظرَ اليهما فاذا رَوعةُ إنسان هو أرفعُ من إنسانيتنا واذا أنا ألمحُ فيهما ذلك الشعاعَ الغريب

---

(١) أي برفع بصره وينظر نظرته الشديدة

الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السرّ الكامن فى المعقول والسر الكامن في العقل ، وكأنه استشعر ذلك فتبسَّم فكان لنظرته جلال سماوىّ رحيم أشرق على نفسى كما تُشرق على روح الطفل ابتسامةُ أصله الانسانى

كان منطوياً على حقيقة روحانيةٍ يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل ولكن مع النفس العالية التى هي فيه (١) ، وكان أعظمَ هيبةً من الملوك لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب والأسلحة وكثيرٍ من ضروب التوقير والتعظيم أما الشيخُ فكنت تراه حيث رأيتَه كالمحراب حيث يكون لا يقف عنده الا من وقف ليتخشَّع ، وما ذكرتُه إلا

(١) قابلت الشيخ رحمه الله في الجامع الازهر مرة من المرات واستأذن عليه طالب من نوابغ الطلبة وأذكيائهم فلما مثل بين يديه وقف كما يقف المصلي واضعاً يديه أسفل صدره رامياً بطرفه الى الارض وتكلم كالمناجي المتضرع حتى فرغ وانصرف . فأعظمت ذلك ولما خرجت لحقت به وكلمته فيه فقال : وأنا أنكرت من جلوسك الى جانب الشيخ تلك الجلسة ما أنكرت أنت من وقوفي على تلك الهيئة . لو تعلم أن أحدنا لا يقف أمام هذا الرجل الا كما يقف العالم ازاء كتاب نادر مضى يفتش عنه عدة سنين فلما رآه سجد لله شكرا وأنت تحسبه يسجد للكتاب

ذكرتُ قول القائل : فى هـذه الصورة الآدمية آدَمُ
والملائكةُ له ساجدون

« * »

كانَ هذا الإمامُ الفذُّ في قوة من ربه كقوة الجبل
يحمل ما يحمل ولا يتلوى ، وفى سَعَة من طبعه كاستفاضة
البحر يَغْمر ما يغمرُ ولا يتغير ، وفى صَراحة من نفسه
كاستطارة النهار يطلُع كما يطلع ولا يخفَى؛فهو رجل لكنه فكر
من أفكار السماء ، وهو جسمٌ لكنه عضَلَة من عَضلات
الطبيعة ، وهو انسانٌ لكنه حقيقةٌ من حقائق الكون
يصفه الناسُ بأنه الرجل الحكيم الذى أُوتيَ سرَّ
الحكمة لينْبُغَ به ، ويصفه التاريخ بأنه الحياةُ المجدّدةُ التي
وُهبت سرَّ العَظَمَة لتعملَ لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل
المفسّر الذى اتصل به طَرَفُ السر الأعلى ليتكلمَ عنه
وليعملَ له ولينبغَ فيه
اذا كان فى بعض جَوانح الأرض أمكنةٌ نادرة
مقدّســة هى قلبُ الدنيا الذى أودعه الله سرَّ التألُّه ففي

بعض جوانح الناس قلوب نادرة هي كتلك الأمكنة .
ولقد كان العالم الإسلاميّ كله يتصل من قلب الشيخ العظيم بمَنسِكٍ (١) فيه معنى كمعنى الكعبة اذ تُوَلَّى شَطْرَها كلُّ وجوه المؤمنين

«*»

وأما بعدُ فكأنما أفرط عليَّ القلم فيما كتبتُ عن الحب فانه يخيَّلُ اليَّ الساعةَ أن روح شيخنا الجليل تريد أن تغسل هذا الكتابَ كله وتدعَه ورقاً أبيض (٢) ؛ ويخيَّل اليَّ كذلك أنى كنت ماضياً فيما أكتبه كما تتعَكَّسُ الأَفْعَى (٣) في مِشيَتِها إذ يندفع نصفُها ليجرَّ النصفَ الآخر ، فلا تدري إن كان آخرها معلّقاً بأولها أو الأولُ هو معلقٌ بالآخر

وكذلك كنتَ أكتب فرةً أجد الفكر يجرُّه القلبُ

(١) مناسك الحج عباداته وكذلك مواضع العبادات
(٢) لما انتهيت الى هذا الموضع من الكتابة وفرغت من صفة الشيخ دهمتني فجأة من فجآت المرض أنستنى بأيامها كل ما كنت أريد أن أخطه في الفصل وكسرت حدة نفسي وهيأتني تهيئة جديدة لكلام جديد فكان هذا من أعجب ما اتفق (٣) تمكسها أن يتراجع بعضها على بعض في انسحابها.

جرّا ومرة أجد القلب ينسحب للفكر وبين ظَهْرَيْ ذلك(١) أراني ساعةً مُمْتَلِخَ القلب وساعة مُدَلَّهَ العقل(٢) كأني لم أُحبّ إلا لأتحول رجلا شاذا تراه في الحب والبغض وفي الصواب والخطأ وفي الفكر والحِس على حَدٍّ مما يُعْرَفُ وحدٍّ مما لا يُعرف فليس كله من هذا ولا كله من ذاك ؛ وهو محب الا انه يُبغض ومُبغض لكنه يحب

إن زَفْرَةً من جهنم ونفحةً من الجنة جاءَتَا الى هذه الدنيافرأتا من خُبْث الناس بِدْعاً مُبْدَعاً(٣) حتى لا يَخلُصون بأعمالهم الى جنة ولا نار فلام أهل هذه وحدها ولا أهل تلك على حِدَة ؛ فاختلط نَفَس الجنة بزفير النار وامتزجا حَرّاً يستوقدُ الضلوعَ ببرد تثلَجُ عليه الصدور واجتمعا نعيماً ببؤس وراحةً بتعب وسروراً بهمّ ثم وقعا في القلوب معاً فاذا هما الحب . كذلك توحي اليّ روح الشيخ

أنت ياهذا إن أحببتَ امرأةً فهي كما تُثير كل مافيك

---

(١) أثناء ذلك تقول : هو يتكلم ويعمل كذا بين ظهرى ذلك، أي في أثناء الكلام (٢) أى ذاهبهما (٣) أمرا غريبا

من الكمال تُنبه كل ما فيك من النقص ، بَيْدَ أنها تجعل هذا النقص عُلْوِيًّا وهو أفسدُ له كالزَّوبَعَة إذ ترفع من الأرض خَلْقًا ماردا من الغبار ملتفًّا بالنور ذاهبا الى السماء ؛ فيكون ارتفاعُ الغبار شرا طائرا لم يكن في الغبار الساكن ......

أفتحسَبُ أن حبك إياها هو الحب ؟ كلا بل هو باديء الأمر حبُّك أن تُعْجَب بك ثم يزيد فاذا هو الحبُّ أن تميل اليك ثم يبلغ فاذا هو حبك أن تخضع لك . هذه ثلاثٌ كلهن مَفْسَدَة فان هي أدَّت في رجل واحد من الانسان الى فضيلة واحدة أدت الى ألف رذيلة في ألف رجل من هذا الحيوان [1]

كل شيء يمكنك أن تضع ضميرك في أوله فتمضي فيه على بصيرة إلا هذا الحبَّ فان ضميرك لا يأتي موضعُه فيه الا آخرا ؛ فاذا أنت أردت أن يحكم قلبك على من تحبها وأن تأخذ عليها حكمَ قلبها [2] فانما تريد بنفسك الألمَ

(١) كان أكثر زجر الشيخ لأحد أن يقول « ياحيوان » فيوبخ ولا يقوله لاحقاً (٢) أي لا يحكم قلبها عليها الا بما أردت أنت

لا الحب . تريد أن تستوحي الدموع وتُخرج منها كلاما يبكي . تريد أن تزدرِعَ شجرةَ الجنون التي ينبت فيها زهر الشعر . وهذا لا يسمى حبا لحبيبة ولا يُؤمَن الا على كبار الحكماء كما لا يُؤمَن فحصُ آلالة المُهلِكة .... الا على كبار العلماء والمخترعين

أنتَ ياهذا إن أحببتَ خاضع لقلبك ولكنك أنت وقلبَك سائران في طريق قلبها ... يقول كل محب في حبيبته: لاهيَ الا هيَ . أفلا يدل ذلك على ضلال الحب وإفساده مَلَكَةَ التمييز وأنه شيء من الخبَل يَعتَرِي فكرةً بعينها في العقل ويُخرجها الى الهَوَج والبلَه ؟ واذا ساغ لكل محب أن يقول في صاحبته لاهي إلا هي فمعنى ذلك أن (الهيَات) .... كلهن عبَث وباطل وتكون الحقيقة الطبيعية التي يُصَرِّح عنها هذا القياس أن كل هِيَ مثلُ كل هي في الواقع ولا انفراد لها الا في عقلٍ مجنون لا مِساكَ له من المنطق ولا عبرة به في القياس . من أعجب الأمور أن الصفات التي يعدُّ بها الانسان إنسانا تخضع كلها أحيانا الصفة

واحدة من تلك الصفات التي يُعد بها الانسانُ حيوانا .
فان خدعك بائع مثلا في دراهمَ معدودات لا تَمْضِ الأمر على أنه خدعك بل تعرف أنه غشَّك ثم لا ترى أنه غشك بل ازدراك ثم لا تقول إنه ازدراك بل تَهَزَّأ بك ؛ وهذه حركة النفس في اندفاعها اذا تُركت تندفع وتركت المعانى الغضبيةُ تخوض في دمها .

ومن ثَم فلا يكون البائع في رأي نفسك قد سلبك بعضَ الدراهم بل شيئاً من القوة التي بها حَوْلُكَ وحيلتُك ومن الذكاء الذي تعامل الناس عليه وسلبك بعض الشأن الذي يجعلك رجلا ذا بصَرَ ومعرفة ؛ وعلى قَدْرِ ما يتحرك من ذلك في نفسك يتحرك من الغيظ والحقْد إن كنتَ رجلا داهيـةً ذكيا وبخاصةٍ إذا رأيت البائع لا يبالي أن تعرف أنه تَغَفَّلك بل يجعل من همِّهِ أن تعرف ذلك . فلا تعود الدراهم أشـياء كما هي في نفسها من ضعف الخطَر والقيمة بل كما هي في نفسك مما وُضِعَ أمرها عليه ، فلا تنحطُّ قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس وتلتحق بمعاني القهر

والغلَبة وماكانت الا من بعض معانى الربح والخسارة .
وعلى هذا المثل يقاس أمر الحب ونكده وجنونه فما هو على قدر المرأة ولا بمقدار مما تعطيه ، وانما هو استخذاء المعانى الانسانية وخضوعُها لصفة حيوانية واحدة ينصرف كل ما في هذا الانسان اليها ؛ والأمر بعدُ كما قال أحد الأطباء في تعليل الجوع إذ قال : ان المعدة متى خَوَّتْ [1] وفرغت من طعامها الذي كان فيها بعثت أعصابُها الباطنة برسائلها العصبية الى ساقة المخ [2] والى مركز الاعصاب في العمود الفَقْرِي تُؤْذِن بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر قال فتترجم مراكز الأعصاب السُفْلى هذه الرسائل الى جوع . وقل أنت مثل ذلك في القلب فانه متى وقعت امرأة من حاجته موقعاً ظَمِيءَ اليها فأرسل رسائله العصبية الى المخ بأنه من الواجب . . . إطفاء هذا الغليل المحرق فتترجم مراكز الأعصاب هذه الرسائل الى حب . . . وأنت أعلى عيناً [3] بأن هذا كله نقلٌ للمعاني الحيوانية

---

(١) أي خلت والخواء (ويقصر) خلو الجوف من الطعام
(٢) الجزء الخلفي منه (٣) أي أبصر بذلك وأخبر

الى اللغة التي تحرك النفس فتُلجئها الى تسخير قواها في دفع الألم ان كان حقيقة أو خيالا . فاذا أضلّكَ أمرُ الحب وضقت به وعجزت أن تَصرف القلب عن رسائله فاشغل العقل عن ترجمتها وأحكِمْ معاقِدَ هذه الخيالات ومَقاصدَها وازْدَرِ تلك الحيوانية وأبْقِ الدرهم على قيمته . . ولا تحسبَنَّ المرأة مُعطيةً أكثر مما فيها ولا تتوهمنَّ أحسن ما يبدو لك منها إذا سَحَرَتْ به على عينك إلا صورةً مسحورةً من أقبح ما فيك أنت . فان قرَّرْتَ في نفسك هذه القواعد وأجريتَ عليها ما يترجم لك العقلُ من رسائل القلب جاءك من هذه الرسائل الحكمةُ والفلسفة والكبرياء والأنفة أو الصبر والأناة ؛ وخُضت الغمرة(١) بذراعين فيهما السباحةُ والنجاة لا الاختباطُ والغرق

كذلك أوحت الى روح الشيخ

« * »

في منطق الحِسّ متى وُجدت الأسباب جاءت النتيجة

---

(١) اللجة ومكان التيار

من تلقاء نفسها لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدماً ، فاحذف الأسباب تسقط النتيجة . ولكن الأمر عكس ذلك في منطق الحب . إحذف النتيجةَ تسقط الأسباب كلها فانك إن لا تفكّر في لذة ترجوها أو تحرص عليها نسيك الحب قبل أن تنساه ؛ وهل علمت قطّ عجوزاً تُعشق لانها عجوز ليس فيها الا حُطامُ العمر أو عرفتَ إنساناً يَحْدُسُ عليها ظنّاً من ظنون الحب أو يصل بها سبباً من أسباب المطْمَعَة ؟ أما إن هذهِ الفانية منطق سقطت نتيجته فلا يمكن فى الطبع أن تقوم أسبابها . فاذا أنت محقتَ النتيجة وخيالها لم يبق بينك وَبين المرأة ماسّة [1] منك أو منها واستحالت الى منظر من مناظر الجمال يُفهمك أو يُلهمك أو يفسر لك فلاتنزل منها منزلةَ الرجل بل منزلةَ الفكر ولا تكون هي منك بمقام المرأة بل بمنزلة المعنى.

المصائب والنساء ؛ من شقاء الشقيّ أن يبالغ فيهن ؛فان

---

(١) أي صلة وشابكة

ما ينالك من خوف المصيبة ليس منها ولكنه منك وما يُذهلك من حب المرأة ليس فيها ولكنه فيك ، فأنت من ذلك كالذى ينحت صنما من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة والرهبة من نفسه فاذا القدرةُ كلها قد استفاضت عليه واذا الحجرُ الذى لا يملك ولاحشرةً من حشرات الأرض قد تملك رجلا بعقله وقلبه وحواسه وحيّزه من الدنيا ، واذا هذا الرجلُ يتعبَّدُ بحقيقته لخياله وبعقله لوهمه وبعلمه لجهله وبما يَصدق فيه لما يكذب عليه ، ويبقى الحجرُ حجراً ولا يبقى الرجلُ رجلا . وكذلك يصنع عاشق المرأة بالمرأة وهى عند نفسه كأنما نبتَ جسمها على روح صنم معبود ؛ يحسب فيها السماء والجنةَ وما فيها أكثرُ من امرأة ويكون منها في الحب والرضا كحجر الألماس يلقى عليه الضوء لونا واحدا فيخرجه من قلبه ألوانا ذواتِ عدد في بَريقٍ وبَصيص ، وفي البغض والنفْرة كالجسم المحترق تحوّل كله ناراً من شرارة أو جمرة أو شعلة . وهو في كلتا الحالتين يُسرُّ ويألم بمادّته كلها لقليل طرأ عليه من مادتها هي ، فهي

شيء واحد ولكنها بعادته تنقلب جمالا ملء عينه وفتنةً ملء صدره وفكراً ملء عقله وكذا وكذا مع هِنٍ وهِنٍ وهنَات [١] . انما هذه سبيل اللذات في الانفس المريضة التى تَزْدَلِفُ بما فيه لذتها الى ما فيه هلَكتها ولا تُكسبها اللذةُ شعوراً الا لتسلبها شعوراً غيره ولا تهيج فيها خيالا إلا لتطمس به على حقيقة ولا تبتعث حرصا إلا لتغلب به على قَصْد ؛ فالخمر فيمن يُبتلى بها تسلب الشعور بفضيلة العقل لتُنشيء اللذاتِ الخياليـةَ التي هي من بواعث الجنون ؛ والمال فيمن يحرص عليه يَستلب الشعور بفضيلة الخُلق ليحدث له اللذات الوهمية التي هي من بواعث السقوط ؛ والمرأة فيمن يُمتحن بها تنتزع الشعور بفضيلة التمييز لتُؤْتيه اللذاتِ الغريبة التى يكون منها الجنون والسقوط؛ ضَرْب من هذا وضربٌ من ذاك . ولن تجد كلّ جرائر الحب الا متفرعة من هذين الأصلين فهي بجملتها داخلة

---

(١) أي مع كذا وكذا وأمور أخرى مما يمكن أن يكون

في باب سلب العقل بعضِهِ أو أكثره وفي باب سلب الخُلق بعضِهِ أو كله .

وفي النفس الانسانية لا تمرض الحقيقةُ الا من سوء التخيل فيها . كأن نعمة الخيال انما وُهبت للانسان لتُخرجه من حدود الحقائق فيُفسدَها ويفسد آثارها فيه فتنقلب من مادة شقائه وهي مادةُ سعادته . فالخيال هو القوة التي يثب بها الانسان الى المجهول ، وهو نفسُه القوة التي يسقط بها اذا تقَاصَرت الوثْبـةُ أو طاشت وقلَّما جاءت إلا من هاتين ، والخيال هو العنصر الذي تمزجه بالحقائق ليُحدث فيها التنويعَ فيخرج ثلاثَ حقائق منَ اثنتين ، وهو نفسه العنصر الذي يستخرج الضرر الكامن في هذه الحقائق متى أسرف عليها فيُخرج من المنفعة الواحدة مضرَّتين للحقيقة وللانسان معاً

فالمَنْهومُ الذي ينتهي بطنُه ولا تنتهي نفسُه [1] ، والحريصُ الذي يفرغ عمره ولا يفرغ أملُه، والفاجر الذي

(١) يمتلىء بطنه ولا يزال يشتهى

تذهب مروءته ولا تذهب لذته ، والمدمن الذى يسقط عقله وخياله لايزال يعلو ، والمقامر الذى لاينفك يطمع في الغني وهو فقير حتى من الفقر .... [(١)] ؛ كل واحد من هؤلاء مريض بمرض خيالي واحد . أما الذى هو مريض بشيء من كل شيء فهو العاشق المريض بامرأة يهواها

وهل في شقوة الخيال وشدة غلوائه أعجب من خيال هذا العاشق إذ يرى الجمالَ المخلوق كله لا يبلغ مبلغ القُبلة الأُولى التى لا تزال في شفتي حبيبته لم تخلق بعد ؟

المرأة في النساء امرأة ، كالواحد في العَدَد واحد ؟ بَيْدَ أن خيال العاشق يرقم الى هذا الرقم الفرد صفا طويلا لا يراه أحد غيره فالواحد اسمه واحد ومعناه ملايين كثيرة ....

وبهذا يصبح العاشق مع المرأة الخياليَّة كالنسر حُطمت مخالبه وصدِع منقاره ونُسِل جناحاه فاسمه نسر ومعناه دَجاجة....

أُفّ للشعر يعلو بالأشياء كلها علوّ الاسرار الالهية

(١) المراد أنه نزل من العدم والحاجة منزلة قد يكون فقر الفقراء عندها شيئا يسمى يسرا

التى فيها ، ويعلو بالشاعر على كل الناس إذ كان فيه من رُوح الله أكثرُ مما فيهم ، ثم لا يكون عقابَه على هذا التألّه الا أن يَرمي بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمي امرأة ان كان فى الشاعر روحُ رجل تامٍّ ، أو بين سَفِلَة الخلق وسَفاسِفِ الأشياء ان كان الشاعر مؤنّثَ النفس أو ساقطَها

آه آه : إن الله لا يُنعِّم قلباً في الدنيا على أسلوب النعيم في الآخرة ولكنه ترك للناس أن يعذّبوا أنفسَهم هنا على نحوٍ مما هنالك ، فكلما طَفِئَتْ لهم نار أو قدوا غيرها يَحْتَرِقُون فيها ليذوقوا العذابَ لا ليموتوا

إن لنار الآخرة سبعةَ أبواب وكأن كل باب منها ألقى جمرةً على الأرض ، فبابٌ ألقى الوهمَ وآخرُ قذف الخوفَ وثالث رمى بالطمع والرابعُ بالحرص والخامسُ بالألم والسادسُ بالبغض . أما السابع فرمى بالشرّ الذى يجمع هذه الستةَ كلها وهو الحب

النار في الآخرة ولكن أرواحَها فى الناس لتَسُوق أرواحَ الناس اليها

خطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٧	١٢	قُروي	قَرَوي
٥٣	٦	والانخذال	والخذلان
٥٩	٤	في روح إما الرجل الخصبُ	في روح الرجل إما الخصبُ
٧٦	٨	من لدتك	من لذتك
٩٢	١٠	ما يخاض اليه	مالا يخاض اليه
١١٥	٣	لايمن	الايمان
١٢٥	٣	وكان الرجل	وكأن الرجل
١٤١	٦	المرأة تصير القبيحة	تصير المرأة القبيحة

